د. رأفت عبد الحميد

الفكر السياسى الأوروبى
فى
العصور الوسطى

دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع
عبده غريب - القاهرة

الفكر السياسى الأوربى فى العصور الوسطى

الفكر السياسى الأوربى
فى
العصور الوسطى

د/ رأفت عبد الحميد
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب – جامعة عين شمس

الناشر
دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)
عبده غريب

DL

الكتـــــاب: الفكر السياسي الأوروبي في العصور الوسطى

المؤلـــف: د/ رأفت عبد الحميد

رقم الإيـداع:٢٠٠١/١٧٨٧٧

الترقيم الدولي: ISBN

977 – 303 –398-8

تاريخ النشـر : ٢٠٠٢

الناشـــر : دار قباء

للطباعة والنشر والتوزيع

الإدارة

٥٨ شارع الحجاز – عمارة برج آمون

الدور الأول – شقة ٦

☏٦٣٦٢٥٦٢ – فاكس/ ٦٣٧٤٠٣٨

المكتبـة :

١٠ شارع كامل صدقي الفجالة (القاهرة)

☏ ٥٩١٧٥٣٢ / ✉ ١٢٢ (الفجالة)

المطابـع :

مدينة العاشر من رمضان – المنطقة الصناعية (C1)

☏ ٠١٥/٣٦٢٧٢٧

www. alinkya.com/kebaa
e-mail: qabaa@naseej.com

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

حرص الأستاذ الدكتور رأفت عبد الحميد، طيب الله ثراه، في السنوات الأخيرة من عمره على تجميع أعماله التاريخية المتناثرة Opera Minora ونشرها في مجموعات تاريخية بأسلوب لغوى رصين وحس أدبى رقيق يدفع القارئ إلى الاستزادة منها بنهم شديد. ومنذ عام تقريباً كنا نتحدث عن ضرورة أن يجمع سيادته كل ما كتبه عن تاريخ أوربا في العصور الوسطى ويضمنه في مجلد واحد ليفيد منه القراء والباحثون على حد سواء؟ وأجابني مبتسماً ابتسامته المعهودة لرفاقه وأصدقائه، قائلاً أنا في ذهني هذا المشروع وسأبدأ فيه إن شاء الله، وسيكون عنوانه "الفكر السياسي الأوروبي في العصور الوسطى".

ومضت الأيام كما أراد لها القدر، ورحل العالم رأفت عبد الحميد عن دنيانا في الخامس والعشرين من شهر يونيو عام ٢٠٠١، وكاد يرحل معه هذا المشروع التاريخي المهم؛ إلى أن زرت أسرته بعد فترة الحداد !! هناك في منزله المتواضع وقع بصرى على مكتبه لأجده يئن من عبء ما يحمله من كتب ومراجع تشير معظم عناوينها إلى مشروعه البحثي المرتقب. ونظرت إلى صورة سيادته، لأجد نفسي أقود قارب الذكريات وأمخر عباب سنوات عشر، قضيتها تلميذاً في محرابه؛ وترتد ابتسامته إليَّ وهو يذكرني بالمسئولية! لقد كان يذكرني دائماً بأنني سأحمل العبء عنه، وسأكمل ما بدأه من أساس لمدرسة متميزة في تاريخ العصور الوسطى؛ ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أحدث السيدة الفاضلة حرمه عن مشروع أستاذي، وأستأذنها في لم شتات هذا المشروع وإخراجه إلى النور !! وأجابتني بالدعاء. وها هي بعض أفكار أ. د. رأفت عبد الحميد عن مرحلة مهمة من مراحل تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، حاولت قدر جهدي، وبحكم معرفتي بمنهج أستاذي، أن أقدمها للقارئ والباحث في صورة أقرب ما تكون لتلك التي كان سيقدمها هو بنفسه لقراءه الأعزاء.

والكتاب الذى بين أيدينا الآن يحاول فيه المؤلف أن يؤكد على أن البابوية كانت المحرك الرئيسى لدفة الحكام والملوك فى أوروبا فى العصور الوسطى؛ فقد طرقت أبواب فرنسا وإيطاليا وألمانيا وغيرها، تارة برفق، وتارة أخرى بقبضة من حديد؛ والأخيرة كانت سمة البابوية فى العصور الوسطى! ولم لا! فالسلطة الروحية التى منحها بطرس الرسول للبابا جعلت منه لا كبيراً للكهنة فحسب، بل سيداً للعالم؛ فما كان يحله بطرس فى السماء كان يحله البابا على الأرض؛ وما يربطه فى السماء كان يربطه البابا على الأرض. وقد ترجم هذا المفهوم البابوى إلى واقع عملى، عندما كان يشهر سلاح الحرمان فى وجه هذا الإمبراطور أو ذاك.

وإذا كانت العلاقات بين البابا والفرنجة من الميروفنجين أو من الكارولنجيين قد بلغت ذروتها الطيبة بحادثة التتويج الشهيرة لشارلمان على أيدى البابا، فإنها على العكس سارت مع أباطرة ألمانيا معظم العصور الوسطى.

ففى الأيام الفاصلة بين عامى ٧٩٩ و ٨٠٠، وبالتحديد يوم الخامس والعشرين من ديسمبر عام ٧٩٩، قام البابا، ليو III كنوع من العرفان بالجميل، بتتويج شارلمان، خالعاً عليه لقب إمبراطور الرومان، وهو اللقب الذى كان يحمله الإمبراطور البيزنطى، القائم فى القسطنطينية، وريثة روما القديمة. فى هذا العام بالذات يمكن القول أن ناقوس الخطر بدأ يدق فى سماء أوروبا، لينذر الإمبراطورية البيزنطية، التى رفضت الإعتراف بشارلمان إمبراطوراً رومانيا، بخطورة ما أقدم عليه البابا، الذى كان يعمد إلى سحب البساط من تحت قدمى الإمبراطور البيزنطى، حامل اللقب وصاحب الحق التاريخى فيه.

وعلى الرغم من اعتراف الإمبراطور البيزنطى نقفور الأول ٨٠٢ – ٨١١م بعد ذلك بلقب شارلمان، إلاّ أن اعترافه لم يكن ليغير الكثير من فكر وعزم البابوية، التى أوحت للعالم الأوروبى أنها غدت الوصية على هذا اللقب، لتمنحه لم تشاء وتحجبه عمن تشاء أيضاً.

ويبدو أن فاه البابوية أفتر عن ابتسامة عريضة، تكشف عن زهوها لهذا النصر، الذى شقيت به أيضاً. فها هى تحاول ترويض ملوك ألمانيا الفتيان، وتبسط

سيادتها الروحية عليهم، لتجعل منهم ظهيراً عسكرياً يقضي لها مآدبها؛ ولهذا لم يتردد البابا في منح الإمبراطور الألمان في لقب "إمبراطور الرومان" Rex Romanorum في عام ٩٦٢م، الذي أفاد منه ملوك ألمانيا أيما إفادة فاقت كل تقديرات البابوية، ليتعكر الصفو بين الأخيرة والإمبراطورية الرومانية المقدسة، ويتحول الود بينهما إلى عداء سافر عرفه التاريخ باسم "الصراع بين البابوية والإمبراطورية". وقد استعرت نار العداء بين ألمانيا والبابوية عندما أدرك الأباطرة الألمان أن أمن ألمانيا وصولجانها يقبع في إيطاليا، ومن ثم خرجت الجيوش الألمانية مراراً إلى هناك لتبسط السيادة الألمانية عليه، الأمر الذي أصاب البابوية بخيبة أمل، لم تعرف لها مثيلاً، في علاقتها مع ألمانيا؛ فبدأت البابوية في استخدام الأسلحة الروحية لصد هذه الجحافل، فكان قرار الحرمان الكنسي خير وسيلة لحماية البابوية من بطش الألمان القادمين صوب الجنوب الإيطالي عازمين على البقاء والاستقرار. وهكذا يأتي الفصل الثالث من الكتاب ليؤكد على الدور السياسي للبابوية في أوروبا العصور الوسطى.

أما الفصل الثاني من الكتاب فيتعرض المؤلف فيه إلى قضية مهمة للغاية، وهي الدور الذي لعبته البابوية في قيام الحركة الصليبية؛ والذي يأتي استكمالاً للفكرة التي يطرحها المؤلف في الفصل الأول عن السمو البابوي في أوروبا آنذاك.

يكشف المؤلف في هذا الفصل الممتع النقاب عن وجه جديد من أوجه الدور السياسي للبابوية، وكيف كانت تتلاعب بالملوك والأمراء في سبيل إتمام أهدافها التي كانت ترمي إلى السيطرة والسيادة، بل وتوكيد سمو سلطانها على كل سلطان.

ويأتي الفصل الرابع في هذا الكتاب ليكشف النقاب عن نموذج من نماذج الحكم في أوروبا في العصور الوسطى، أعني الأنموذج الألماني، الذي كان يتأرجح بين الانتخاب والوراثة؛ والذي لم يكن بمنأى عن أيدي البابوية أيضاً.

على هذا النحو مضى مؤلف الكتاب في رحلة تزيد على ثلاثة قرون من عمر الزمان، محاولاً أن يكشف الحقيقة بحلوها ومرها، وأن يثبت من خلال هذا

السفر الجليل أن البابوية، بوجهها المليح أو القبيح، قد ساهمت إلى حد كبير فى تشكيل الفكر السياسى الأوروبى فى العصور الوسطى.

وفى الخاتمة لا يسعنى إلا أن أذكر حديث رسول الله (ﷺ) القائل فيه "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له". ونأمل من الله تعالى أن يصبح هذا السفر الجليل علم تنتفع به الأمة العربية.

وعلى الله قصد السبيل

د. طارق منصور

م. نصر – القاهرة

٢٠٠١/١/٢

الفصل الأول

السمو البابوى بين النظرية والتطبيق

ذات يـوم .. رسـم بعض زعماء يهود على وجوههم ابتسامة، ظاهرها فيه المـودة وباطـنها مـن قبلها الغيظ، وقدموا على المسيح يحملون بين أيديهم تحية، وقلوبهم بخبث الأفاعى ملآنة، وسألوه: "يا معلم .. نعلم أنك صادق وتعلم طريق الله بـالحق، ولا تبالى بأحد، لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس. فقل لنا ماذا تظن؟ أيجوز أن نعطـى الجـزية لقيصـر أم لا؟ لعلـم يسوع خبثهم وقال: لماذا تجربوننى يا مراءون[1]؟!"

فقـد أدرك المسـيح يقينا أن الإجابة بإحدى الكلمتين .. نعم .. أو .. لا، تحقق مأربى اليهود، فإن كانت الأولى، ضيقوا عليه الخناق، واتهموه بالادعاء، وصـاحوا فـى وجهه، كيف تكون ملكنا وتأمرنا بالمذلة لغيرنا؟ فاليهود كانوا يـريدون مسيحا دنيويا، يعيد إليهم مملكة داود وسليمان، أو مسيحا ملكا .. لما جـاءهم مسيح يزين لهم ملكوت السماوات، ويعدهم بالآخرة وعدا حسنا، آذوه وناسه، ونالوا منه ومن دعوته. وإن كانت الثانية، أعنى الإجابة بلا أسلموه بها للرومان، الذين سوف يعدونه محرضا لبنى قومه على عدم دفع الجزية، وتحدى سلطان الحكومة الرومانية.

لذا راح المسيح يتفحص وجوه الحيات وأولاد الأفاعى – كما كان يدعوهم – وقـال: "أرونـى معاملـة الجـزية .. فقدموا له دينارا. فسألهم: لمن هذه الصورة والكتابة؟ قالوا: لقيصر. قال: إذن أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله!"[2].

---

(١) متى ٢٢/١٥-٢١

(٢) نفس المصدر والصفحة.

ومـــر على هذا القول ثلاثمائة سنين وينيف، وإذا بالأسقف القرطبى العجوز هوسيوس Hosious يكتب إلى الإمبراطور الرومانـــى قسطنطيوس Constantius (٣٣٧-٣٦١) قـــائلا :"الله وضـــع فى يدك هذه المملكة، وإلينا سلم أمور الكنيسة. مكـــتوب : أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله .. إذن .. ليس من حقنا أن نمارس أمور الدنيا .. وليس من حقك أيها الأمير أن تحرق البخور"!!(٣).

ولمـــا آذنت شمس القرن الرابع بالمغيب، تضمنت رسائل وعظات أمبروز Ambrosius أســـقف ميلانو، عن علاقته بالإمبراطور فالنتينيان Valentinianus نفـــس العـــبارات، وأضـــاف : "الجزية لقيصر .. ذلك شئ لا ننكره، والكنيسة لله .. ومن ثم فلا تخضع لقيصر .. الإمبراطور داخل الكنيسة وليس فوقها"(٤).

Imperator intra ecclesiam, non supra ecclesiam est.

ويشـــد الأسقف الميلانى أوتار دعواه، فتعلو نغمة الخطاب إلى الإمبراطور ثيودوســـيوس Theodosius (٣٧٩-٣٩٥) صـــاحب الفضـــل الأول فـــى جعـــل المســـيحية، العقيدة الرسمية للإمبراطورية الرومانية؛ "أيها الإمبراطور .. عليك أن تصـــغى إلى فى قصرك طائعا، حتى لا تصغى إلى فى الكنيسة كارها .. لست إلا بشرا استولت عليك الضلالة، فامحها .. فالخطيئة لا يمحوها إلا الدموع والتوبة"(٥).

فندع ذلك الآن .. ولنعد أدراجنا ثانية إلى المسيح ...

لقـــد سأل يوما حوارييه .. تروا من أكون أنا عند الناس؟ فأجابوه يقولون : يوحـــنا المعمـــدان، وإيلـــيا، وإرميا .. أو واحد من الأنبياء. فسألهم المسيح "وأنتم؟ فأجـــاب سمعان .. أنت هو المسيح ابن الله الحى! فرد عليه .. طوبى لك يا سمعان بن يونا .. أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى، وأبواب الجحيم لن تقوى

---

(3) HOS. Ep. Ad. Const. (ATHANAS. Hist. Arian 44).
(4) AMB. Ep. Ad Theodosium. 33.
(5) AMB. Sermo contra Auxentium, 36.

علـــيها، وأعطـــيك مفاتـــيح ملكوت السماوات، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا فى السماء، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا فى السماوات"[6].

وتمضى القرون على أثر القرون، ويجئ عام ١٠٧٦، فإذا بالبابا جريجورى الســـابع Gregory VII (١٠٧٣-١٠٨٥) يصدر ضد الملك الألمانى هنرى الرابع Henry IV (١٠٥٦-١١٠٦) قـــرار الحرمان الكنسى، فى رسالة أشاح فيها بوجهه عـــن الملـــك المحـــروم، ورفعها مباشرة إلى بطرس أمير الرسل، وقال بالحرف الواحد: "بمقتضى السلطة المخولة لك من الله ، بحق الربط والحل فى السماء وعلى الأرض، وباعتـــبارى ممثلا لك .. أجرد هنرى الملك بن هنرى الإمبراطور، من ســـيادته على مملكة الألمان، والأراضى الإيطالية، وأحل رعيته المسيحية من كل إيمـــان الـــولاء التى قدموها، أو سوف يقدمونها له، وأحرم على أى إنسان أن يقوم على خدمته كملك، وبسلطانك أوثقه بوثاق اللعنة، وما ذلك إلا ليعلم الجميع ويوقنوا، أنـــك بطرس، وعلى صخرتك بنى ابن الله الحى كنيسته، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها"[7].

وفـــى عام ١٢٣٩، استخدم البابا جريجورى التاسع Gregory IX (١٢٢٧-١٢٤١) نفـــس العـــبارات، بل إن شئنا الدقة نفس السلطة، وهو يحرم الإمبراطور فـــردريك الـــثانى Frederick II (١٢١٢-١٢٥٠) ولكنه أضاف قوله: "وبمقتضى سلطانى[8]"، مما زاد القضية بعدا جديدا، سوف نعود إليه فى حينه.

تلك رحلة فى الزمان .. طويلة طويلة .. قطعتها البابوية عبر تسعة قرون، واصـــطرعت فيها على السلطة الزمنية، وتداولت وإياها جولات من النصر، ومن الهـــزيمة جولات، وراحت تستبق والإمبراطورية، تاركة وراءها مهمتها الأساسية، ورســـالتها الروحـــية، حتى أضحت فى القرن الثالث عشر تمثل البعد البؤرى فى

---

(٦) متى ١٦/١٣-٢٠

(7) GREG. VII First dep. and ban. Of Henry IV, Feb.22, 1076

(8) GREG. IX, excommunication of Frederick II, 1239.

السياســة الأوروبــية[9]، متناســية تماما أن المسيح لم يأت ملكا، ولم يكن صاحب نظرية سياسية، وأن ما ورد على لسانه عن حق لله، وحق لقيصر، لا يعدو الموقف فقــط الــذى قيل فيه، والفريسيون يحاورونه حول الجزية، أو ضريبة الرأس، التى كانــت تحمــل فى جوهرها المذلة لليهود فى الإمبراطورية الرومانية. وأن ما قاله لــبطرس وهو يحاوره، لم يذهب أبعد من معناه الروحى الذى تصوره بطرس وهو يحــاوره، لم يذهب أبعد من معناه الروحى الذى تصوره بطرس .. فإذا أضفنا إلى ذلــك، أن الجــزء الأخير من الحوار، أعنى السلطة المخولة لبطرس من المسيح، بمقتضــى إعطائــه مفاتيح ملكوت السماوات، لم تزد إلا فى إنجيل متى فقط، دون بقــية الأناجــيل[10] وأن يوحــنا لم يضمن إنجيله الرواية بالمرة .. أضاف هذا إلى قضية السمو البابوى علامات استفهام لها دلالاتها الكثيرة!!

والآن .. فلنرتد على آثار البابوية والإمبراطورية قصصا، لنعلم أى الحزبين كان أوسع خطوا، وأوفر على طريق السيادة والسمو قدرا.

فالفكــر السياسى الرومانى لم يكن يقبل مطلقا بوجود كيان مستقل عن سلطة الإمــبراطور، أو بتعبــير آخر دولة داخل الدولة، فالإمبراطور هو الكاهن الأعظم Pontifex Maximus وهــو صاحب السلطة المطلقة فى دولته[11]، والكنيسة تنأى بنفســها عــن هــذا الســلطان، وشعب الكنيسة يجل أسقفه أكثر مما يعظم الحاكم، ويزدرى عبادة الإمبراطور المؤله والربة روما، ويستبدلها بالمسيح والعذراء، ولما كانت العبادة الإمبراطورية تمثل رمز الولاء للدولة والحاكم، كان اضطهاد الأباطرة الــرومان للمســيحيين، اضــطهادا سياسيا فى جوهره، سواء عندما كان اضطهادا

---

(9) Ullmann, A short history of the Papacy, p. 208

(١٠) متى ١٦/١٣-٢٠ وقارن مرقس ٨/٢٧-٣٠ ولوقا ٩/١٨-٢٢

(١١) ســباين، تطور الفكر السياسى، الجزء الثانى، ص٢٤٠-٢٥٣ وأيضا، تشارلز وورث، الإمبراطورية الرومانــية، ص١٨-٢٦ وكذلــك، محمــد معروف الدواليبى: الوجيز فى الحقوق الرومانية وتاريخها الجزء الأول، ص٢٧١-٢٧٥

محلـــيا، حـــتى منتصف القرن الثالث، أو بعدما أصبح عاما بمقتضى أول مرسوم إمبراطورى، زمن الإمبراطور دكيوس Decius (٢٤٩-٢٥١) ومن أتوا بعده(١٢).

حـــتى إذا جـــاء قسطنطين Costantinus (٣٠٦-٣٣٧) وأعلن عن سياسته التســـامحية مـــع المسيحية، وبسط للكنيسة راحتيه لتعلو بهما لا عليهما، رفعته هذه مكانا عليا، وجعلته الحوارى الثالث عشر للمسيح(١٣) ولم يكن قسطنطين فى سياسته هـــذه إلا مطبقا للفكر السياسى الرومانى، فيما يتعلق بسلطة الإمبراطور، وإن كان بأســـلوب يخـــتلف عمـــا أنـــتهجه أســـلافه، تشهد بذلك رسالته إلى إسكندر أسقف الإســـكندرية وآريوس قسيسها، فى أولى مراحل النزاع العقيدى بين الرجلين حول المســـيح(١٤)، وإلى شعب أنطاكية عقب عزل أسقفها يوستاثيوس Eustathius النيقى المـــتحمس، وإلى أساقفة مجمع صور عام ٣٣٥ بعد تلكؤ أثناسيوس Athanasius الأســـقف السكندرى فى الحضور(١٥). ووجد فى النظرية التى حاك خيوطها مؤرخه ومداحه، يوسابيوس Eusebius أسقف قيسارية فلسطين، وشيخ مؤرخى الكنيسة، ما يـــتفق وســـيادته؛ إذ أعلـــن الأســـقف القيســـارى ابتهاجه بهذا التزاوج بين الدولة والكنيســـة، وراح يحيط شخص الإمبراطور بهالة سماوية من السلطان، على غرار الهالـــة الـــتى أحاطت الملكيات الثيوقراطية القديمة فى الشرق. ويخاطبه على أنه مخلـــوق مقدس يعلو أحكام البشر. وإذا كان من الصعب أن يظل الإمبراطور حتى الآن .. "الكاهـــن الأعظـــم"(١٦)، وأن يبيـــت مؤلهـــا، فلا ضير أن يصبح "الأسقف الأعلـــى"، وأن يغـــدو إنسانا مقدسا، اختير من الله، ليكون ممثلا له على الأرض.

---

(١٢) رأفت عبد الحميد، الدولة والكنيسة، الجزء الثانى، ص٣٨-٥٣.

(١٣) وضـــع شيخ مؤرخى الكنيسة يوسابيوس القيسارى كتابا أسماه "حياة قسطنطين" Vita Constantini بعـــد قصـــيدة مـــدح نظمها فى فضائل قسطنطين على الكنيسة بالإضافة إلى الكتاب العاشر من مؤلفه تاريخ الكنيسة Historia Ecclesiastica والتى بسط فيها نظرية التزاوج بين الدولة والكنيسة.

(14) EVSEB., Vita Const., II, 65-72

(15) Ibid, III, 60; IV 42,

(١٦) ظل قسطنطين وخلفاؤه يحملون اللقب الوثنى الكاهن الأعظم حتى إلغاء الإمبراطور جراتيان.

وكما أن الإله واحد، فلابد أن يكون هناك إمبراطور واحد، يصبح له بمرور الزمن السيادة على العالم، وحكما عالميا(١٧).

وهكذا وضع قسطنطين لخلفائه، سنة "القيصرية البابوية" Caesaropapism، وجرى بها لسان ابنه قسطنطيوس في مواجهة أساقفة مجمع ميلانو عام ٣٥٥، عندما راح النيقيون يحاجون بأنه ليس من حق الإمبراطور أن يتهم أحدا في غيبته، يعنون بذلك أثناسيوس السكندري، فقطع قسطنطيوس كل حديث ليعلن في صراحة: "إرادتي هي القانون"(١٨)، oper ego boulomai outo kanon وثبت دعائمها في القرن السادس الإمبراطور جوستنيان Iustinianus (٥٢٧-٥٦٥) في تشريعاته، حيث كانت حكومته تمثل الأنموذج الكلاسيكي للحاكم المسيحي في مجتمع مسيحي، والذي يرى من واجبه ليس فقط إقرار الإيمان الحق لرعاياه، بل أيضا التشريع والتنظيم الأساسي للكنيسة، وعبر عن ذلك في إحدى تشريعاته بقوله : "حيث أن الإمبراطورية Imperium والكهانة Sacerdotium تنبعان من مصدر واحد، فليس هناك ما يهم الإمبراطور في المقام الأول، إلا خيرية الكنيسة وسمعتها"(١٩).

وفي القرن الثامن الميلادي، بلغت "القيصرية البابوية" مداها على يد أباطرة الأسرة الأيزورية؛ فقد جاء في ديباجة الأكلوجا Ecloga (المختارات) التي صدرت باسم الإمبراطور ليو الثالث Leo III (٧١٧-٧٤١) وابنه قسطنطين الخامس (٧٤١-٧٧٥) تشبيه المسئوليات الإمبراطورية، بتلك التي تتعلق بالقديس بطرس؛ تشبيه

---

(١٧) هسي : العالم البيزنطي، ترجمة رأفت عبد الحميد، ص٢٣٠

(18) ATHANAS Hist, Arian 33.

(١٩) Novella VI prae. وقد تمثلت هذه الناحية في سياسة جوستنيان العقيدية، التي كانت تسير في ركاب العلم، أعني الجيش، أي محاولة إظهار نفسه مواليا للمنافزة عند محاربته للفرس في الشرق، ومناصرا لأصحاب الطبيعتين عند حربه مع الجرمان في الغرب. ولعل موقفه من البابا فيجيليوس Vigilius (٥٣٨-٥٥٥) يتفق والقيصرية البابوية تماما، إذ قبض سنين، ليقر ما أرتآه جوستيان. راجع :

Jones, Later Roman Empire, I, pp. 296-298

Holmes, The Age of Justinian and Theodora, II, pp. 681-686, 702

المسئوليات الإمبراطورية، بتلك التى تتعلق بالقديس بطرس؛ "حيث أن الله قد عهد إلينا بحكم الإمبراطورية، كما قضت بذلك مشيئته، فقد أمرنا أيضا – كما أمر بطرس – أن نطعم شعبه المؤمن" ثم أفصحت عنها دون مواربة، تلك الرسالة التى بعث بها ليو الثالث هذا إلى البابا جريجورى الثانى، أثناء العداء السافر بينهما بسبب إعلان أباطرة القسطنطينية الحرب ضد الإيقونات، ووصف فيها ليو نفسه بأنه "إمبراطور وقس"[٢٠]. على هذا النحو أمست الكنيسة فى الإمبراطورية، دائرة من دوائرها الحكومية، وغدا أسقفها موظفا كبيرا لدى الإمبراطور، الذى يعين الأساقفة ويعزلهم، ويدعو إلى عقد المجامع الدينية، وهو وحده المسئول عن الدعوة لعقد المجامع المسكونية، بل رفضها[٢١]. وهو الذى يترأس جلسات هذه المجامع المسكونية، حتى وإن لم يكن قد تلقى المعمودية، شأن قسطنطين فى مجمع نيقية عام ٣٢٥، ويدير دفة مناقشاتها، ويصدق على قراراتها، ويتدخل فى أمر العقيدة، ويضيف إلى قوانين الإيمان فيها، بوازع من نفسه، أو بوحى من غيره، علم من أمر اللاهوت شيئا أو لا يعلم، ومعظمهم لم يكن يعلم!.

وطوال ألف ومائة من السنين، عمر الإمبراطورية الرومانية فى ثيابها البيزنطية، لم ترفع الكنيسة رأسها معارضة الإمبراطور وإذا كانت قد آنست من نفسها قوة، حينا أو بعض حين، فقد كان لها الإمبراطور بالمرصاد؛ ذلك أن أباطرة

---

(٢٠) هذا اللقب نفسه كان التحية التى يقابل بها الإمبراطور فى المجامع الكنسية، وتثبت مضبطة جلسات مجمع خلقيدونية، المجمع المسكونى الرابع سنة ٤٥١ ذلك، بكلمة Pontifex أو Sacerdos وقد استخدم ليو الثالث هذا اللقب فى رسالته، لكن البابوية رفضت أن تخلعه عليه لحربه ضد الأيقونات.

(٢١) تدلنا الرسالة التى بعث بها أساقفة مجمع ريمينى Ariminuim المنعقد سنة ٣٥٩، إلى الإمبراطور قسطنطوس، وهم أساقفة النيقية، على أن الإمبراطور لم يسمح لهم بالعودة إلى ديارهم رغم انتهاء أعمال المجمع، وذلك ليطوعهم لإرادته وعقيدته الأريوسية. راجع :

ATHANAS., De Syn,. 55.

القسطنطينية لم يفرقوا مطلقا بين ما هو لله وما هو لقيصر، فالإمبراطور كان يعتبر نائب المسيح على الأرض[٢٢].

غـير أن هـذا لم يكن حال الكنيسة في النصف الغربى من الإمبراطورية، أوبتعبير أدق، ما غدا أوروبا العصور الوسطى، وذلك بعد أن ولاه الأباطرة دبرهم منحرفيـن إلـى الشـرق، وهجـروا روما القديمة على ضفاف التيبر، ليقيموا فى رومـاهم الجديـدة علـى شطآن البسفور، منذ أسس قسطنطين مدينته، التى حملت اسمه، على أطلال المدينة الإغريقية القديمة .. بيزنطة.

وكانـت هـذه الخطـوة ذات أثر بعيد فى قيام عالمين متباعدين تماما، فقد أضـحت القسطنطينية البوتقة التى انصهرت فيها عوامل عدة، فى مقدمتها التراث الـيونانى الرومانى وتراث حضارات الشرق القديم، والمسيحية، لتخلق عالما جديدا عـرف بالعـالم البـيزنطى[٢٣]، بينما اختلط الغرب الإمبراطورى بتراثه اللاتينى، وبالغـزوات الجرمانـية ثم غزوات الشماليين من بعد، طريقا آخر متباعدا به فى فكره وثقافته وحضارته واتجاهه العقيدى، عن العالم البيزنطى.

فبانـتقال العاصمة الإمبراطورية والأباطرة إلى النصف الشرقى، نيقوميديا Nicomedia أولا علـى عهـد دقلديـانوس Diocletianus (٢٨٤-٣٠٥) ثم روما الجديـدة أو القسـطنطينية، ابتداء بمؤسسها قسطنطين فى عام ٣٣٠، بهذا الانتقال احـتل الغـرب الرومانى، المرتبة الثانية من اهتمام الأباطرة، بينما حظى الشرق

---

(٢٢) مـن أهـم الأدلـة علـى ذلك الفسيفساء الموجودة من القرن السادس فى كنيسة سان فيتالى فى رافنا Ravenna وهـى تمـثل جوسـتنيان فى صورة نائب المسيح، الأوتوقراطور، امتدادا لشخصية ملكى صادق، ملك أورشليم، الملك الكاهن. راجع: أرنولد هاوزر، الفن والمجتمع عبر التاريخ، الجزء الأول. ص١٥٥ ونضـيف إلـى ذلك أن قاعة العرش الإمبراطورى، كان يقوم إلى جوار كرسى العرش عن يسـار، كرسى يظل شاغرا باعتباره خاصا بالمسيح، ويحتل الإمبراطور الكرسى الأيمن باعتباره نائبا عن المسيح.

(٢٣) للمـزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع – راجع : التقديم الذى كتبه المؤلف فى ترجمته لكتاب العالم البيزنطى، تأليف ج.م. هسى، ص٢٧-٤٤

بالمكانـــة الأولى لاعتبارات سياسية وعسكرية واقتصادية وبشرية[٢٤]. نتيجة لذلك، خلـت الساحة فى الغرب من شخصية سياسية قوية قادرة على ضبط الأمور هناك، خاصة إبان الفوضى التى منيت بها الإمبراطورية عند أدريانوبل Adrianople عام ٣٧٨ علـى يد قبيلة القوط الغربيين الجرمان. وخلال ثلاثة وعشرين عاما بعد وفاة الإمـبراطور فالنتينـيان الأول (٣٧٥)، لم يعرف النصف الغربى الخضوع لحاكم واحـد إلا خلال تسعة شهور فقط، وعلى فترتين، ما بين ٩ أغسطس ٣٧٨ و ١٩ يناير ٣٧٩ تحت سيادة جراتيان و ٦ سبتمبر ٣٩٤ حتى ٧ يناير ٣٩٥ تحت زعامة ثيودوسيوس Theodosius.

بـل حتى فى ثلاثينيات القرن الرابع نفسه، عندما أقدم قسطنطين قبيل وفاته علـى تقسـيم إدارة الحكم فى الإمبراطورية بين أبنائه الثلاثة، مما أعطى الفرصة للكنيسـة، كـى تسـتأثر بهـذا الإمبراطور أو ذاك، إلى الحد الذى دفع قنسطانز Constanse عـاهل الغـرب (٣٣٧-٣٥٠) إلى أن يهدده أخاه قسطنطيوس، حاكم الشرق، من أجل الأسقف السكندرى أثناسيوس[٢٥].

وفى عام ٣٩٥ تكرر نفس التقسيم لإدارة الحكم فى الإمبراطورية بين ولدى ثيودوسـيوس أركـاديوس Arcdius وهونوريوس Honorius . ولا شك أن وجود عاهليـن أو ثلاثـة عواهـل علـى عرش الإمبراطورية، يختلف كثيرا عن وجود شخصية واحدة مقتدرة على العرش.

---

(٢٤) فـى الحكومـة الرباعـية Tetrachia الـتى أقامها دقلديانوس، ليتغلب بها على أزمة القرن الثالث الميلادى، والفوضى السياسية فى الإمبراطورية، احتل هو مكانة السيد الأول فى النصف الشرقى، يليه ماكسـيميانوس Maximianus أوغسطس الغرب، ثم جاليريوس Galerius قيصر الشرق فى المرتبة الثالثة، وقسطنطيوس قيصر الغرب فى المرتبة الرابعة. وكان مجئ الشرق فى المرتبة الأولى واضحا لأعيـن المعاصـرين، حـتى أن لاكتانتيوس، البلاغى الأفريقى الشهير آنذاك، كتب يقول بعد أن قبل قسـطنطين ابن قسطنطيوس، نصيحة جاليريوس بالتخلى عن لقب الأوغسطس وقبول لقب القيصر، أنه هـبط مـن الدرجـة الثانية إلى الرابعة. انظر : LACT., De mort pers., 25 كما أن الإمبراطور زينون Zeno أهدى روما وإيطاليا إلى ثيوديريوس ملك القوط الشرقيين، ليبعد أذاه عن القسطنطينية.

(25) SOCRAT, Hist. Eccl., II, 22

وليت الأمر اقتصر على هذا الحد، فقد ابتلى الغرب خلال ثمانين عاما (٣٩٥-٤٧٦) بأباطرة على قدر كبير من ضعف الشخصية، التقوا جميعا على شئ واحد، هو أنهم خلفوا فقط للتاريخ أسماءهم، وارتبطت فى صفحاته ذكراهم بأنهم كانوا ألعوبة فى أيدى قادة الجرمان حتى أن ريكيمار Ricimer الجرمانى راح يعين خلال ستة عشر عاما (٤٥٦-٤٧٢) أربعة أباطرة، ويقوم على شنق أحدهم! بل كانت هناك سنوات بعينها قبل عام ٤٧٦، حين سقطت روما فى يد أدواكر Odovacar، خلا فيها عرش الغرب من وجود امبراطور[٣٦].

وقد أدرك أباطرة النصف الغربى أنفسهم، أن روما لم تعد العاصمة الساحرة القديمة، مدينة الخلود، ومن ثم انصرفوا عنها إلى ميلانو أو رافنا المدينة المحصنة فى الشمال الإيطالى. وأصبحت الأخيرة بالذات مستقرا لهم ومقاما، بينما أمست روما عندهم مدينة من الدرجة الثانية، استباحها القوط الغربيون عام ٤١٠، والوندال سنة ٤٥٥، والإمبراطور قابع فى قصره فى رافنا، وكان الأمر لا يعنيه فى شئ، مما أتاح الفرصة للبابوية فى روما، أن تساهم بنصيب ما فى التفاوض مع زعماء هذه القبائل الجرمانية للجلاء عن روما، وإن كانت الروايات الأسطورية قد أضفت على هذا الدور الشئ الكثير.

لكن الشئ الذى لا يمكن انكاره، أن الزحوف الجرمانية التى هطلت على الإمبراطورية عقب أدريانوبل، وراحت الولايات الغربية تساقط فى أيديها، تساقط أوراق الشجر فى مهب رياح الخريف، كانت قد تحولت إلى المسيحية، لكنها المسيحية الآريوسية، القائلة بخلق المسيح، عدا الفرنجة الذين اعتنقوا الكاثوليكية، والانجلوسكسون الذين ظلوا على وثنيتهم. هؤلاء الجرمان كانوا يحملون قدرا معينا من الاحترام لرجال الدين، حتى أن ثيودوريك زعيم القوط الشرقيين وملكهم فى إيطاليا، أرسل وفدا إلى الإمبراطور الرومانى فى القسطنطينية، جوستين Justinus (٥١٨-٥٢٧) يطلب إليه أن يرفع يد الاضطهاد عن الآريوسيين فى بلاده، حتى لا يضطر إلى

(36) Strayer & Munro, The Middle Ages, 395-1500, pp. 39-40

معاملـــة الكاثولـــيك فى إيطاليا بالأسلوب نفسه، وكان على رأس هذا الوفد، البابا، زعيم الكنيســـة الكاثوليكـــية فـــى الغرب، بل أن ثيودوريك رفض أكثر من مرة التدخل فى الخلافات الحادثة بين المتنازعين على العرش البطرسى فى روما.

هنا .. لابد لنا من وقفة قصيرة، نتابع بعدها المسير ..

فرغم كل هذه الظروف، إلا أن التحدى الكنسى فى الغرب لسلطان الأباطرة، لم يأت من أساقفة روما، بل من كنائس أخرى، وعلى وجه التحديد قرطبة وميلانو وبواتيـــيه زمـــن أســـاقفتها .. هوسيوس وأمبروز وهيلارى على التوالى؛ ذلك أن الصـــراع طالمـــا فـــى هذه الفترة من حول كرسى القديس بطرس بين المتنافسين، بهـــدف الحصول على لقب خليفة أمير الرسل. على أن السبب الجوهرى يتمثل فى أن كنيسة روما كانت مشغولة تماما قرابة قرن ونصف من الزمان، بقضية خطيرة هـــى إثـــبات علـــو كعبها على بقية الأسقفيات الأخرى، فى الإسكندرية وأنطاكية وأورشليم .. والقسطنطينية.

وتشـــهد بذلك قوانين المجامع المسكونية الثلاثة فى نيقة ٣٢٥، والقسطنطينية ٣٨١ وخلقيدونية ٤٥١. وتلك كانت الخطوة الأولى فى سبيل الزعامة(٢٧).

هذا إلى أن إيطاليا حظيت فى أخريات القرن الخامس وأوائل السادس (٤٩٣ -٥٢٦) بحكومة مركزية قوية، متمثلة فى مملكة القوط الشرقيين، فلما قضت عليها جيوش جوستنيان بعد حرب دامت ثلاثة وعشرين عاما (٥٣٣-٥٥٥) ولم يعد يمثل السلطة الإمبراطورية فى الغرب إلا النائب الإمبراطورى فى رافنا؛ راحت البابوية ترقى درج السمو غير هيابة، يساعدها على ذلك عوامل عدة.

فالصـــراع بين روما والقسطنطينية من أجل زعامة الكنيسة، أكسب البابوية عطـــف الحزب الرومانى فى العاصمة القديمة بصفة خاصة، والغرب بشكل عام؛

---

(٢٧) للوقـــوف علـــى تفاصيل هذا الصراع حول الزعامة الكنسية، راجع للمؤلف، الدولة والكنيسة، الجزء الخامس (تحت الطبع).

فقد وجدت إيطاليا نفسها تهبط إلى المرتبة الثانية، وروما فقدت مكانتها السياسية كعاصمة للإمبراطورية، وأمست مجرد عاصمة ولاية رومانية، بل حتى هذه تخلت عنها كارهة لرافنا. ومن ثم راحت تعوض في الزعامة الكنسية وتحدى سلطان الأباطرة من بعد – خسارتها السياسية.

ووسط الخراب الاقتصادى والتفسخ السياسى، الذى أمسى عليه الغرب الإمبراطورى، بعد سقوطه فى يد الجرمان، لم يجد الناس بين هذا الحطام ملاذا يلتفون حوله إلا الكنيسة، فهى الشئ الوحيد الذى بقى له نظامه فى هذه الفوضى. بل لقد تولت فى كثير من الأحيان، عن الدولة عبء إقامة العديد من المشروعات الزراعية، لما توفر لها من الثروة الطائلة التى أغدقت عليها من جانب الأباطرة من قبل.

وبينما كانت روما فى القرن الخامس تمثل جزيرة الكاثوليكية وسط محيط الآريوسية فى الغرب، وقد دان بها القوط الشرقيون فى إيطاليا، والقوط الغربيون فى أسبانيا، والوندال فى أفريقيا، شهد القرن السادس انحسارا لهذا المد وعلو شأن لروما، عندما تهاوت معاقل الآريوسية هذه، بتحول الفرنجة فى غالة إلى الكاثوليكية مباشرة، وتحول القوط الغربيين لها فى عام ٥٨٩، وسقوط كل من مملكتى الوندال والقوط الشرقيين على يد جوستنيان.

وكان وجود عناصر آفارية وصقلبية وتركية فى البلقان، كلها على الوثنية، ميدانا فسيحا ألقت البابوية فيه بكل ثقلها، متحدية سلطان كنيسة القسطنطينية التى تعتبر هذه المنطقة امتيازا خاصا لها، باعتبارها جزءا من ممتلكات الإمبراطورية وكان هذا يحمل فى طياته أيضا تحديا للسلطة الإمبراطورية فى القسطنطينية.

ونتيجة لإطراد العداء بين البابوية والقسطنطينية، كنيسة وحكومة، ولمصالح دنيوية خاصة بالبابوية، متمثلة فى الخوف من الزحف اللومباردى السائر قدما من شمال إيطاليا إلى وسطها، مهددا الممتلكات البابوية، وعداء نبلاء روما للبابا، ورغبة البابوية فى التخلص من السيادة القانونية لأباطرة القسطنطينية – باعتبار البابا مواطنا

رومانيا(٢٨)، والكنيسة الرومانية باعتبارها واقعة ضمن مناطق سيادة الإمبراطور، نتيجة لهـذا كله أقدم البابا ليو الثالث، فى ليلة عيد الميلاد لعام ٨٠٠، أعنى ٢٥ديسمبر ٧٩٩، على تتويج ملك الفرنجة شارل العظيم .. إمبراطورا فى الغرب!

وكانـت الكنيسـة آنئذ، كما عبرت عن ذلك الوثائق الرسمية الموجودة بين أيدينا، والتى وضعها آباء الكنيسة فى الغرب وزعماؤها، لا تطلب من الإمبراطور أكثر من الوقوف عند سلطانه الدنيوى، دون التدخل فى الشئون الكنسية، حملت ذلك كـتابات هوسـيوس القرطبى، وأمبروز الميلانى – كما أشرنا من قبل – والقديس أوغسـطين(٢٩) والـبابا ليو الأول الكبير (٤٤٠ – ٤٦١)، وإن كان البابا جلازيوس Gelasius I (٤٩٢-٤٩٦) يعـد صـاحب الفضل الأول، فى وضع أسس نظرية السـمو الـبابوى فى مرحلتها الأولى، أى الفصل بين ما لقيصر وما لله؛ فقد كتب يقول : "ميز المسيح بمقدمه بين وظيفة كل من السلطتين، بطبيعة نشاط كل منهما، ومكانتـيهما المتمايزتين .. يعتمد الأباطرة المسيحيون على رجال الدين فى خلاص أرواحهـم، بيـنما يسـتخدم رجال الاكليروس، الامكانيات الإمبراطورية لممارسة أمورهـم الزمنية .. من هنا يجب أن يظل العمل الروحى بعيدا عن الدنيوى، وأن يظـل "رجال الله" بعيدين عن المسائل الدنيوية، وبالمقابل، فإن من ينخرط فى سلك العمل الزمنى، لا يحق له أن يمارس نشاطا روحيا"(٣٠).

ويـزيد جلازيـوس المسـألة وضوحا، وهو يخاطب الإمبراطور البيزنطى انسطاسيوس الأول AnastasiusI (٤٩١-٥١٨) بقوله: "أيها الإمبراطور المعظم- هـناك حقيقـتان هامتان يسير عالمنا هذا بمقتضاهما: السلطة المقدسة للاكليروس،

(٢٨) حتى القرن الثامن كان البابوات رعايا الإمبراطور فى القسطنطينية. راجع :
Barry, The Papal Monarchy, P. 5

(٢٩) للمزيد من التفاصيل عن آراء القديس أوغسطس، راجع كتابه "مدينة الله" Civitas Dei وقد نقلها إلى الإنجليزية فى جزءين Marcus Dods وراجع أيضا فى ذلك:
The Political writings of St. Augustine, edited by, H. paolucci.

(٣٠) GELAS. Letter to Anastasius. ويذكـر جلازيـوس أن الأباطـرة حملوا لقب الكاهن الأعظم، ولكن بمجئ المسيح لم يعد الإمبراطور يستخدم هذا اللقب وهذه مغالطة تاريخية راجع حاشية رقم ١٦، ٢٠.

والســـلطة الملكـــية، أكثرهما عبئا وثقلا فى الميزان .. الاكليروس. فرجاله سوف يســـألون يوم الديتونة، حتى عن الميزان .. الاكليروس. فرجاله سوف يسألون يوم الديـــنوية، حـــتى عـــن الملـــوك أنفسهم ولتعلم أيها الابن الرحيم .. أنك رغم علو ســـلطانك علـــى الناس، فإنك يجب أن تخلى هامتك اجلالا لرجال الدين، وأن تنظر إلـــيهم باعتـــبارهم وسيلة خلاصك. عندما تقدم على تناول الأسرار المقدسة، ليكن معلومـــا لديـــك، أن مـــن واجبك الطاعة للقائمين بها، لا السيادة عليهم.. والرجوع إليهم، لا محاولة اخضاعهم لرغباتك".

ثـــم يعلـــنها صراحة بنيابة البابا عن بطرس أمير الرسل وسمو مكانته على الحـــاكم الزمنى، بقوله: "... ومع أن مكانتك مرموقة أيها الإمبراطور، فإن أحدا لا يمكن أن يعلو بنفسه، بأساليب بشرية، ليقارب تلك المكانة السامية لذلك الذى خاطبة صوت المسيح، وفضله على الآخرين، والكنيسة الموقرة باعتباره مؤسسها.

إن الأمـــور الـــتى أقرتها الإدارة السماوية، لا يمكن أن تنتهك بعجرفة بنى البشر، ولا يمكن أن تمحى بأية سلطة[٣١].

وعلى نفس الدرب سار البابا جريجورى الأول العظيم (٥٩٠-٦٠٤)، فكتب إلـــى الإمـــبراطور البـــيزنطى موريـــس (٥٨٢-٦٠٢) يقـــول: "أجب سيدك أيها الإمـــبراطور، فالمســـيح علـــى لسانى يسألك .. لقد أخذت بيدك وأنت بعد جندى، وجعلـــت مـــنك قـــائدا للحرس الإمبراطورى، ثم ارتقيت بك فصنعتك قيصرا، ثم رفعـــتك مكانا عليا فغدوت إمبراطورا وأتممت عليك نعمتى فرزقتك بنين أباطرة، وأمنتك على رجالى .. عجبا .. أتأتى الآن لتمنع جندك أن يعملوا فى خدمتى؟! بالله كيف ستجيب سيدك إذا جاء فى مجده ليدين الأحياء والأموات؟"[٣٢].

وفى عام ٧٢٩، كتب البابا جريجورى الثانى (٧١٥-٧٣١) إلى الإمبراطور لـــيو الثالث الأيزورى يقول: "نحن نستمد سلطتنا وسلطاننا من أمير الرسل بطرس،

---

(٣١) نفس المصدر.

(32) GREG. I, Letter to Maurice.

ونحن قادرون – إذا شئنا – أن نصدر حكمنا ضدك .. اصغ إلينا أيها الإمبراطور، فلـتكف عن القيام بأعمال الكهانة ... إن القوانين الكنسية شئ وإدارة الإمبراطورية شئ آخر .. وكما أنه ليس من حق البابا أن يتدخل فى أمور القصر الإمبراطورى، أو يعتدى على الامتيازات الملكية، فليس من حق الإمبراطور بالتالى أن يتدخل فى شـئون الكنيسة .. مكتوب "الدعوة التى دعى فيها كل واحد فليلبث فيها" (١كورنث ٢٠/٧) [٣٣]. غير أن هذه الرسائل إلى الأباطرة البيزنطيين فى القسطنطينية، لم يكن لهـا أدنـى تأثير على سياسة "القيصرية البابوية" التى اتبعوها، ولا على التمثل ب "الملـك الكاهن" ملكى صادق، إلى الحد الذى دفع البابا جلازيوس أن يشير إلى هذه الناحـية فـى رسـالته الـتى عرضنا لجانب منها، بل إن الإمبراطور ليو الثالث الأيزورى أقدم ردا على رسالة جريجورى الثانى، على فصل مناطق جنوب إيطاليا وصـقلية عـن السـيادة الـبابوية، وجعلهمـا تحـت الرعاية الأسقفية لبطريرك القسطنطينية.

والكنيسـة الرومانـية نفسها كانت تدرك حقيقة هذا الأمر، وأنه لا غنى عن السـيادة الإمبراطورية لحماية مركزها فى روما ضد أعدائها من اللومبارد والنبلاء الرومان وبعض العائلات الأرستقراطية فى روما، التى كانت تسعى للحصول على كرسـى القديس بطرس. وليس أدل على ذلك من الرسالة التى بعث بها الأكليروس الـرومانى، إلـى الإمـبراطور فى القرن السابع، حول الموافقة على اختيار البابا، وجـاء فيها : "... من أجل هذا، فإننا معشر أتباعك أيها الإمبراطور، نتوسل إليك بكـل الدموع، أن تتفضل بقبول التماسنا، وتحقيق رغبتنا، بتقليد ... الذى اخترناه، ولمجـد المملكـة نـرجو أن تتعطف بالموافقة. فما أن تقرون ذلك، حتى نبدأ على الفور فى الصلاة من أجل سيدنا الإمبراطور"[٣٤].

---

(33) GREG. II, Letter to Leo III. .

(34) A Letter from the Church at Rome to the Emperor at Constantinople, asking him to Confirm the election of their Bishop .

ولقد ذهب الأباطرة خطوة أبعد من ذلك، عندما فوضوا أرخون رامتا في القيام بدور الإمبراطور، في التصديق على اختيار البابا، نظرا لما قد يستغرقه عرض الأمر على الإمبراطور من زمن طويل، وما قد يحدث إبان ذلك في روما من جانب النبلاء الرومان، المتحفزين للوثوب على العرش البابوى، الذى أمسى نهبا لهم خلال القرن السابع الميلادى. ولدينا رسالة بعث بها الأكليروس الرومانى إلى أرخون رافنا حول هذه المسألة[٢٥].

بهذه الخلفية، وباطراد حدة العداء بين روما والقسطنطينية، والتباعد الواسع بينهما فكرا وثقافة، ومن بعد بقليل في الناحية العقيدية، والذى بلغ مداه في الصراع حول مشكلة الأيقونات، ورغبة من البابوية في التحرر من السلطان السياسى لأباطرة القسطنطينية، وتعويضا عن فقدان المكانة السياسية المومرقة – كما قدمنا – كل هذا دفع البابا ليو الثالث إلى تتويج شارلمان إمبراطورا في الغرب.

كانت حادثة التتويج هذه نقطة فاصلة على طريق السمو البابوى، فقد اعتبرت من أهم العمد الرئيسية التى بنيت عليها النظرية تطبيقا فيما بعد، بل ومحور الارتكاز في هذا التطبيق. ورغم أن هذه الحادثة أثارت الكثير من المشكلات في زمانها بين أباطرة القسطنطينية وملوك الفرنجة، وحيرت فقهاء القانون في حينها ومن بعد، وحول شرعية ما أقدمت عليه البابوية[٣٦]، إلا أن هذه تمسكت بما قدمته يداها، واعتبرته انتصارا كبيرا لها، ولم تتخل عنه مطلقا، وراحت تؤكده ثانية عام ٩٦٢ عندما أقدم البابا الغر العابث، يوحنا الثانى عشر،

---

(25) A Letter from the Church at Rome to the Exarch at Ravenna asking him to confirm the election of their Bishop. .

(٣٦) ناقش Barraclough هذه القضية باستفاضة في بحثه الممتع The Mediaevel Empire, Idea and Reality وقد قام الأستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف بنقله إلى العربية ضمن كتابه "الدولة والإمبراطورية في العصور الوسطى" وقدم له تقديما وافيا .. راجع الكتاب المذكور ص٢٨-٤٤ و١٦٩-١٨٩

على تتويج الملك الألماني أوتو الأول، امبراطورا، بسبب الدوافع نفسها التي حدثت بسلفه ليو الثالث إلى تتويج شارلمان، قبل ذلك بمائة واثنتين وستين سنة.

ولا شك أن البابوية كانت تدرك تماما خطورة العمل الذى أقدمت عليه، فمن يملــك حق منح التاج، يملك بالتالى حق سحبه. بتعبير آخر، من يملك سلطة اختيار الإمــبراطور، يملك سلطة عزله وكان شارلمان نفسه يدرك أبعاد هذا العمل، ولذا فإنـــه رغم اغتباطه المعتدل بحمل اللقب الإمبراطورى، إلا أنه اغتم للأسلوب الذى جـــرى بـــه، فقـــد كان يأمل لو أنه هو الذى وضع التاج بيديه على مفرقه، ولهذا ولأســـباب أخـــرى .. كتب مادحه اينهارد Einhard يقول، لو أن شارل كان يعلم ذلك، لما ذهب إلى كنيسة القديس بطرس!! (٣٧).

وإذا كانـــت الـــبابوية قد وجدت فى شارلمان الحماية السياسية ضد أعدائها البيزنطيين واللومبارد ونبلاء الرومان على السواء، فإنها افتقدت فيه الأداة الطبيعية التى كانت تؤلمها عندما خلعت عليه تاج أباطرة الرومان. بل غدا شارلمان القاضى الـــذى راح يفصل فى النزاع بين البابا وخصومه فى روما(٣٨) ووقف ليو الثالث فى حضرة الإمبراطور ليعلن: "... أنا ليو، أسقف الكنيسة الرومانية المقدسة، والذى لم يقاضنى من قبل أحد ولم يقهر إرادتى، أبرئ نفسى فى حضرتك، من أجل الله، من كـــل هـــذه الاتهامات"(٣٩). وكتب شارل العظيم إليه، محددا عمل البابا فى الواجبات الروحية فقط .. قال: "من واجبنا أن ندفع عن كنيسة المسيح أعداءها، وعليك أيها الأب العظـــيم أن تقدم لنا يد العون فى نضالنا الصادق، بأن ترفع إلى السماء أكف الضراعة، كما كان موسى من قبل يفعل"(٤٠).

وفى عام ٨٩٨، أقر المجمع المنعقد فى روما تحت رئاسة البابا يوحنا التاسع (٨٩٨-٩٠٠) عدم شرعية اختيار البابا إلا بحضور الإمبراطور أو ممثله(٤١)، وفى

---

(37) EINHARD, vita Caroli, III, 28
(38) EINHARD, vita Caroli, III, 28.
(39) LEO III, The oath before Karl the Great.
(40) KARL. MAGN., Letter to Leo III.
(41) JOHN IX, Enactment of a Roman Synod, 898.

عام ٩٦٣، وعن المجمع الذى التأم فى روما عقده، صدرت الوثيقة التالية: "... اتباعا للسنة التى وضعها البابا مبارك الذكر، الذى أعطى شارل ملك الفرنجة واللومبارد، مرتبة البطريق، والحق فى اختيار البابا وتعيين الأساقفة، أمنح أنا الأسقف ليو (الثامن) خادم خدام الرب، وكل أكليروس وشعب روما - بمقتضى السلطة الرسولية، أوتو الأول ملك الألمان، وخلفاءه، إلى الأبد، الحق فى اختيار خليفة البابا ورسمه، وكذا رؤساء الأساقفة والأساقفة. وليس من حق أحد مهما كانت مرتبته الكنسية أو مكانته، أن يمتلك سلطة اختيار أو رسم البابا أو أى أسقف، دون موافقة الإمبراطور. ويمارس الإمبراطور ذلك باعتباره ملكا (لإيطاليا) وبطريقا (لروما). وإذا ما تم اختيار أسقف من جانب الأكليروس والجموع، فلن تتم رسامته حتى يوافق الملك على ذلك، ويتسلم منه تقليده"(٤٢).

وقد وردت نفس العبارات فى الوثيقة التى تصور مقدم هنرى الثالث (١٠٣٩-١٠٥٦) الملك الألمانى وإمبراطور الرومان، فى النصف الأول من القرن الحادى عشر إلى روما، وعزله لثلاثة بابوات، وتعيينه لخمسة متتابعين(٤٣).

وقد يبدو الأمر على هذا النحو غريبا، ونتيجة مخالفة تماما للمقدمة التى ذكرناها، والقائلة أن سلطة التعيين والعزل أصبحت فى يد البابوية، منذ حادثة شارلمان، فكيف تصبح المسألة على العكس تماما، حتى منتصف القرن الحادى عشر، إذ أن الذى لا مراء فيه، أنه خلال حكم الأسرتين السكسونية (٩١٨-١٠٢٤) والفرنكونية (١٠٢٤-١١٢٥) فى ألمانيا، كان اختيار الباب مسألة إمبراطورية بحتة، هذا باستثناء الفترة التى بدأت بعهد هنرى الرابع منذ عام ١٠٥٦. وبلغت السلطة الزمنية قمة شأنها وعلوها، عندما أقدم هنرى الثالث (١٠٣٩-١٠٥٦) على إجبار ثلاثة من مدعى العرش البطرسى على الاعتزال فى سوترى Sutri وروما،

---

(42) LEO VIII, Grants the Emperor the right to choose the pope and invest all bishops, 963

(43) HENRY III., The Emperor deposes and Creates Popes, 1048

وتلقـــى الـــتاج على يد البابا الألمانى، الذى عينه من قبل وهو سويدجار Suidger أسقف بابمبرج Bamberg[٤٤].

الحقـــيقة أن البابوية دخلت منذ القرن التاسع، وعلى امتداد قرنين تاليين، فى حالـــة من انعدام الوزن، وفقدت مكانتها التى كانت لها من قبل، وابتليت بمرضين خبيثيـــن همـــا السيمونية، أى بيع الوظائف الكنسية، وزواج رجال الدين، خلافا لما استقر عليه الرأى فى مجمع نيقية سنة٣٢٥ وأصبح منصب البابوية ألعوبة فى أيدى بعـــض العائلات الأرستقراطية في روما، وحكرا عليها، ولعبت بعض الشخصيات النســـائية دورا كبيرا فى تعيين عدد من البابوات، واعتلى كرسى بطرس صبية فى سن اللهو والعبث، بل وبيع منصب البابوية فى كثير من الأحيان[٤٥].

وغرقـــت الكنيسة الرومانية فى الثراء، نتيجة الهبات التى أغدقت عليها من جانـــب ملـــوك أوروبا منذ أيام شارلمان، وحرص رجال الدين، وقد تزوجوا الآن وكونـــوا لهم عائلات، على توريث أبنائهم مناصبهم، ليرثوا بالتالى ثرواتهم، حتى غدا رجال الأكليروس "أمراء" يشكلون طبقة أرستقراطية ضخمة، تعادل أن لم تكن تفـــوق الأمـــراء العلمانيين، واشتغلوا بكل الأعمال المدنية والحياة العامة، إلى الحد الـــذى وصـــف فيه أحد المعاصرين، الإكليروس الألمانى فى القرن العاشر، بقوله: "إذا كانت هناك حقيقة واحدة فى ألمانيا، فهى أنه ليس هناك رجل دين تقى!!"[٤٦].

غـــير أن موجـــة من الإفاقة بدأت تدب فى أوصالها وهى كارهة! وسرت حركة الإصلاح الداخلى فيها، بتأثير رهبان دير كلونى، الذى ارتبطت به محاولات إخراج الكنيسة من التردى الذى انحدرت إليه.

---

(44) Joachimsen, Investiture Contest, p. 103

(٤٥) للوقوف على المزيد من تفصيلات هذه الفترة راجع:

Barry, The Papal Monarchy, pp. 144-162

(46) Thompson & Johnson, An introduction to Medieval Europe, p. 360

وكـــان بمقـــدور هؤلاء الرهبان، الذين وصل نفر منهم إلى كرسى القديس بطـــرس، أن يـــتزعموا الحركة الإصلاحية للقضاء على السيمونية وزواج رجال الديـــن، وذلك عن طريق عقد المجامع الكنسية، وإصدار المراسيم التى تحرم على شعب الكنيسة التعامل مع مثل هؤلاء الأساقفة المرتشين أو المارقين.

ولكن إذا كان من السهل نسبيا نجاح البابوية فى هذا السبيل، باعتباره مسألة داخلية، رغم المقاومة العنيفة التى أبداها عدد ليس بالقليل من الأكليروس المنتفعين بمـــثل هـــذه الأوضـــاع المتردية، وبعض ملوك أوروبا وفى مقدمتهم فيليب الأول Philip I ملـــك فرنســـا (١٠٦٠-١١٠٨)، فـــإن داء عضالا كان قد استشرى فى الكنيســـة، لـــم يكـــن من الميسور أبدا معالجته على هذا النحو، أعنى مشكلة التقليد العلمـــانى، وهـــى قيام العلمانيين من الأمراء والملوك بتعيين رجال الدين. وهنا .. ولأن الأمـــر لا يخـــص الكنيســـة وحدهـــا، كان لابد أن تصطدم البابوية بالسلطة الزمنـــية. ومـــن ثم أضحى التقليد العلمانى يمثل حجر الزاوية فى حركة الإصلاح الكنســـى فـــى العصور الوسطى، أو بتعبير أدق، بصفة مرحلية، حتى القرن الثانى عشـــر. عـــندما كـــان يمـــثل القـــناع الذى غطت به البابوية وجهها، حيث كانت الإمـــبراطورية فى الغرب صاحبة اليد الطولى فى شئون الكنيسة، فلما انتهى الأمر بين الطرفين إلى الاتفاق على حل وسط، تمثل فى اتفاقية وورمز(٤٧) Worms عام ١١٢٢، بيـــن الإمبراطور هنرى الخامس (١١٠٥-١١٢٤) والبابا كالكستس الثانى CalixtusII (١١١٨-١١٢٤)، وآنســـت الكنيســـة مـــن نفســـها قـــوة، ورأت فى الإمـــبراطورية ضعفا(٤٨)، أسقطت قناعها، وكشفت عن وجهها سافرة، وأعلنت أنها صاحبة الحق فى السيادة على العالم دنيا ودينا!!

---

(٤٧) راجع نص الاتفاقية Concordat of Worms فى :
Historical Documents of the Middle Ages, trans and ed. by Ernest Henderson. PP. 408-409

(٤٨) كـــان ذلـــك واضحا على عهدى لوثر (١١٢٥-١١٣٧) وكونراد الثالث (١١٣٧-١١٥٢) ورغم أن خلفاء كونراد كانوا على قدر كبير من القوة، إلا أن البابوية كانت قد صممت على تحقيق السمو كاملا.

وقـــد يتبادر إلى الذهن، أن الإمبراطورية كانت تتحدى حركة الإصلاح هذه أو تعارضـــها، ومن هنا جاء عداء البابوية لها. لكن الحقيقة أن الإمبراطورية كانت هى الأخرى تبغى الإصلاح الكنسى، وإن كان من وجهة نظر مخالفة، بمعنى أنه لا مانع من أن يتولى أمر البابوية والكنيسة أساقفة مصلحون، شريطة أن يتم اختيارهم عن طريق الأباطرة، ولقد مارس كل من أوتو الأول وحفيده الثالث، وهنرى الثالث هذه الناحية إلى أقصى حد، بهدف الارتقاء بالبابوية من التردى الذى هوت إليه فى القـــرن التاســـع وأنه لمن سخرية الأقدار حقا، أن يكون الأباطرة الألمان هم الذين جعلوا الإصلاح الكنسى حقيقة واقعة، ولكنهم فى النهاية كانوا أكثر الناس خسرانا من برنامج هذا الإصلاح.

كان الإصلاح من وجهة نظر البابوية هو إقرار العدالة فوق رؤوس الخطاة والعدالـــة أو الإصلاح تعنى الطاعة الكاملة للرب، وهذه تتحقق عن طريق الانقياد الـــتام للـــبابا، والخروج عليه يعد ضربا من الشرك، ووثنية(٤٩). لأن البابا ليس فقط مجـــرد خليفة للقديس بطرس، أول البابوات ورأس الكنيسة المسيحية على الأرض، ولكـــنه خليفة بطرس، تلميذ المسيح، باعتباره أداة الرب الذى اختارته السماء، ليقر العدالة فوق رؤوس الخطاة(٥٠).

وأى شـــئ أكـــبر شـــهادة ممـــا تضمنته المراسيم البابوية، التى تنسب إلى جـــريجورى الســـابع، الذى يعد مع إنوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨-١٢١٦) وبونيفاس الثامن Boniface VII (١٢٩٤-١٣٠٣) أشهر بابوات العصور الوسطى علـــى الإطلاق؛ فقد تضمنت سبعة وعشرين مرسوما، تسمو بالبابوية على عليين، جـــاء فيها، أن الكنيسة الرومانية رفع القواعد منها الله وحده، وأنها لم تقارف البتة الخطـــأ، ولن تخطئ طيلة عمرها الآتى، وأن البابا لا يسأل عما يفعل وهم يسألون،

---

(٤٩) عـــبر جريجورى السابع عن ذلك بقوله قبيل وفاته: "احببت العدل وكرهت الظلم، من أجل ذلك أموت فى المنفى".

Delexi Justiciam et odivi iniquitatem, propterea quod morior in exilio.

(50) Thompson & Johnson, op. cit., p. 378

وأنــه لا راد لقضـــائه، وأن أى مجمــع لا يمكــن أن يحوز الصفة المسكونية ألا برضـــائه، وأن مندوبيه فى أى مجمع عام، مهما صغرت مرتبتهم الكهنوتية، فوق كـــل الأســـاقفة، وبمقدورهم أن يصدروا ضد هؤلاء قرار العزل، وأن من حقه أن يعزل من الأساقفة من يشاء، ويولى من يشاء، دون الحاجة إلى رأى مجمع.

إلـــى هـــنا يـــبدو الأمـــر معقولا ما دام فى دائرة اختصاص الكنيسة، لكن المراســـيم أفصحت عما راحت البابوية تسعى الآن إليه وتدعمه، فتضمنت أن البابا يمكـــن أن يســـمح للأمراء بتقبيل قدمه، ثم ازدادت النغمة علوا فأضافت أنه يمكن للـــبابا عزل الأباطرة، وأن يحل الرعية من يمين الولاء لمن يعصاه وكانت خاتمة المطاف أن من حق البابا وحده استخدام الأشعرة الإمبراطورية(٥١).

هكـــذا جاءت المراسيم البابوية، وكان من الطبيعى نتيجة لذلك أن يغدو حكم العـــالم ثيوقراطـــيا محضا، وأن تبتلع الكنيسة الدولة، وأن تصبح الأرض كلها ولا شـــئ غير "مدينة الله" عند القديس أوغسطين، وقديما تصور شارلمان إمبراطوريته دولـــة ثيوقراطـــية، الإمـــبراطور فيها يمثل الله على الأرض، والكنيسة فيها إحدى دوائر الدولة، شأن أباطرة القسطنطينية.

لقـــد كـــان مفهوم البابوية عن الحكومة العالمية اقطاعيا، الله فيها هو السيد الأعظم للجميع، وهذا الذى يحكم العالم من خلال المسيح، الذى يحكم هو الآخر عن طريق بطرس، الذى يمارس سلطانه بواسطة البابا. أما الأباطرة والملوك والأمراء فليسوا إلا أفصالا تابعين للبابا ويمتلكون أراضيهم إقطاعا منه(٥٢).

تجسدت هذه الأفكار بصورة واضحة فى ذهن البابا جريجورى السابع، الذى كان يصور نفسه – كما تدل على ذلك رسائله إلى الإمبراطور هنرى الرابع، على أنـــه القناة التى من خلالها تنفذ إرادة بطرس أمير الرسل إلى بنى البشر، فكل كلمة تكتـــب أو تقـــال للبابا، فالذى يتلقاها هو بطرس نفسه، وإذا كان البابا يقرأ فقط أو

---

(51) Dictatus papae.

(52) C. M. H. Vol. V, p. 56. Thompson & Johnsonm, op. cit., p. 379.

يسمع ظاهر الكلمة المكتوبة أو المسموعة، فإن بطرس يطلع على خبئ نوايا كاتبها أو قائلهـــا، وكـــل ضرر يقع بالبابوية، حتى ولو كان حبيس الفكر، فإنه موجه إلى أمـــير الرسل مباشرة، فالبابا هو الناطق بلسان القديس بطرس، ومنه يستمد سلطانه الفـــائق بالـــربط والحل فى السماء وعلى الأرض. ولقد خاطب جريجورى السابع إكليروســـه فى مجمع عقد سنة ١٠٨٠ بقوله: "ألا فليدرك العالم أجمع، أنه إذا كان بمقدوركـــم الـــربط والحل فى السماء، فإنكم على الأرض قادرون على أن تعطوا الملـــك مـــن تشاءون، وتنزعونه ممن تشاؤون، فى الإمبراطوريات والممالك، فى الإمـــارات والدوقيات، فى الماركيات والكونتيات، بل إن شئتم فى كل ما يمتلكه بنو البشـــر". وكتـــب إلـــى ملـــك المجر عام ١٠٧٤ يقول : "نما إلى علمنا أنكم تلقيتم مملكـــتكم كإقطـــاع مـــن الملك الألمانى، وهذا يعد انتهاكا لحقوق وكرامة القديس بطـــرس، ويعد تصرفا لا يليق بملك فإن ما أردت أن تنعم برعاية القديس بطرس، ورضائنا، فعليك أن تصحح على الفور خطيئتك؛ فلعلك تعلم يقينا أنه لا أمل لك فى الخـــلاص، ولـــن تحظى بعهد طويل على العرش، ما لم تبادر إلى الإعتراف أنك تلقيت صولجان مملكتك من البابا وليس من الملك"(٥٣).

على خيوط هذه النظرية البطرسية(٥٤) باعتبار بطرس أمير الرسل، وصاحب الـــربط والحـــل فـــى الســـماء وعلى الأرض، نسجت البابوية خيوط سموها وعلو مكانـــتها- فى النواحى الروحية والزمنية سواء. دعمتها بنظرية السيفين، الروحى والزمنى، وتفوق الأول على الثانى، وهى النظرية التى تعود فى جذورها إلى البابا جلازيوس الأول، فى القرن الخامس؛ على النحو الذى أسلفنا من قبل(٥٥).

---

(٥٣) GREG. VII, Letter to Solomon, King of Hungary, 1074 والعديد من رسائل جريجورى الســـابع كلهـــا تدور حول هذا المعنى، الذى ورد فى رسالته إلى ملك المجر، من ذلك مثلا رسائله إلى فراتســـلاف ودوق بوهيميا Bohemia (١٠٧٣) وسانشو Sancho ملك أرغونه Aragon (١٠٧٤) والأمير الروسى ديمتريوس Demetrius (١٠٧٥).

(٥٤) وللمزيد من التفاصيل عن هذه النظرية، راجع :

Ozment, The Age of Reform, pp. 138-140

(٥٥) راجع قبله وانظر أيضا :

Brackmann, The national state, p. 282

ولم تجد البابوية حرجا في أن تزيف بعض الأمور أيضا، وصولا إلى تدعيم موقفها، وكانت هبة قسطنطين[٥٦] Donatio Constantini التي زيفت في البلاط البابوي حوالي عام ٧٦٠ للميلاد، أوضح الأمثلة على الوسائل التي لجأت إليها البابوية في هذا السبيل[٥٧]. وإن كان البابا جريجوري السابع والكاردينال همبرت Humbert قد رأوا في الهبه شيئا ينتقص من قيمة البابوية، إذ تبين أن الإمبراطور هو الذي وضع على رأس البابا، التاج الإمبراطوري وهذا بالطبع عكس ما كان يراه جريجوري السابع تماما، فبالنسبة له ولخلفائه، كانت الأولوية لهبة المسيح نفسه، وأن السيادة البابوية على الملوك والأباطرة، لم تأت من السلطة الإمبراطورية بل من الله وحده. ومع ذلك فقد استمرت النظرية لعدة قرون، ثم راحت في القرن الحادي عشر تتوارى بالحجاب[٥٨].

اعتمادا على هذا كله، راح البابوات يروجون لسلطانهم، ويتصرفون باعتبارهم كهنة وقضاة، ويكتبون إلى الحكام، كما لو كانوا يكتبون إلى من هم أدنى منهم مرتبة، نلمس ذلك من الصيغة المفضلة لدى البابوات، لتهنئة ملك ألماني جديد، فقد كانت تقول: "إن الأمم لتنشد سعادتها الغامرة من امتيازه وليتها ولا شئ يسعد الأبويين أكثر من أن يروا حكمة البنين وأمانتهم"[٥٩]. وتوجت كلمات الكاردينال همبرت، راهب اللورين الكلوني، وعضد جريجوري السابع، جبهة نظرية السمو البابوي، حين قال: "مثل البابوية والإمبراطورية كمثل الروح والجسد، كالسماء بالنسبة للأرض".

---

(٥٦) انظر نص الهبة :

Historical Documents of the Middle Ages, pp. 319-329

(٥٧) عن الآراء التي ناقشت زيف الهبة راجع :

Barry, The papal Monarch, p.27.

وأيضا Ullmann The Growth of papal Government, pp. 74-86

وكذلك Ozment, op. Cit., p. 140

(58) Southern, Western Society and the church in the Middle Ages, p. 101.

وأيضا : Bryce. Holy Roman Empire, p. 157

(59) Mundy, Europe in the high Middle Ages, pp. 322-323.

ولم يكن من السهل على ملوك أوروبا عامة، وألمانيا بصفة خاصة، بعد أن حملوا لقب "أباطرة الرومان" وارتبطت مصالحهم بإيطاليا والبابوية ارتباطا وثيقا، أن يقبلوا بسهولة هذا التعالى. ومن ثم كان ملوك ألمانيا، هم أكثر الحكام تأثرا بنظرية السمو البابوى، وأكثرهم معاناة من ناحية التطبيق.

ولقد قدمنا أن الإمبراطورية كانت هى الأخرى راغبة فى الإصلاح الكنسى، وإن كان من وجهة نظرها، أى أن يتم اختيار البابوات المصلحين على أيدى الأباطرة. وهنا تكمن نقطة الخلاف الرئيسية من يعين من؟! ومن يعزل صاحبه؟!

وكان لابد أن ينشط فقهاء القانون، المؤيدون للحق الإمبراطوري بصورة لا تقل عما ذهب إليه الحزب البابوى. ومن الطريف ان الحزب الإمبراطورى أقام دعواه على نفس القواعد - تقريبا - التى بنت عليها البابوية حججها، وفند بعض دعواها، وأضاف إليها أسانيد جوهرية؛ فالفصل بين ما لقيصر وما لله، يعني سلطة زمنية مستقلة، لها حقوقها الكاملة على رعايا بما فيهم البابا، باعتباره مواطنا رومانيا. والنظرية البطرسية القائمة علي تفويض السماء لبطرس في الربط والحل على الأرض، لا تتعدى فى مفهوم السلطة الزمنية - المسائل الروحية فقط ونظرية السيفين تعطى للإمبراطور نفس الحق الذى تعطيه للبابا، ويقدم الحزب الإمبراطورى دليلا من الكتاب المقدس على ذلك، ويتساءل - الم يقل بولس فى رسالته إلى أهل روما: "لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة، لأنه ليس سلطان إلا من الله، والسلاطين الكائنة هي مرتبة من الله حتى أن من يقاوم السلطان، يقاوم ترتيب الله، والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة، فإن الحكام ليسوا خوفا للأعمال الصالحة بل للشريرة ... لأنه خادم الله للصلاح ... لذلك يلزم أن يخضع له ليس بسبب الغضب فقط، بل أيضا بسبب الضمير، فإنكم لأجل هذا توفون الجزية أيضا.. فاعطوا الجميع حقوقهم، الجزية لمن له الجزية، الجباية لمن له الجباية" (١٣/١-٧) ومن ثم يضع المؤيدون للحق الإمبراطورى فى السيادة علامة استفهام كبيرة. إذا كان هذا قول بولس، فبأى حق تدعى البابوية السيادة؟!.

أمـــا عن "هبة قسطنطين" فبغض النظر عن ثبوت زيفها – كما أشرنا – فإن الواقع والمنطق لم يكن يقرها حتى فى حينها. فالرجل أمضى ثمانـــية عشر عاما (٣٠٦-٣٢٣) يناضـــل من أجل توحيد الإمبراطورية، والفكر السياسى الرومانى لم يكـــن يقـــبل بالتنازل طواعية أو غصبا عن جزء من الإمبراطورية. وحتى عندما ضـــاع النصف الغربى من الإمبراطورية حقيقة على يد الجرمان، ظل الرومان – علـــى الأقل – من الناحية النظرية، يعتبرون الإمبراطورية الواحدة قائمة. وإلا فبم تفسر جهود جوستنيان وحروبه الاستردادية فى القرن السادس، وسياسة الأيزوريين فـــى القرن الثامن، واتجاهات المقدونيين فى القرن العاشر، وطموحات آل كومنين، خاصـــة مـــانويل، فـــى القـــرن الثانى عشر؟ وهؤلاء هم أنصار جمهورية أرنولد البريشى Arnold of Brescia الذين أعلنوا الثورة فى روما فى القرن الثانى عشر، وتحـــدوا ســـلطان البابا، مما دفعه إلى الاستنجاد بالملك الألمانى فردريك بربار وسا Frederick Barbarossa (١١٥٢-١١٩٠)، يعلـــنون "هـــذه الأســـطورة الـــزائفة والمضللة، والتى تدعى أن قسطنطين قد أعطى الإمبراطورية إلى سيلفستر، قد ساد زيفها فى روما، حتى ألجم أفواه رجل الشارع، والنسوة، وصفوة المثقفين.

ولم يجرؤ البابا وكرادلته على الظهور فى المدينة خشية الفضيحة"[٦٠]. ورغم أن البابوية قد غضت الطرف عن هذه "الهبة" المزعومة، منذ القرن الحادى عشر، إلا أن كـــتاب الإمـــبراطورية ومؤيديها، راحوا يناقشونها إلى وقت متأخر، بهدف التشـــهير بالـــبابوية، لتزييفها مثل هذه الأسانيد؛ فقد لاحظ أكورسيوس Accursius أحد رجال القانون فى القرن الثالث عشر، إنه إذا كان قد حدث فعلا، فإنه يعد أمرا باطلا، لأن الإمبراطور قد أعطى شيئا لا يملكه. لقد كان حاكما للإمبراطورية، ولم يكن مالكا لها[٦١].

ومـــا لـــنا نذهـــب بعيدا، والملك الألمانى هنرى الرابع يحسم القضية بعبارة واضحة جاءت فى رسالة إلى البابا جريجورى السابع، عام ١٠٧٦ يقول فيها: "من

(60) Mundy, op. cit. P.321

(61) Id.

هنرى الملك، ليس عن طريق الاغتصاب، بل برسامة مقدسة بيد الله، إلى هليدبراند الراهــب الــزائف، ولــيس البابا .. أخطأت إذ تصورت أن تواضعنا يعد ضعفا، وتجاســرت علــى مهاجمة السلطة الملكية والإمبراطورية التى تسلمناها من الله .. وهــددت بتجريدنا منها، كما لو كنا قد تسلمناها منك، وكما لو كانت الإمبراطورية والمملكــة معقودة بإرادتك وليس بإرادتك وليس بإرادة الله .. ألا فلتعلم .. أن الرب يســوع المســيح قــد دعانــا لحكم الإمبراطورية، لكنه لم يدعك أبدا لتتسلط على الكنيسة"[٦٢].

هــذان خصمان اختصموا فى مصدر سلطانهم، والتقوا على طرفى نقيض، وكان لابد أن يبدأ النزال.

فــى عــام ١٠٥٩ كــان هنرى الرابع ملك ألمانيا، يعانى غض العمر وسن القصــور، ويقاســى ويلات وصاية فرضها عليه الداهية أنو Anno رئيس أساقفة كولونــى Cologne طمعا فى دخل أراضى التاج، بعد أن اختطفه وأكليروسه من بيــن أحضــان أمه الوصية الشرعية. فى هذا العام، وبعد مضى ثلاث سنوات فقط علــى وفــاة هنرى الثالث، الذى مارس – بهدف الإصلاح – مهمة عزل ثلاثة من الــبابوات وتعييــن خمسة آخرين. تم عقد مجمع فى روما تحت رعاية البابا نيقولا الــثانى Nicholas II (١٠٥٩-١٠٦١)، كان القرار الرئيسى الذى صدر عنه، هو أن يــتم اختــيار الــبابا عــن طريق كرادلة روما السبعة، دون تدخل من السلطة العلمانية، ممثلة فى الإمبراطور[٦٣]. ويتم تطبيق ذلك فعلا عند اختيار البابا اسكندر الــثانى Alexander (١٠٦١-١٠٧٣). وكان هذا يعنى إغفال تعهدات البابوية من قــبل فى هذا السبيل، والتى صدرت عن البابا ليو الثالث إلى شارلمان، والبابا ليو الثامــن إلى أوتو الأول، والمجمع المنعقد فى روما عام ٨٩٨[٦٤]. وكان ذلك أيضا يمــثل أول تطبيق عملى لنظرية السمو البابوى، أحرزت به البابوية نقطة فى حلبة

(62) HENRY IV, The deposition of Gregory VII, 1076
(63) NICHOLAS II, The papal election decree, 1059

(٦٤) راجع قبله.

الصـــراع الدامى الآتى، وعرفت البابوية كيف تستغل الظروف السياسية المهيأة لها تماما آنذاك.

فعلى الساحة الدولية، كانت الإمبراطورية البيزنطية تعانى أوجاع الانحلال، فى الفترة التى أعقبت وفاة باسيل الثانى Basil II سنة ١٠٢٥ فالسلاجقة يجرحون كـبرياءها فـى آسـيا الصـغرى، والنورمان يوارون التراب جسدها المسجى فى إيطالـيا. والملكية الفرنسية على عرشها ملك هو فيليب الأول، سرى تهتكه مسرى الفضـيحة، يمارس السيمونية علنا، ويستجلب على نفسه بكل الرضى، سخط الناس والـبابويه. وفى إنجلترا، كان جدار آخر ملوك السكسون يريد أن ينقض، فلما أقام وليم النورمانى الفاتح، بديلا، كان عليه حتما مقضيا أن يشغل نفسه ويصرف جهده أيضـا لبناء دولة جديدة. أما ألمانيا، بيت القصيد، فحالها كما علمنا، لا يخفى على أحد، وملكها لا حول له ولا قوة إلا بالاكليروس!!

والبابوية تمكن لنفسها فى الأرض، فتعقد المحالفات السياسية هنا وهناك، بعد أن أصـبحت هى الأخرى ضمن عداد القوى السياسية فى أوروبا، سعيا لأن تعلوها جميعا. فها هى تمد يد الصداقة للكونتيسة ماتيلدا Matilda دوقة تسكانيا Tuscany، وتوقـع معـاهدة مع زعماء النورمان جنوبى إيطاليا وصقلية، التزم فيها هؤلاء بيميـن الولاء للبابوية باعتبارهم أفصالا إقطاعيين، فغدت الأراضى التى يسيطرون علـيها إقطاعا بابويا[٦٥]. هذه النقطة الأخيرة بالذات، عدت خطوة أوسع من البابوية نحـو السـيادة الزمنـية، وفى الوقت ذاته إهانة بالغة وجهت إلى الملكية الألمانية، وذلـك لأن الـبابوية نقلت إدعاءات الأباطرة الألمان فى جنوبى إيطاليا، باعتبارها جزءا من الإمبراطورية، إلى سادة جدد هم النورمان؛ وإن كانت حقيقة الأمر تعنى السيادة البابوية نفسها باعتبار البابا الآن (١٠٥٩) قد غدا سيدا إقطاعيا!

(65) R. GUISCARD, The oaths of R. Guiscard to Nicholas II. 1059

بهذه التحالفات السياسية والعسكرية، وبقوة الارتكاز إلى النظرية البطرسية، والحجج والأسانيد التى سقناها، أعلنت البابوية صراحة تحديها للسلطة الزمنية، ممثلة فى ملوك أوروبا، فعقد جريجورى السابع عام ١٠٧٤، ١٠٧٥ عددا من المجامع[٦٦]، أعلن فيها الحرب على السيمونية وزواج رجال الدين والتقليد العلمانى، وأرسل مندوبيه ورجاله إلى كل أنحاء أوروبا، ليمارسوا سياسة التطهر الجديدة التى أعلنها جريجورى السابع، أو "الشيطان المقدس" Holy Satan كما وصفه الراهب بطرس الدميانى Peter Damian[٦٧]. وكتب إلى هنرى الرابع، الملك الألمانى، رسالة فى ديسمبر ١٠٧٥، تنبه إلى ضرورة مراعاة ما جاء بقرارات المجامع التى عقدها البابا، خاصة فيما يتعلق بالتقليد العلمانى. والتى قوبلت بعاصفة هوجاء من الاحتجاج، بين الاكليروس الألمانى، الذى كان قد بلغ حدا من الثراء والنفوذ، خشى معه من قرارات الإصلاح البابوية، وهذا ما يفسر لنا وقوف نفر ليس بالقليل من رجال الدين فى ألمانيا إلى جانب السلطة الزمنية ضد البابوية فى أول الأمر. وكان ما أثر غيظ هنرى الرابع فى هذه الرسالة، ما طلبه إليه جريجورى من عزل خمسة من المستشارين كان جريجورى السابع قد أصدر قرارا بحرمانهم من رحمة الكنيسة. ومن الطبيعى أن يرفض الملك الألمانى ما عده تدخلا سافرا من البابا فى الشئون الداخلية لدولته، وتطاولا على حقوق السلطة الزمنية. ولما كان هنرى هو الآخر، يعتمد على وجهة نظر الأباطرة فى السيادة، ويهتدى بخطى أبيه، فقد راح يمارس حقه فى تعيين الأساقفة فى الأسقفيات الشاغرة، على أن ما أثار حنق جريجورى السابع، إقدام هنرى على تقليد أساقفة ثلاثة لأسقفيات ميلانو وفيرمو Ferme وسبوليتو Spolito، والأخيرتان تابعتان مباشرة لسلطان كنيسة روما.

---

(66) Thatcher & McNeal, A source book for Mediaeval History, pp. 134-135.

(٦٧) Thompson & Johnson, op. cit., p. 377، ولمزيد من التفاصيل عن الراهب بطرس الدميانى، انظر: كانتور: التاريخ الوسيط، القسم الثانى، ترجمة دكتور قاسم عبده قاسم، ص ٤١٩-٤٢٢،

ولمـــا أبلـــغ مندوبو البابا، الملك، الجانب الشفهى من الرسالة، والذى يعنى الـــتهديد بوضـــع هـــنرى تحـــت طائلة الحرمان الكنسى، فى حالة رفضه الامتثال لمطالب البابا، أقدم هنرى بكل الغضب على دعوة الاكليروس الألمانى ومستشاريه، إلـــى عقـــد مجمـــع فى الرابع والعشرين من يناير سنة ١٠٧٦، فى مدينة وورمز Worms، انـــتهى إلى إصدار قرار بعزل جريجورى السابع من منصبه، وتضمنت ذلـــك رســـالة هنرى الرابع إلى البابا، مخاطبا إياه فيها باسمه الرهبانى "هليدبراند"، والتى أشرنا إلى طرف منها، وجاء فيها.

".. خـــبرنى .. مـــن من الناس لم تعقد لسانه لدهشة ويتميز من الغيظ، وهو يـــراك تدعـــى الانفراد بالسلطة؟! .. إن من يعرف الكتب المقدسة يدرك يقينا مدى جـــنون هذا الإدعاء وحيث إن كنيسة الله، بسبب فعالك، قد بات يتهددها الخطر من جـــراء عجرفـــتك، .. فقـــد قررنا أن نخرج عن صمتنا الذى التزمناه، وأن نكشف للجميع عن الأسباب التى تجعلك غير أهل للبابوية"(٦٨).

ويمضـــى هـــنرى الرابع فى رسالته مبينا الأسباب التى دفعت المجمع إلى اتخـــاذ قـــراره، إلى أن يصل فى النهاية إلى قوله: ".. لكل هذا صدر قرار بإدانتك علـــى يد أساقفتنا وبموافقتنا، فلتتنح إذن عن الكرسى الرسولى الذى اغتصبته، لتدع غيرك يعتلى عرش القديس بطرس، فلن يمارس العنف تحت رداء الدين، بل سوف يعلم العقيدة الحقة للقديس بطرس. أنا هنرى .. الملك بإرادة الرب أقول لك، ومعى كل أساقفتى: تنح .. تنح .. ولتكن ملعونا على مر الدهور"(٦٩).

وتلقـــف جـــريجورى السابع الكرة بدوره، وكتب رسالة وجهها إلى القديس بطـــرس(٧٠)، أبلغه فيها أنه بناء على السلطة المخولة له منه، فقد حرم هنرى الرابع مـــن رحمـــة الكنيســـة، ووضـــعه تحت قيود اللعنة، وجرده من مملكته فى ألمانيا

---

(68) HENRY IV, The deposition of Gregory VII. 1076

(٦٩) نفس المرجع السابق.

(٧٠) جـــاء فى المراسيم البابوية، "إذا ما تم رسم بابا على نحو شرعى، فإنه يغدو دون ريب قديسا .. ببركة القديس بطرس. ومن هذا المنطلق وجه البابا رسالته هذه إلى القديس بطرس انظر Dictatus papae وراجع أيضا Southfern, WesternnSociety, p. 1045

وسيادته على إيطاليا، وأحل رعاياه من إيمان الولاء التى قدموها أو سوف يقدمونها له، وحرم على أى إنسان أن يقوم على خدمته كملك(٧١).

هكــذا خلــع كل من الرجلين صاحبه، وبقيت مرحلة التنفيذ، وتساءل الناس ساعتها، من تراه أقوى باعا وأطول ذراعا؟!.

وبــنظرة فاحصـــة علـــى الساحة الدولية كما عرضنا لها منذ قليل كانت الــبابوية هى الأقوى، لكن العامل الحاسم فى صالحها جاء من داخل ألمانيا نفسها؛ فالــنظام السياسى الألمانى القائم على الملكية الانتخابية(٧٢)، والسمات البارزة لنظام حكــم إقطــاعى بمفهــوم العصور الوسطى، جعل الأمراء الألمان أصحاب الحول والطــول فــى شــئون ألمانيا، ولما كانوا يحملون كل العداء لمليكهم، فقد انتهزوا الفرصـــة وأعلــنوا عزلــه، إلى أن يحصل على الغفران. وليس هنا مجال الحديث تفصـــيلا عــن الصراع بين الملك والأمراء(٧٣)، لكن الذى يعنينا أنه فى سبيل هذا الغفران، سعى هنرى الرابع متجردا من أشعرته الملكية، متوجها تلقاء روما. ولما كــان الــبابا قــد اتخذ سبيله هو الآخر، موليا وجهه شطر ألمانيا، بناء على دعوة الأمــراء الألمــان، لــيقف قاضيا بينهم وبين ملكيهم، فإنه قد آوى إلى تسكانيا عند حليفته ماتيلدا، حالة سماعه بنبأ خروج هنرى فى طريقه إلى روما، مخافة أن يكون الملــك قد أعد كمينا يتصيد به البابا واحتمى البابا بقلعة كانوسا Canossa فى أعلى جــبال تســكانيا. وتقطعت أنفاس هنرى، وتصبب عرقه كأنما يصعد السماء، رغم الشــتاء القــارص وهو يحاول وزوجته المخلصة، الوصول إلى القلعة وهناك على أبوابهــا وقــف ثلاث ليال سويا، يطرق باب رحمة البابا، الذى كان قلبه كحجارة جبال تسكانيا أو أشد قسوة!! حتى إذا سمح له بالدخول، خر الملك على قدمى البابا

(٧١) راجع قبله.

(٧٢) راجع فى هذا المجال الفصل الرابع.

(٧٣) للمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث راجع : Z. Brook, A hsitory of Europe, pp. 177-202

سجدا وبكيا، يغسلها بدموع التوبة والندامة! وتعطف خليفة بطرس، وزعيم المسيحية الكاثوليكية، وأعلن أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه، دون ما تأخر! (٧٤).

هكذا تسنمت البابوية قمة الجبل .. وتدنت الإمبراطورية ..وذهب إذلال كانوسا فى التاريخ مثلا(٧٥). وكانت سابقة لم تتدخل عنه البابوية. ولا نسيتها الإمبراطورية، وراحت البابوية بعدها تدس أنفها وأصابعها كلها فى شئون ألمانيا، بل وأوروبا كلها إلى حد بعيد .. وكيف لا وقد جاءتها أوروبا طائعة، تلبى نداء الخروج لحمل الصليب، الذى أذاعه البابا الثانى Urban II (١٠٨٨-١٠٩٩) مرددة جموعها إنها إرادة الله!!

وأملت البابوية فى هنرى الخامس (١١٠٥-١١٢٥)، الذى سعت لرفعه إلى عرش ألمانيا، خيرا كى يصبح فى يدها أداة طيعة، لكن هنرى الخامس لم يكن أقل من أبيه وأسلافه الفرنكونيين والسكسون، حرصا على حقوق السيادة الملكية، فيما يتعلق بمشكلة التقليد العلمانى، التى دار من حولها الصراع على النحو الذى رأينا، ومن ثم دارت المفاوضات بينه وبين البابا باسكال الثانى Paschal II (١٠٩٩-١١١٨)، ولكنها لم تؤد إلى نتيجة حاسمة(٧٦)، غير أن هذه المفاوضات استمرت حتى عهد البابا كالكستس الثانى Calixtus II (١١١٩-١١٢٤) ليتم الاتفاق بين الطرفين فى معاهدة وورمز Worms سنة ١١٢٢(٧٧) والتى بمقتضاها تم التوصل إلى حل وسط يرضى الطرفين مؤقتا، وقبل كل منهما اقتسام الرغيف. على أن الحقيقة التى لا يمكن إنكارها، أن البابوية خرجت من هذا الصراع قوية الجانب مرهوبة السلطان، وعلى الرغم من أنه لا يمكن القول إنها قد نجحت تماما فى فرض برنامجها الإصلاحى، فيما يتعلق بالسيمونية وزواج رجال الدين، إلا أنها

---

(٧٤) راجع تفاصيل "إذلال كانوسا" فى : GREG. VII, Letter to the German princes 1077

(٧٥) اتخذت الأجيال التالية فى ألمانيا، من حادثة كانوسا رمزا لخضوع الدولة للكنيسة، وأوضح الأمثلة على ذلك ما قاله المستشار الألمانى بسمارك فى القرن التاسع عشر، فى معرض نزاعه مع الكنيسة الكاثوليكية، "أننا لن نذهب إلى كانوسا".

(76) PASCHAL. II, The first and second privileges to Henry V, 1111.

(77) Concordat of Worms, 1122.

خطت في ذلك السبيل خطوات بعيدة، على حين نجدها أنها قد أفلحت نسبيا فى التوصل إلى حل لمشكلة التقليد العلمانى. وإذا كانت البابوية لم تستطع أن تحرر الكنيسة من سلطان الدولة، فإنها من ناحية أخرى قد حققت سيادتها على الكنيسة. على أنه لا يزال هناك أمامها طريق طويل وشاق من أجل تحقيق سموها بصورة فعالة، بعد أن أعلنت الآن بكل الإصرار، ادعاءاتها بالسيادة الزمنية(٧٨).

ومن هنا كانت اتفاقية وورمز تمثل نهاية مرحلة وبداية طريق .. مرحلة اصطرعت فيها البابوية والسلطة الزمنية حول مشكلة التقليد العلمانى، وحققت خلالها ليس بالقليل، بعد إذلالها للإمبراطورية فى كانوسا. حتى إذا كانت الاتفاقية، تحول الصراع وجهة أبعد، ليدور حول السيادة العالمية. لمن تكون؟ للبابا أم للإمبراطور؟

ولم يكن ملوك ألمانيا، الأباطرة، هم الآخرون، خاصة على زمن أسرة الهوهنشتاوفن Hihenstaufen ، أقل طموحا إلى هذه السيادة من البابوات، ولم يذهب من مخيلتهم أبدا صورة إذلال كانوسا، ولا غاب عن ذهنهم – رغم ما فى هذا الزعم من مغالطة تاريخية – أنهم خلفاء الأباطرة الرومان، وما ارتبط بهذا الادعاء من مفهوم السيادة العالمية، والسيطرة على البحر المتوسط، البحيرة الرومانية قديما جدا .. وغذى هذا المفهوم لديهم أساتذة وفقهاء فى جامعة بولونيا(٧٩). كانت خطة الأباطرة لتحقيق ذلك محاولة إخضاع القسطنطينية لسيادتهم، والسيادة على إيطاليا وصقلية. وهذه الأخيرة بالذات كانت تعنى العداء لملوك النورمان، وازدياد حمى الصراع مع البابوية، باعتبار البابا السيد الإقطاعى لهذه المنطقة، منذ توقيع معاهدة ١٠٥٩، وتجديدها بعد ذلك فى عام ١١٥٦.

كانت النقطة الجوهرية تدور حول ما قر فى أذهان أباطرة أسرة الهوهنشتاوفن بصفة خاصة، من أنهم الورثة الحقيقيون للقياصرة الرومان، وما وعته – أو بتعبير أدق – ما أرادته البابوية ل "مهمة" الإمبراطور، الذى منحه

---

(78) Thompson & Johnson, op. cit., p. 390

(79) Tout, The Empire and the Papacy, p. 247

البابا التاج منذ ميلاد القرن التاسع، والتى لا تزيد عن كونه مجرد قائد، عمله الأساسى أن يستل سيفه من غمده ليدفع به عن البابوية(٨٠) غير أن هذا المفهوم كان يتعارض تماما مع ما يراه وما يؤمن به ملوك الهوهنشتاوفن، خاصة فردريك برباروسا، الذى لم تعد الإمبراطورية بالنسبة له، هى الإمبراطورية المسيحية التى ولدت بيدى خليفة القديس بطرس عام ٨٠٠، تدين بالولاء الكامل للكنيسة البطرسية، بل غدت الإمبراطورية فى مفهومه، بكل ما تعنيه الكلمة، هى الإمبراطورية الرومانية، إمبراطورية أوغسطس. من هنا استخدم حقه فى حكم العالم، واستمد أقدميتها من وجودها قبل المسيح. فكيف يمكن إذن أن تكون متوافقة مع البابوية؟! إنها أقدم منها، مستقلة عنها .. الإمبراطورية ليست داخل الكنيسة، بل هذه داخل تلك، والبابا ليس إلا أحد رعايا الإمبراطور.

وهكذا ما كان شيئا غامضا فى خيال أوتو الثالث (٩٨٣-١٠٠٢) أصبح نظرية محددة المعالم فى فكر فردريك برباروسا(٨١). لقد راح يخاطب يوما نبلاء الرومان بقوله : "فلنقلب أذهاننا جيدا فى أعمال أباطرة هذا الزمان، واضعين فى اعتبارنا بكل العناية، ما أقدم عليه أسلافنا المقدسون، شارل وأوتو، اللذان انتزعا مدينتكم والأراضى الإيطالية من يد اليونان (البيزنطيين)، واللومبارد، وجعلوها ضمن حدود المملكة الفرنجية، ليس هبة من يد أجنبى، بل عنوة وكسبا بانتصاراتهما.. أنا إذن الملك الشرعى(٨٢).

بل لقد ذهب الأمر بفردريك أبعد من ذلك، عندما آمن أنه ليس فقط خليفة شارلمان وأوتو، بل قسطنطين وثيودسيوس وجوستنيان. وعندما أصدر قرار تنظيم جامعة بولونيا، أصر على أن يوضع مرسومه ضمن مجموعة قوانين جوستنيان(٨٣). ووجد ضالته فى القانون الرومانى، باعتباره إمبراطورا رومانيا

---

(٨٠) ناقش W. Ullmann هذه الرسالة باستفاضة وبتحليل رائع فى كتاب :

A short history of the Papacy in the Middle Ages, pp. 185-188

(81) Pirenne, A history of Europe, p. 275

(82) Barraclough, The origins of Modern Germany, pp. 170-171 n. 1.

(83) Davis, Medieval Europe., p.322; Bryce, op. cit. p. 169

ووجـد فـى الديجسـتا Digesta الإجابـة الفلسفية التى ترد على مراسيم السيادة الـبابوية، فهـى تعطى القانون السيادة الكاملة، وليس للكهانة أو الروح، جاء فيها: "القانون هو الملك لكل شئ – لما هو سماوى ولما هو إنسانى .. إنه يجب أن يكون الضـابط، والحاكم، والقائد للخير والشر" وتاه عجبا بمركزه الإمبراطورى، بعد أن أوحـى إليه رئيس أساقفة ميلانو، أن إرادته هى القانون[٨٤]. بكل هذا لم يكن غريبا أن يوصف فردريك بربروسا بأنه هليدبراند الإمبراطورية[٨٥].

ومـن واقـع إيمانه بأنه الإمبراطور الرومانى حقا، دون أن يلقى بالا لأباطرة الـرومان الشرعيين فى القسطنطينية، كتب إلى الإمبراطـور البيـزنطـى مانـويـل (١١٤٣-١١٨٠) علـى أثـر هزيمة الأخير أمام سلطان قونية السلجوقى عام ١١٧٦، رسـالة تقطـر ازدراء وسـخرية، تتضـمن خضوع ملك اليونان Rex Grecorum للإمبراطور الرومانى، وانتهز الفرصة ليعلن له أنه وريث الأباطرة الرومان، وأن ذلك يتضـمن السـيادة على "المملكة اليونانية"[٨٦] Regnum Greciae ولما جاء مشاركا فى الحملة الصليبية الثالثة، ولم يلقه الإمبراطور البيزنطى قبولا حسنا، بعث إلى ابنه هنرى السادس رسالة يأمره فيها بتجهيز حملة ضخمة جديدة، هدفها القسطنطينية.

أمـا بالنسـبة لإيطالـيا، فقـد اقتضـاه الأمر القدوم إليها فى ست حملات عسـكرية[٨٧]، اسـتنفذت جهود ألمانيا وطاقاتها وخزانتها وأضعفت بصفة رئيسية سـلطة الـتاج فيها أمام ازدياد نفوذ أمراء الإقطاع[٨٨] فى الوقت الذى تلاحقت فيه انتصـارات البابوية واحدا فى أثر الآخر؛ ففى عام ١١٥٥ كان عليه أن يأخذ بعنان فـرس الـبابا حـتى يمنحه هذا قبلة السلام ويعلنه إمبراطورا، ورغم امتعاضه فقد جـرت المراسـيم بذلـك باعتباره مسألة تقليدية[٨٩]. وفى عام ١١٥٦ وجهت إليه

---

(84) Davis, op. cit., p.325

(85) Tout., op.cit., p. 247

(٨٦) هسى، العالم البيزنطى، ١٩٦

(٨٧) للوقوف على تفاصيل هذه الحملات، راجع :

Strayer & Munro, The Middle Ages, pp. 219-225

(٨٨) انظر الفصل الثالث.

(89) Ullmann, A short history of the Papacy, p. 189

البابوية صفعة قوية عندما وقعت معاهدة أمالفى Amalfi مع النورمان فى صقلية، منحـــتهم بمقتضاها الحقوق التى رفضت الاعتراف بها لملوك ألمانيا، أعنى مسألة التقلـــيد العلمانى، فى مقابل أن يتسلم ملوك النورمان مملكتهم إقطاعا من البابوية(٩٠) وكـــان هـــذا يعـــنى وأد اتفاقية كونستانس(٩١) Constance التى وقعت بين البابوية والإمـــبراطورية ســـنة ١١٥٣، والـــتى كانـــت موجهـــة أصلا ضد الإمبراطور البـــيزنطى، وتقضـــى بعدم التنازل عن أى أرض فى إيطاليا، وطرده منها إذا ما حاول القدوم إليها(٩٢).

وفـــى العام التالى ١١٥٧ وقف المندوب البابوى فى بيزانسون Besancon يقـــرأ للإمـــبراطور رسالة البابا(٩٣)، والتى ورد ضمنها كلمة Beneficium والتى نقلـــت إلـــى فـــردريك بمـــا يعـــنى أنه تلقى مملكته "إقطاعا" من البابا فلما احتج الحضـــور على ذلك، وكاد المندوب البابوى يفقد حياته، لولا أن تدخل فردريك نفسه فـــى الوقـــت المناســـب، راح ممـــثل الـــبابا هذا يتساءل فى جرأة .. ممن يتسلم الإمـــبراطور إذن إمبراطوريـــته، إذا لـــم يتســـلمها مـــن البابا؟ وجاء رد فردريك بربار وســـا علـــى المندوب البابوى فى رسالة شديدة اللهجة(٩٤)، بعث بها إلى البابا هادريـــان الرابع Adrian IV (١١٤٥-١١٥٩) جاء فيها: "إن الله، الذى منه يستمد كـــل سلطان فى السماء وعلى الأرض، قد عهد إلينا بحكم المملكة، وللإمبراطورية اصـــطفانا، أن سلام الكنيسة تحفظه الجيوش الإمبراطورية. وإنه لمن المؤسف أن نضـــطر إلى أن نشكو لرأس الكنيسة، طالبين أن يبقى على روح الخيرية والمحبة والســـلام؛ ذلـــك أن أعمـــال البابا تهدد باظهار الشرور والشقاق الذى سوف يفسد الكنيسة كلها، ويدمر وحدتها، ويعود إلى الصراع بين الإمبراطورية والبابوية ما لم يـــتدخل الله .. لقـــد تملكنا هذه المملكة والإمبراطورية من الله، عن طريق اختيار

---

(90) ADRIAN IV & WILLIAM of Sicily, Treaty of Amalfi, 1156

(91) FRED. BARB., Treaty of Constance., 1153

(92) C.M.H. Vol. V, p. 396

(93) ADRIAN IV, Letter to Frederick I, 157

(94) FRED. BARB., Manifesto of Frederick I, 1157

الأمـــراء، فالله وحده هو الذى من خلال آلام ابنه، وضع العالم تحت رعاية سيفين، وفـــوق هـــذا فـــإن بطرس الرسول قال: "أكرموا الجميع، أحبوا الإخوة، خافوا الله أكرموا الملك" (رسالة بطرس الأولى ٢/١٧) – ومن ثم فإن من يقول، بأنا قد تلقينا التاج الإمبراطورى إقطاعا من البابا، يتحدى القانون الإلهى، ويدعى على بطرس، ولا يعدو أن يكون كذابا".

وكانـــت رسالة هادريان قد أدت إلى توحيد أمراء ألمانيا خلف ملكهم، وجاء ذلـــك نتيجة طبيعية للسياسة المرنة التى اتبعها فردريك فى بداية عهده، من التقرب إلـــى الأمـــراء، والتودد إلى خصوم الهوهنشتاوفن التقليديين، أعنى عائلة الولفيين. ومـــن ثم لم يعد الأمر كما كان عليه من قبل زمن هنرى الرابع، الذى أثار حفيظة الأمـــراء ضـــده بسياسته العنيفة تجاههم بعد بلوغه سن الرشد مباشرة، خاصة فيما يـــتعلق بمحاولاته لاسترداد أراضى التاج، التى كان الأمراء أنفسهم قد اغتصبوها وهـــو تحت الوصاية. لذلك أدرك هادريان الرابع أن سهمه جاء طائشا، وأن الوقت لـــم يكن ملائما، بالإضافة إلى أن شخصية البابا نفسه، لم تكن لها جوانب شخصية ســـلفه جـــريجورى الســـابع ولا خلفه إسكندر الثالث، الذى لم يكن سوى المندوب رولان Roland إلـــى الإمبراطور فى بيزانسون. لهذا كتب هادريان الرابع رسالة ثانية إلى الإمبراطور، تعد فى حد ذاتها اعتذارا رقيقا عما جاء فى رسالته الأولى، وقـــدم له تفســـيرا حـــول مـــا يعنيه فى رسالته الأولى، قال : "علمنا أنك غضبت لاستخدام كلمة beneficium، غير أننا استخدمنا هذه الكلمة فى معنى يختلف تماما عـــن مفهومهـــا السائد، بل بما تعنيه فى مفهومها الأساسى، إذ تتكون من مقطعين، bonum & factum بمعـــنى، شئ طيب أو جميل أو معروف (bonum factum) ولـــم نســـتخدمها على أنها تعنى feudum (fief) إقطاعا. فإذا ما قلنا beneficium مـــن الله لا تعـــنى إقطاعا، بل نعنى عطفا من الله. ولعلك تعلم يقينا أن وضع التاج على رأسك، يجب أن ينظر إليه باعتباره "عملا طيبا"(٩٥).

---

(95) ADRIAN IV, Letter to Frederick I, 1158

ومـــرت الأزمة بسلام .. أو هكذا بدا. لكن فردريك خرج منها باستنتاج له أهميـــته، إذ أيقـــن أنــــه مـــا دام قد تلقى الإمبراطورية من الله، فلابد أن تكون لها قداســـتها، ومـــن هـــنا خلع عليها لقب "الإمبراطورية الرومانية المقدسة Sacrum imperium في مقابل الكنيسة المقدسة، Sancta ecclesia [٩٦]. ولا شك أن هذا قد لقـــى الامتعاض من جانب البابا الجديد إسكندر الثالث (١١٥٩-١١٨١) الذى تمثل علـــى الفور فى استنتاج عهده بإصدار قرار الحرمان الكنسى ضد الإمبراطور عام ١١٥٩، وأحـــل رعيته من يمين الولاء له، وجدد ذلك ثانية سنة ١١٦٣ من مهربه فـــى فرنسا. ولم يكن غريبا أن تلقى سياسة الهوهنشتاوفن الرفض من جانب ملوك أوروبـــا، وكلمـــا ازداد ضـــغط وعداء الأباطرة للبابا، كلما وجد هذا عند الملوك الآخريـــن عونا له[٩٧]؛ ذلك أن أوروبا القرن الثالث عشر لم تعد هى أوروبا القرن الحـــادى عشر، فالبابوية ازداد سلطانها بسبب زعامتها للعالم المسيحى الغربى فى الحـــروب الصليبية، وملوك إنجلترا الأنجويين، وفرنسا. والأخيرون بالذات لم يكن مـــن الســـهل عليهم أن يقبلوا الأفكار الهوهنشتاوفنية عن الإمبراطورية "الرومانية" ومـــا يستتبعها من فكرة السيادة العالمية. هذا بالإضافة إلى أن الأحداث الداخلية فى ألمانـــيا، وازديـــاد نفوذ أمراء الإقطاع، وتحالفهم مع البابوية فى كثير من الأحيان ضـــد الســـلطة الشرعية فى ألمانيا، كل هذا جعل الصراع بين البابا والإمبراطور يسير فى صالح الأول.

وقـــد راحـــت البابوية تضع العراقيل فى وجه الإمبراطور الألمانى، وتثير ضـــده مـــدن العصبة اللومباردية فى شمال إيطاليا، وتحرك فى داخل ألمانيا ذاتها كوامن البغضاء والتمرد من جانب الأمراء ضد التاج، ووجدت فرصتها سانحة بين عائلـــة الولفيين، الأعداء التقليديين للهوهنشتاوفن، ووصلت حبال تآمرها مع هنرى الأســـد زعـــيم البيت الولفى، الذى رفض الالتزام بواجبات الفصل الإقطاعى تجاه ســـيده، وأبى مشاركة فردريك فى حملته الخامسة إلى إيطاليا عام ١١٧٤، مما أدى

---

(96) Barraclough, The origins of Modern Germany. P. 170

(97) Pirenne, op. cit. P. 273

إلى هزيمة مروعة في عام ١١٧٦ عند ليناتو Legnano على يد العصبة اللومباردية، وراح ذليلا يطلب الصفح والغفران من البابا الذى أملى شروطه وحقق الآن سيادته كاملة[٩٨] .. ففى البندقية، وفى كنيسة القديس مرقس عام ١١٧٧، جاء الإمبراطور إلى البابا منكس الرأس، تائبا، خر راكعا وأناب، وسجلت لوحة السمو البابوى كانوسا جديدة!!

وتمثل انتصار البابوية وسموها فى مجمع اللاتيران الثالث الذى عقد تحت رئاسة إسكندر الثالث عام ١١٧٩، ووضع لأول مرة فى العصور الوسطى، الأغلبية العددية فى الصورة، فقد اعتبر الكرادلة جميعا مهما اختلفت درجاتهم ناخبين، لهم حق الإدلاء بصوتهم إذا ما حدث اختلاف حول اختيار البابا الجديد، واشترط أغلبية الثلثين كضرورة لصحة الاختيار، واستبعد الإمبراطور والاكليروس الرومانى والجموع من عملية الانتخاب[٩٩]. ومن ثم عوض هذا القانون النقص الذى كان يعتور قانون اختيار البابا، الصادر عن مجمع روما عام ١٠٥٩ على عهد البابا نيقولا الثانى، الذى كان يقيم لموافقة الإمبراطور قدرا من الاحترام، وأن لم يكن بصورة عملية[١٠٠].

غير أن الإمبراطور العجوز الذى قبل كارها، عاد إلى ألمانيا ليصفى حسابه مع غريمه هنرى الأسد، فلما تم له ما أراد، دخل فى مفاوضات مع ملك صقلية، أسفرت فى النهاية عن زواج ولى العهد الألمانى هنرى السادس، من وريثه عرش النورمان فى صقلية، الأميرة كونستانس[١٠١]، وكان هذا فى حد ذاته نصرا دبلوماسيا رائعا، حققته الإمبراطورية فى مواجهة الحصار البابوى. وما لبثت البابوية أن لقيت صفعة أخرى، أشد وأنكى، بعد ذلك بعام واحد (١١٨٧)، عندما استرد المسلمون تحت زعامة صلاح الدين الأيوبى، بيت المقدس من يد الصليبيين.

---

(98) Z. Brooke, op. cit. pp. 453-457
(99) ALEX. III., Papal election decree, 1170
(100) NICHOLAS II, Papal election decree, 1059
(101) FRED. BARB., Peace of Constance, 1183

والواقع أن تلك الزيجة عوضت جميع ما لقى فردريك من مذلة على أيدى أهل روما ولمبارديا والبندقية، فضلا عن البابوية، وكيف لا، وقد أصبحت ألمانيا وصقلية بغناها دولة واحدة، وفكى كماشة حول روما والبابوية، مما سيجعل الجالس على عرش ألمانيا، يملى إرادته على البابوات والقومونات الإيطالية.

لكن البواعث التى جعلت من اجتماع هذه النعم صورا زاهية الألوان فى أعين الهوهنشتاوفن كانت هى بعينها البواعث التى حملت البابوية أخيرا على إبادة تلك الأسرة، حتى إذا بدأ الصراع بينهما مرة أخرى، لم يستطع ذلك الصراع إلا أن يكون طويلا ومريرا.

فقد كان هنرى السادس أشد عنفا من أبيه فى تطبيق السياسة الهوهنشتاوفنية، فبعد أن توج إمبراطورا بيد البابا كلستين الثالث Celestine (١١٩١-١١٩٨) فى عيد القيامة، الخامس عشر من إبريل عام ١١٩١، رفض البابا تتويجه ملكا على صقلية، ولم تفلح الجهود التى بذلها هنرى فى ذلك، أو المفاوضات التى دارت فى هذا الشأن، لأن ذلك كان يتعارض معارضة تامة مع السياسة البابوية، ولكن هنرى لم يقف عاجزا أمام عناد البابوية، فتوج ملكا على صقلية - رغم أنف البابا - على يد رئيس أساقفة مسينا Messina فى ليلة عيد الميلاد لعام ١١٩٤، أعنى ٢٥ ديسمبر ١١٩٣. وفى اليوم التالى ولد له ولده من زوجه النورمانية، فردريك الثانى، الذى أصبح فيما بعد أعجوبة الدنيا Stupor Mundi وفى الدايت الذى عقد فى فيرتزبرج Wurzburg سنة ١١٩٦، وافق الأمراء الألمان على اقتراح هنرى السادس بتتويج ابنه فردريك ملكا، وله من العمر عامان. وكان هذا يعنى أن ملك الرومان rex Romanorum من وجهة النظر الألمانية، كان له حق ممارسة سيادته تلقائيا على الأقاليم الإيطالية، حتى قبل أن يتوج إمبراطورا بيد البابا(١٠٢).

غير أن الموت المفاجئ لهنرى السادس عام ١١٩٧، قلب خطط الهوهنشتاوفن كلها رأسا على عقب، وكانت فرصة العمر التى لن تجد البابوية لها مثيلا، لتطبيق نظرية السمو بكل ما تعنيه. أما فى الداخل فكان يعنى إشارة البدء للخصمين اللدودين،

(102) Ullmann, A short history of the Papacy, p. 205

الوفيين والهوهنشتاوفن، ليشعلا من جديد نيران الصراع العنيف بينهما، فتجاهل الفريقان مسألة اختيار فردريك الثانى ملكا، ونادوا بملكين جديدين متنافسين، أوتو الرابع Otto IV دوق برنسويك Brunswick ابن هنرى الأسد، الولفى وفيليب السوابى Philip of Swabia، أخ الملك الراحل، الهوهنشتاوفنى. بينما جاهدت كونستانس للاحتفاظ بصقلية لابنها الطفل. غير أنها لم تلبث أن ماتت فى نوفمبر ١١٩٨، وتركت طفلها تحت وصاية البابا الجديد أنوسنت Innocent III، الذى أصبح بمقتضى هذه الوصية والوصاية، السيد الإقطاعى للمملكة الصقلية فى الجنوب، والذى وجد فى الحرب الأهلية الألمانية سعادته وسمو البابوية، فراح ينفخ فيها من روحه، ليزيدها ضراما، وأهمل شأن الطفل الذى ترك لينمو دون رعاية، شأن أى غلام يتخبط فى شوارع بالرمو وأسواقها العامة.

وإذا كان هناك سبب رئيسى يعزى إليه استمرار الحرب الأهلية هذه، قرابة ثمانية عشر عاما (١١٩٨-١٢١٤)، فهو أنوسنت الثالث، الذى أصبح قاب قوسين أو أدنى من تحقيق ما بدأ فيه فى القرن الحادى عشر جريجورى السابع، أعنى ترجمة الأيديولوجية البابوية عن السمو، إلى حقيقة واقعة. فخلال عهده أوضحت البابوية بؤرة السياسة الدولية فى أوروبا، وخارجها، لقد عهد الآن بإدارة حكومة المجتمع المسيحى لواحد من أكفأ خلفاء القديس بطرس وأكثرهم اقتدارا، والذى استخدم سلطانه الموروث باعتباره "نائب المسيح" على الأرض(١٠٣).

وهذا المصطلح الأخير يعد نقطة الارتكاز الرئيسية فى الأيديولوجية البابوية خلال هذه المرحلة. ففى القرون الأولى كان المصطلح الشائع عن البابا – كما علمنا – والذى خلعه البابوات على أنفسهم، هو "نائب بطرس" Vicarius Petri، لكن هذا المصطلح بدأ يختفى تدريجيا مع ازدياد السلطة البابوية، ليحل محله لقب آخر، يواجه "قداسة" الإمبراطورية الرومانية، التى خلعها فردريك بربروسا على إمبراطوريته، ويعبر عن سمو السلطة البابوية وفعالية تأثيرها، وذلك ابتداء من منتصف القرن الثانى عشر فأصبح البابا "نائب المسيح" Vicarius Christi.

(103) Kantorowicz., Frederick the Socend,.pp. 39-40.

وكـــان انوســـنت الثالث خير من يعبر عن هذه المرحلة الجديدة من مراحل السـمو، فقـد كتب يقول: "نحن خلفاء أمير الرسل إلينا ولسنا نوابا عنه، بل ولسنا نوابـا لأحـد من بنى البشر .. حتى الرسل .. ولكننا نواب يسوع المسيح نفسه"(١٠٤) وخاطـب مندوبى فيليب السوابى الذين جاءوه عام ١١٩٩ أو ١٢٠٠ بقوله، تعبيرا عن فكره "أن ملكى صادق Melchisedech باعتباره ملكا لأورشليم، وكاهنا أعلى، إنمـا كـان يمثل الكهانة فى علاقتها بالعالم، وتفوق السلطة الروحية على الزمنية Praeminentiam quam Sacerdotium habet ad rgenum لأن الاثنتيـن كانـتا متحدتين فى شخص الملك الكاهن. وكان ملكى صادق هو الشخصية التى استخدمها فى أولى رسائله إلى الأمراء الألمان الاكليروس والعلمانيين حوالى الثالث من مايو عـام ١١٩٨، ليوضـح سمو المسيح باعتباره ملك الملوك وسيد السادات(١٠٥). لقد كان الكاهن الملكى الأعلى للكنيســة المسيحيــة، والإمبراطوريــة الحــق Verus Imperator للإمـبراطورية المسيحية، والقاضى الأول فى عالم المسيحية، الثلاثة فى واحد، والواحد هنا هو البابا(١٠٦).

وفى رسالة بعث بها إلى رئيس أساقفة رافنا فى عام ١١٩٨، قال : "الحرية الكنسـية لا يمكــن أن ترعى إلا إذا تملكت الكنيسة الرومانية السيادة الكاملة على الشـئون الزمنـية والروحية على السواء"(١٠٧). وكتب إلى ملك أرمينيا سنة ١١٩٩ يقــول: "..يجب أن تكون بمجامع قلبك وفيا للكرسى الرسولى، وأن تلجأ إلى عون الكنيسة الرومانية، ليس فقط فى الأمور الروحية، بل فى المسائل الدنيوية"(١٠٨).

ويــدون أنوسنت الثالث فكره عن السمو البابوى فى عبارات صريحة، بعث بهـا إلـى حاكم تسكانيا ونبلائها، فى أول سنى اعتلائه عرش البابوية، جاء فيها: "حيــث أن مبدع الكون قد حباه فى القبة الزرقاء بمصدرين أحدهما للضياء والآخر

---

(104) Souyhrtn, op. cit. pp. 104-105

(١٠٥) انظر Kantorowicz, op. cit,. p. 40

(106) Ibid., pp. 40-41

(107) INNOCENT III, Letter to the Archbishop of Ravenna.

(108) INNOCENT III, Letter to the King of Armenia, 1199.

للـــنور، الأول للـــنهار والـــثانى فى الليل – فإنه فى سماء الكنيسة الجامعة، وضع مرتبتين .. العظمى لرعاية الأرواح كالشمس للنهار، والدنيا لرعاية الأجساد كالقمر فى الليل .. هاتان هما السيادة الكنسية والسلطة الملكية.

والآن فكما أن القمر يستمد نوره من الشمس، وهو دونها فى الحكم والكيفية، فـــى المكانـــة والســـيادة، الســـلطة الملكـــية بالمـــثل تستمد بها مجدها من السيادة الأســـقفية"(١٠٩). وحـــتى يدعـــم أيديولوجيته بأسانيد لا تجد تحديا لدى مؤيدى الحق الأمـــبراطورى فـــى السيادة، لجأ إلى الكتاب المقدس، وراح فى إحدى عظاته عن التكريس يقول: لقد قيل لى فى شخص النبى: "قد وكلتك على الشعوب وعلى الملك لـــتقلع وتهـــدم وتهلـــك وتنقض وتبنى وتغرس" (ارميا ١/١٠) وقيل لى أيضا فى شـــخص الرسول. "وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات"، وهكذا عهد للبعض بشئ من الأمـــر، بينما خول بطرس السلطة كاملة.. أنا بحق إذن نائب يسوع المسيح، خليفة بطـــرس، المصطفى من قبل الرب، والقائم بين الله والناس. أدنى من الله .. وأعلى من بنى البشر، يدين ولا يدان!!" (١١٠).

ولـــم تكن فكرة "ملك الرومان" أو مجرد المصطلح نفسه، أو حتى ال"مهمة" الـــتى أرادتها له البابوية، واردة على الإطلاق فى البناء الأساسى للبرنامج البابوى عـــند انوسنت، ولم يستخدم هذا المصطلح. لقد كان هناك فقد بالنسبة له ملك ألمانيا أو فرنســـا أو إنجلـــترا، وليس "ملك الرومان" الذى أصبح من حقه ممارسة سلطة شرعية على الأقاليم الإيطالية، وفوق هذا الادعاء ب"حق" فى أن يصبح إمبراطورا رومانـــيا ومـــن ثـــم ارتبطت هذه السياسة الخاصة بتحقيق السمو البابوى، بصورة قاطعة بالرفض الأنوسنتى لفكرة "ملك الرومان"(١١١). وكان هذا بالطبع يتعارض مع إصـــرار الهوهنشـــتاوفن علـــى أن اختـــيار ملـــك ألمانى، يعطى الحق فى التاج الإمـــبراطورى باعتباره "ملك الرومان"؛ ولذا كان من الطبيعى أن يرفض أنوسنت الثالـــث ذلـــك، وأن يعلن صراحة أن تمام التصديق على المنصب الإمبراطورى،

---

(109) INNOCENT III, Letter to the Prefect Acerbus and the nobles of Tuscany, 1198.

(110) INNOCENT III, Sermon on the Consercration

(111) Ullmann., A short history of the Papacy, p. 209

مسألة رسولية بحتة. وأن التاريخ يدعم رأيه هذا (١١٢).

لقـد كان دائما يصر على أن يصبح "صانع الأباطرة" فالبابا باعتباره "نائب المسـيح"، له وحده الحق فى خلق "المدافع" عن العالم المسيحى، الذى لا يعدو كونه مجـرد "مسـاعد" للبابوية فى تحقيق أغراضها وأهدافها (١١٣). وهكذا أضحت كلمة beneficium الـتى أثـارت ثائـرة فردريك بربروسا فى بيزانسون عام ١١٥٧، واعـتذر عنها هادريان الرابع، حقيقة واقعة على يد أنوسنت الثالث، إذ الأمير عنده يتسلم مملكته ك"إقطاع" beneficium (١١٤).

وقـد وجدت البابوية لها مؤيدين كثيرين من رجال الفكر، وإن كان معظمهم ينـتمى إلـى الرهبان المتحمسين لحركة الإصلاح، أو الاكليروسيين المدافعين عن السـيادة الـبابوية، فهذا سوجر Suger (+١١٥٠) رئيس رهبان دير سانت دونى St.Denis، والوزير الفرنسى الأشهر لملكى فرنسا لويس السادس (١١٠٨-١١٣٧) ولويـس السابع (١١٣٧-١١٨٠)، يعلن عن تأييده للسياسة البابوية وسمو سلطانها، برغبته فى أن يضع ملوك فرنسا وإنجلترا أنفسهم عند قدمى الحبر الأعظم، ويحث الإمـبراطور على التفانى فى الخدمة كسائس Strator من أجل أمير الأمراء، يعنى الـبابا ويشاركه الرأى جون السالزبورى John of Salisbury (+١١٨٠) الأسقف الإنجلـيزى المتضـلع مـن الـثقافة الكلاسـيكيـة فـى أصـولها اللاتينيـة، وشـريـك ورفيـق تـوماس بيكيت Thomas Becket (+١١٧١) رئيس أساقفة كانـتربورى Canterbury، فـى تحديه ومنفاه، حين يعتبر الأمراء مجرد وزراء للكنيسـة، وأن كل قانون لا يحمل طابع القانون السماوى، يصبح خواء لا غنى فيه ولا نفـع، وكـل نظـام علمـانى لا يـتفق والـنظام الكنسى يجب اعتباره شرا مستطيرا (١١٥). كما أن توماس بيكيت نفسه يعتبر الملوك أقصالا للكنيسة (١١٦).

---

(١١٢) يشير بذلك إلى تتويج شارلمان على يد البابا ليو الثالث، وتتويج أوتو الأول على يد يوحنا الثانى عشر.

(113) Ullmann, The growth of Papal Gevervment, pp. 28-31 وأيضا Ch. Brooke, the structure of Medieval Society, p.60.

(114) Kantorowicz, op. cit., p. 44.

(115) Mundy, op. cit., p. 320.

(116) Barlow, The feudal Kingdom of England, pp. 290-303.

وهـذا هو بونكامبانو Buncompagno من Signa، الذى كان يعلم أن البابا يحب أن يخاطب ب"أمير الأمراء"، اقترح على رجال القانون أن يجعلوا الالتماسات المقدمة في المجامع الكنسية تأتى ديباجتها على هذا النحو: "إنى لأقف بين يدى أب الآباء الذى نال السلطان الكامل على الأرض، خلفا لسمعان بطرس"، أو "إنى لأقف بيـن يديـه .. ذلـك الذى دانت له أعناق الملوك والأباطرة، الذى يؤتى الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء". بل إن أعداء البابوات أنفسهم، قبلوا عظمتهم، فها هو إسكندر الروى Alexander of Roes أحد رجال القانون الشهيرين، والمعروف بولائـه للإمـبراطورية، يعـترف أنه فى مجمع ليون Lyons الثانى المنعقد سنة ١٢٧٤، "لـم تكـن الجمـوع المسيحية والاكليروس وحدهم عند موطئ قدم الحبر الـرومانى، بـل ملـوك الدنيا بأسرها، واليهود واليونان والتتار .. سواء يعترفون جمـيعا أن ملك العالم يتعلق بقوائم عرش الأسقف الرومانى"(١١٧). ويرى بطليموس اللوقـى Ptolemy of Lucca تلميذ توماس الأكوينى Tnomas Aquinas فيلسوف المسـيحية الشهير فى القرن الثالث عشر، أن الإمبراطور خادم الكنيسة، وأنه تسلم الإمـبراطورية مـن الكنيسـة بمقتضى يمين يشبه يمين الولاء، من أحد أفصال الكنيسـة وهو يحصل على إقطاع. وهذا هو السبب الذى يجعل الكنيسة قادرة على عزل الإمبراطور(١١٨).

لقـد كانت البابوية تصر دائما على أنها الوحيدة القادرة على معرفة "قانون الحـياة المسيحية"، على اعتبار أن البابا يمتلك قوة "الإبداع" auctoritas التى تمنحه سـلطة الربط والحل والتوجيه. والبابا فى ممارسته لسلطانه هذا باعتباره حاكما، لا يقـف داخل الكنيسة، بل خارجها وفوقها .. وفى هذا الإطار فليس من حق أحد أن يقاضيه(١١٩).

---

(117) Mundy, op. cit., p.323

(118) Ibid., p. 324

(119) Ullmann, Law and politics in the Middle Ages. pp.121-123, 141.

ولـــم تعدم الإمبرطورية من يتصدى للرد على الادعاءات البابوية، فقد كتب هوجوشيو Huguccio البيزى يقول،: لا أعتقد أن الإمبراطور قد تلقى سيفه الزمنى وبالـتالى السـلطة الإمـبراطورية من البابا وحده، ولكن بالمثل أيضا من اختيار الأمـــراء والرعـــية(١٢٠). وعلى نهجه نهج جون الباريزى John of Paris ليقوض الأســس التى بنى عليها البابا ادعاءه، فيما يتعلق بمسألة "تتويج" الإمبراطور، فذكر أن هذا العمل قد تم أيضا بمساعدة الشعب الرومانى، ذلك لأن الأباطرة تولوا حماية الكنيســـة ضـــد الوثنيين والمارقين، وهذا العمل فى حد ذاته كفيل بأن يفضى الدور الرئيســـى علـــى الـــناس، فهم الذين يصنعون الملوك، ويكونون الجيوش، ويقيمون الإمـــبراطور(١٢١) أما كينو من بستويا Cino of Pistoia فيتعجب فى دهشة .. ليس ممـــا ينافى العقل أن تكون الإمبراطورية قد وجدت من الله والناس.. لكن الذى لا شـــك فيه، أن الإمبراطور قد اختير من قبل الناس، والإمبراطورية دعيت "مقدسة من الله"(١٢٢).

وقـــد تبدو المسألة على هذا النحو متكافئة، لكن الأحداث الداخلية فى ألمانيا، وقـــد أعقبـــت وفاة هنرى السادس عام ١١٩٧ – كما بينا – هى التى أدت إلى أن تضـــرب الـــبابوية ضـــربتها والحديدة محماة فى هذه القصبة المرضوضة، أعنى ألمانـــيا. وبـــنفس الأسلوب الذى اتبعه البابا جريجورى السابع فى سبعينات القرن الحـــادى عشر، عندما ظل يراوغ ثلاث سنوات تباعا (١٠٧٧-١٠٨٠) فى إصدار قراره بأحقية أى من الملكين المتنافسين، هنرى الرابع، الملك الشرعى، والذى عفا عـــنه الـــبابا منذ أيام قلائل، ورودلف السوابى Rudolph of Swabia الذى اختاره الأمـــراء ملكـــا منافســـا، اكتوت خلالها ألمانيا بنيران الحرب الأهلية، سار أيضا أنوســـنت الثالـــث، وراح يماطل خمس سنوات (١١٩٧-١٢٠١) فى إصدار قراره بشرعية اختيار أى الملكين، فيليب السوابى الهوهنشتاوفنى، أو أوتو الرابع الولفى. وأخذ ينفخ فى آتون الصراع لتعلو ناره. ودفعت ألمانيا الثمن فادحا فى حرب أهلية

(120) Mundy, op. cit., p. 332
(121) Ibid, p. 332
(122) Ibid, p.331

طاحـــنة، بيـــنما كانـــت خسارة السلطة الإمبراطورية أكثر فداحة؛ تمثلت فى تلك التـــنازلات المهيـــنة التى قدمها المرشح الولفى، أوتو الرابع؛ لأنه لم يكن صاحب الحـــق الشرعى فى العرش. فاعترف باستقلال الدولة البابوية فى إيطاليا، وتحرير الكنيسة الألمانية من السيادة الملكية(١٢٣). وهكذا خسرت الإمبراطورية كل ما جاهد أباطرتها فى سبيله قرابة قرنين ونصف من الزمان .. وكانت سعادة البابوية غامرة لانفصـــال صـــقلية عـــن ألمانيا، وفوق هذا وذاك، تربع البابا على عرش السيادة الروحـــية والزمنية، باعتباره الحكم الفصل والقاضى الأول. وخلال السنوات التالية عمـــل أنوســـنت بكـــل الوســـائل المشروعة وغير المشروعة، على تحويل أنظار الاكليروس الألمانى تجاه روما ما لم يحدث من قبل أبدا.

ومـــا أن تحقـــق لانوسنت ما أراد، أصدر على الفور فى عام ١٢٠١ وثيقة علـــى جانب كبير من الأهمية، تلخص فى وضوح كامل فكرة السمو البابوى بأجلى معانيها، وتجسد بما لا يدع مجالا للشك، التطبيق العملى لهذه الأيديولوجية البابوية.

جاءت ديباجة الوثيقة على هذا النحو:

"إن عمـــل البابا الرئيسى، العناية بما يهم الإمبراطورية الرومانية، حيث أن الإمبراطورية تعود بأصولها إلى البابوية، ومنها تستمد سلطانها؛ أما أصولها فلأنها نقلـــت أصـــلا مـــن اليونان (البيزنطيين) بواسطة البابوية ولمصلحتها (يعنى تتويج شـــارلمان) .. ولقـــد أقـــدم الـــبابوات على هذا العمل لضمان أقوى للكنيسة. وأما ســـلطانها، فلأن الإمبراطور اعتلى العرش بيد البابا الذى باركه وتوجه وعهد إليه بالإمبراطورية"(١٢٤).

ولعلـــنا نلحظ أن أول عبارة استهل بها البابا قرار المفاضلة بين المرشحين الـــثلاثة، "أن عمـــل البابا الرئيسى، العناية بما يهم الإمبراطورية الرومانية" وكلمة "الرئيســـى" بصـــفة خاصـــة تحدد مهمة البابا فى القرن الثالث عشر .. إذ غدا سيد

(123) Thompson & Johnson, op. cit. p.413

(124) INNOCENT III, Decision of Innocent III in nregard to the disputed election, 1201

العالم الزمني الإمبراطور الأوحد والكاهن الملكي الأعلى، والقاضي الأول والديباجة مليئة بالمغالطات وتزييف الحقائق فالبابوية تعتبر شارلمان ابتداء الإمبراطورية الرومانية التي صنعتها بيديها على الرغم من أن الملك الفرنجي توج إمبراطورا في إمبراطورية رومانية قائمة ووضع في الترتيب "البابوي" خليفة لقسطنطين السادس بعد اعتبار العرش شاغرا لوجود ايرين عليه وهو ما لم يسبق به التقليد الروماني هذا مع العلم أن للكنيسة شأن أصيلا في أحضان الإمبراطورية الرومانية، وعلى غرار تنظيمها الإداري وضعت الكنيسة نظمها ورغم كل ذلك لم يتردد المتحمسون للسمو البابوي في أن يتخذوا من هذه الوثيقة مصدر إلهام لكتاباتهم ونشر آراء البابوية عن السيادة العالمية، ومكانة البابا المتميزة روحيا وزمنيا فقد كتب ألبرت Albert Behiam رئيس شمامسة Passau في عام ١٢٤٠ يقول : "أليس بمقدور البابوات أن ينقلوا الإمبراطورية ثانية إلى الفرنسيين أو النورمان، إذا كان الألمان عاجزين عن أن يجدوا بينهم من يحمي الكنيسة بصورة فعالة؟"(١٢٥).

وعلى الرغم من أن انوسنت الثالث اعترف في قراره هذا، بأحقية كل من فردريك الثاني أولا، ثم فيليب السوابي ثانيا في العرش، واعترف بعدم أحقية أوتو الرابع الولفي، وكراهية الأمراء الألمان له، إلا أنه أعلنه ملكا ووقف إلى جواره، متجديا شعور الألمان وحق الناخبين، ومفضلا الشرعية والصلاحية، والتي وضعها في بداية وثيقته هذه معيارا للاختيار، ليؤكد سلطان البابوية على الدنيا وبهذا الاختيار وقف البابا ضد الهوهنشتاوفن، لعدة أسباب ..

أولها: أنه ليس هناك بابا – يحمل المودة لهذه العائلة، وثانيها أن الإمبراطور الهوهنشتاوفن يمثل الخطر الداهم للبابوية، بينما الولفيون لا ضير منهم، خاصة وأنهم ليس لهم أتباع كثيرون في ألمانيا، ومن ثم يمكن أن يصبحوا أداة طيعة في يد البابوية التي أعطتهم عرشا لا يستحقونه، فيصبح إمبراطور الولفي بذلك صنيعة البابا ويضحى البابا "صانع الأباطرة".

---

(١٢٥) Mundy, op. cit. p. 322 وقد ناقشنا هذه الوثيقة البابوية تفصيلا الفصل الرابع.

ومـــع التأييد الكبير من البابوية لأوتو، إلا أن قضيته أمست خاسرة، وبعين المصـــلحة أبصـــر انوســـنت ذلك، فراح يغرى فيليب السوابى على تقديم تنازلات جديـــدة تفوق ما أقدمه خصمه ومنافسه أوتو الرابع من قبل، فأقدم فيليب على ذلك فـــى وثـــيقة رســـمية عام ١٢٠٣ تعهد فيها بحمل الصليب إلى الأراضى المقدسة، وإعادة كل الأراضى التى ضمها أسلافه أو هو ثانية إلى الكنيسة، وعدم التدخل فى اختـــيار رجـــال الاكلـــيروس، بما يعنى القضاء على مشكلة التقليد العلمانى تماما، والإذعـــان للبابا فى المسائل الروحية، على أن أغرب ما فى هذه التعهدات، السعى لإســـقاط القســـطنطينية واخضاع كنيستها للكنيسة الرومانية(١٢٦). ولعل هذه النقطة الأخيرة بالذات تضع أمام أعيننا أبعاد السمو البابوى نظرية وتطبيقا، وهو ما تحقق لانوسنت في العام التالى مباشرة وإن لم تكن على يد فيليب السوابى.

هكـــذا تحققـــت الـــبابوية أو كـــادت طموحاتها وحسمت القضية لصالحها، وخســـرت الإمبراطورية كل شئ ورغم أن الصراع استمر عنيفا طيلة نصف قرن آت، إلا أن نظـــرية السمو البابوى أصبحت واقعا عمليا لا مراء فيه؛ ذلك أن فيليب الســـوابى لم يلبث أن اغتيل عام ١٢٠٨ ولم يجد البابا غضاضة فى أن يدعم موقف أوتو الرابع ثانية!! فالمسألة أمست لعبة سياسية تحركها البابوية بأطراف أصابعها، وتتـــيه بعروضـــيها إعجابـــا بمجامع قلبها!! فطوال ست سنوات آتية، أدرك الملك الولفيـــى -بعـــد فوات الأوان- أن كوارث الحرب الأهلية الطاحنة هذه والتى حاقت بألمانيا تعود فى حدتها إلى التدخل البابوى السافر، فانقلب على الفور هوهنشتاوفنيا فـــى سياســـته ولم يكن من الصعب على البابوية أن تتنكر له من جديد، وأن يبدو لعينـــيها واضـــحا الآن، فردريك الثانى ذلك الطفل الذى ظل ستة عشر عاما نسيا منسيا، والذى غدا الآن فى باكورة شبابه فناداه إنوسنت من روما وأعلنه ملكا على ألمانيا عام ١٢١٢، وأيده بجيوشه فيليب أوغسطس Philip Augustus ملك فرنسا (١١٨٠-١٢٢٣) لينتصـــر علـــى الـــتحالف الولفـــى الإنجليزى فى موقعه بوفان Bouvines ســـنة ١٢١٤ والتى تعد من أشهر المعارك فى التاريخ، إذ غدت فرنسا فى أعقابها أقوى دولة فى أوروبا ولتبيت البابوية صاحبة السيادة على الجميع.

---

(126) PHILIP of SWBIA, concessions of Philip of Swabia to Innocent III, 1203

هكــذا .. فى عام ١٢١٤ اعتلى فردريك الثانى عرش ألمانيا ملكا فردا، بعد أن قــدم للبابا، إنوسنت الثالث، الذى تذكر بعد طول غياب، أنه الوصى على الأمير فردريك، تنازلات جمعت فى جوهرها كل ما قدمه أوتو الرابع وفيليب السوابى من قبل، بالإضافة إلى تنازله رسميا عن حكم صقلية، أو بتعبير آخر التعهد بعدم الجمع بين ألمانيا وصقلية تحت سيادة ملك واحد(١٢٧).

علـــى هذا النحو تسنمت البابوية فى عهد إنوسنت الثالث، عرش السمو، ولم يكــن ما فعله بونيفاس الثامن Boniface VIII من بعد فى القرن الرابع عشر، إلا تدعــيما لما أرسى القواعد منه سلفه إنوسنت هذا وكيف لا، وقد تربع إنوسنت على عــرش الســيادة المطلقـــة، فالقسطنطينية أمست عند قدميه، بعد أن فض حصانتها للمرة الأولى منذ بناها قسطنطين جنود الصليب فى الحملة الرابعة، وصليبية أخرى تحقق فوزا ضخما على الموحدين فى الأندلس عام ١٢١٢، والملك الألمانى الجديد يبدى الطاعة، وإن كان ممتعضا وقرارات الحرمان من تحت كرسى "نائب المسيح" تـــترى فــوق رأسى ملكى فرنسا وإنجلترا، إذ هو يجبر فيليب أوغسطس على أن يرتضـــى زوجـــة معينة، ويكره جون الإنجليزى على تعيين أسقف بعينه وها هو يرغم ألفونسو Alfonso صاحب ليون على أن يفسخ زواجه من ابنة عمه، ويلعب دورا بارزا فى حسم مسألة الصراع على العرش الهنغارى، ويصبح ملوك إنجلترا وأرغونـــة والبرتغال تحت السيادة البابوية، بينما أمست صقلية إقطاعا بابويا ويبدى نصـــائحه لحكـــام بوهيميا وبولندا والدانمرك؛ ويتدخل فى كل المشكلات السياسية الكـــبرى فـــى أوروبا، ويغرق الكنيسة فى الشئون السياسية لأوروبا إلى الحد الذى يصبح ذلك "عمله الرئيسى" وهو المسئول عن اختيار الأباطرة وإقرار سيادة الدولة البابوية!!

ولكى يغدو التطبيق أكثر عملية، بقيت هناك صفحة أخيرة، كان على البابوية أن تطويها، لتودع الإمبراطورية كارهة إلى مثواها الأخير؛ ذلك أن فردريك الثانى

---

(127) FREDERICK II, Promise to Innocent III, 1213 وأيضـــا Promise to resigh Sicily, 1216

الذى توج إمبراطورا عام ١٢٢٠ لم يكن أقل حرصا من أسلافه الهوهنشتاوفن على فكـرة السـيادة الإمبراطورية وإن كان قد قبل مرغما شروط البابوية وصولا إلى عـرش آبائه، فراح يسعى لبناء دولة قوية(١٢٨)، وينقض كل ما عده انتقاصا لمكانة الإمـبراطـور وسـلطـان الـتـاج تجـاه البابويـة، فأصدر البابا جريجورى التاسـع Gregory IX (١٢٢٧-١٢٤١) فى أول عهده بالبابوية قرار الحرمان ضد فـردريك الـثانى فـى التاسـع والعشرين من سبتمبر ١٢٢٧، بحجة مماطلته فى الخـروج بحملـة صليبية، كان قد تعهد بها من قبل عند تتويجه إمبراطورا وأحل رعيـته مـن يمين الولاء له. ورغم أن الملك فى العام التالى بالحملة إلى الشرق، وحقـق خلالها بالاتفاق مع سلطان مصر، الملك الكامل الأيوبى، ما فشل فيه قواد الحملـة الثالـثة، جـده فردريك الأول، و فيليب أوغسطس ملك فرنسا، وريتشارد الأول ملك إنجلترا، إلا أن البابوية لم ترض عنه، واتهمته بالإلحاد وانتهزت فرصة غيابه فى الأراضى المقدسة، لتشيع بين الناس نبأ وفاته، ولتدفع بجيوشها للاستيلاء علـى أملاكـه فـى إيطاليا فلما عاد فردريك من الشرق، طرد على الفور القوات الـبابوية، ثـم دارت المفاوضـات بين الطرفين، لتنتهى بمعاهدة سان جرمانو عام ١٢٣٠، على أساس إلغاء قرار الحرمان، فى مقابل وضع بعض القيود على سيادته على كنيسة صقلية(١٢٩).

غـير أن هـذه المعـاهدة لم يكتب لها البقاء طويلا وكل ما يمكن قوله بشـأنها، أنها كانت فرصة للطرفين لالتقاط الأنفاس، ولأن جوهر القضية أعنى السيادة العالمية، هو الذى كان يعنى البابوية فى المقام الأول، والذى لم تبغ عنه حولا. ولذا فقد سعرت نيران الحرب بينهما ثانية، وأمر البابا جريجورى التاسع بعـض رجـال اكليروسه، بتدبيج مجموعة من الاتهامات ضد فردريك ففعلوا. وتـناولها فـردريك بالـرد والتفنـيد(١٣٠). ولـم يقتنع البابا بذلك .. ولم يقتنع

(١٢٨) للمزيد من التفصيلات عن جهود فردريك الثانى فى هذا السبيل، راجع:
Kantorowicz, Frederick the second., pp.77-163; 215-368

(129) TREATY OF SAN GERMANO 1230.

(130) GREG IX & FRED. II, Papal Charges and Imperial defence, 1238.

الإمبراطور أيضا بقبول فكرة البابوية عن الإمبراطور، باعتباره مجرد "مساعد" لهـا فغزا على الفور شمالى إيطاليا، وأوقع بالمدن اللومباردية والفيالق البابوية المرتـزقة، هـزيمة عـند كورتنوفو Cortenuovo عام ١٢٣٧، وأن لم تكن سـاحقة(١٣١) إلا أنه تاه عجبا بانتصاره، وباعتباره إمبراطورا رومانيا منتصرا، فقـد أرسـل بالأسـرى مـن أعدائه وأعلامهم وأبواقهم، كأسلاب للحرب، إلى الـرومان وأعلـن فـى الوقت نفسه عن مشروعات تعد بعيدة المنال، ظن أنه يستطيع بها استثارة ولاء الرومان له وداعبته الآمال حول إعادة مجد الرومان الأقدميـن، وبعـث الحـياة من جديد فى رومولوس Romulus مؤسس روما واعـتزم تقسـيم إيطاليا إلى أقاليم جديدة يديرها حكام رومان، حتى يعيدوا لها بهاءها المندثر(١٣٢). ولما كان هذا يعد شيئا مخيفا للبابوية ومفزعا، فقد أصدرت من جديد عام ١٢٣٩ قرار الحرمان ضد الإمبراطور(١٣٣)، خاصة وأن فردريك قـد عمد إلى إغاظة البابا، فزوج ابنه انزيو Enzio من وريثة عرش سردينيا، وأعلـنه ملكـا علـيها مقتفيا فى ذلك أثر جده فردريك الأول، عندما زوج ابنه هنرى السادس من وريثة عرش النورمان فى صقلية ومن ثم لم يقف الأمر عند حـد الحـرمان الكنسى، بل تخطاه إلى قيام جريجورى التاسع الذى كان يؤمن إيمانا كاملا بأن البابا يجب أن يكون حاكما أوتوقراطيا(١٣٤)، بالدعوة لعقد مجمع كنسـى فى روما عام ١٢٤١ لعزل فردريك غير أن بيزا، حليفة الإمبراطور، دفعت بأسطولها بتصيد الأساقفة الوافدين إلى روما، مما أدى إلى غرق بعضهم وأسـر بعض ثان، وحال دون انعقاد المجمع، بينما نجح الإمبراطور فى فرض سلطانه على إيطاليا، فزهقت روح جريجورى التاسع كمدا، فى الثانى والعشرين من أغسطس عام ١٢٤١.

---

(131) Kantorowicz, op. cit., 435-438.

(132) Thompson & Johnson, Op. Cit., p. 423

(133) GREG. IX Excommunication of Frederick II, 1239

(134) Ch. Brooke, The Structure of Medieval Society, p.6

إلا أن هـذه الخطـوة من جانب فردريك الثانى، كانت خطأ فادحا، إذ نقلت العـداء الشخصى ما بينه والبابوية، إلى عداء الإمبراطور مع الكنيسة بصفة عامة، بالإضـافة إلى أنه فقد عطف ملوك أوروبا، الذين رأوا فى الاعتداء على أساقفتهم، عدوانـا موجهـا لأشخاصـهم، وجعـل من السهل على البابوية تعبئة الرأى العام الأوروبـى ضد الإمبراطور[١٣٥]، خاصة وأن البابا الجديد إنوسنت الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤)[١٣٦] كان مصمما على أن يكون كسميه الثالث، وعلى تطبيق نظرية السمو البابوى بكـل معايـيرها، باعتـبار الإمبراطور "مدافعا" عن البابا فحسب، تسلم الإمبراطورية من يده، وهى نفس آراء سلفه الأسبق إنوسنت الثالث[١٣٧].

ومـن الطـريف أن إنوسنت الرابع كان صديقا للإمبراطور فردريك الثانى، قـبل أن يحـتل كرسـى القديس بطرس ولهذا أصيب الإمبراطور بخيبة أمل بالغة بسلوك صديقه القديم، الذى كان يحمل بين ضلوعه قلبا من ثلج! ويتصرف بتجاهل تام لكل الآداب ومظاهر اللياقة الروحية التى تتفق ومنصبه[١٣٨] .

وقـد سخر كل موارد الكنيسة، وكل مهارة أوتيها ليحطم الإمبراطورية ففر إلى فرنسا، وعقد مجمعا فى ليون عام ١٢٤٥، قرر حرمان وعزل فردريك الثانى، ودعـوة الناخبيـن الألمـان لاختـيار ملك جديد[١٣٩]. فتحقق بذلك أمل البابا الراحل جـريجورى التاسـع واسـتخدم فى قرار العزل سلطة نائب المسيح وليس نائب بطرس كما كان جريجورى السابع وأطلق إنوسنت الرابع مندوبيه وجموع الرهبان الفرنسيسـكان والدومنيكان، للعمل ضد الإمبراطور، وأعلنها صراحة حربا صليبية ضد أسرة الهوهنشتاوفن على حد تعبير أحد المؤرخين الألمان[١٤٠].

---

(135) Strayer & Munro, op. cit., p. 333.

(١٣٦) بعـد وفاة جريجورى التاسع، تم اختيار البابا كلستين الرابع Celestine IV فى ٢٥ إكتوبر ١٢٤١ لكـنه لـم يلبـث أن مات بعد سبعة عشر يوما وظل كرسى البابوية شاغرا طيلة عامين، حتى اعتلاه إنوسنت الرابع.

(137) Tierney, The Crisis of Church and State, pp. 153-156

(138) Thompson & Johnson, op. cit. p.427

(139) INNOCENT IV., The Second deposition of Frederick II.

(140) Heer, The Medieval World, p.141.

هكذا قاد البابا بنفسه الحرب ضد الإمبراطور والتى أصبحت دون شك حربا أيديولوجـية فـى المقام الأول[١٤١] وراح يمارس استراتيجية البابوية القديمة بتعيين ملـك آخر، رغم أن فردريك لم يلجأ مطلقا لاختيار بابا منافس، فقام إنوسنت بدفع خمسـة وعشرين ألف مارك من الفضة إلى أحد النبلاء الألمان، وهو هنرى أمير ثورنجـيا، ليقبل تلقى التاج الألمانى من يد شرذمة من الأمراء وانتشر مندوبو البابا فى كل مكان ليشتروا أصوات النصر لهنرى هذا ضد كونراد ابن فردريك، ودفعوا فـى سبيل ذلك ستة آلاف مارك وينيف حتى إذا مات هنرى، اختار ملكا آخر، هو ولـيم كونت هولندا، بينما تعرض الاكليروس الألمانى الموالى للإمبراطور، للقهر والحـرمان الكنسى واللعنة من جانب البابا، للتخلى عن مناصرة الإمبراطور، الذى دبرت مؤامرة لاغتياله فى إيطاليا[١٤٢].

وفـى عـام ١٢٥٠ أنقـذ المـوت فردريك من الاغتيال!! فتنفست البابوية الصـعداء إذ تحقق حلمها الكامل بموت خصمها العنيد، وبانقسام الإمبراطورية بين ولديه، كونراد فى ألمانيا، لمدة أربع سنوات فقط، ومانفرد الابن غير الشرعى، فى صـقلية وأيقنت البابوية أن فرصتها لتحطيم الهوهنشتاوفن والإمبراطورية، مواتية ورغـم أن إنوسنت الرابع كان مترددا بين أن يبقى على مملكة صقلية تحت السيادة المباشـرة للبابوية، أو تعيين حاكم زمنى من قبله عليها يكون فصلا إقطاعيا له، إلا أن غـزو كونراد الرابع للأراضى الإيطالية عام ١٢٥٢ حسم هذا التردد فبدأ البابا مفاوضـاته لاختيار حاكم زمنى وراح يفاضل بين شارل كونت أنجو Charles of Anjou أخـى لويـس التاسـع ملك فرنسا، واثنين من العائلة المالكة فى إنجلترا.. ريتشارد أمير كورنوول Richard of Cornwall أخى هنرى الثالث الملك وأدموند Edmund ابـن الأخـير، وظلت المفاوضات دائرة حتى سنة ١٢٥٤ عندما توفى كونراد الرابع[١٤٣].

---

(141) Ullmann, A short history of the Papacy, p.261.

(١٤٢) للمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث، راجع:

Thompson & Johnson, op. cit., pp. 427-428

(143) Waley, Later Medieval Europe, pp. 35-36.

وقــد حــاول إنوسنت الرابع التوصل إلى اتفاق مع مانفرد Manfred، لكن دون جــدوى ولم تلبث القوات البابوية أن لقيت الهزيمة على يد قوات مانفرد الذى أعلن نفسه حاكما لمملكة صقلية، وتلقى البابا خبر الهزيمة وهو على فراش الموت فــى ديسمبر ١٢٥٤ واستفتح خلفه إسكندر الأكبر (١٢٥٤-١٢٦١) عهده بهزيمة أيضا فى أبوليا Apulia صيف ١٢٥٥، ليصبح مانفرد صاحب الشخصية القوية فى الجـنوب، وليـتوج فى بالرمو عام ١٢٥٨ وفى عام ١٢٦١ وصل خليفته الفرنسى أوربــان الــرابع (١٢٦١-١٢٦٤) المفاوضــات التى كانت قد انقطعت بين سلفه الأســبق، وأمــراء أوروبا لحكم مملكة صقلية، وتوصل إلى اتفاق مع شارل كونت أنجــو، يدفــع الأخير للبابا بمقتضاه خمسين ألف مارك فور غزو المملكة وجزية إقطاعــية ســنوية مقدارهــا عشرة آلاف أونصة Ounces ذهبية[١٤٤] ونجح الأمير الفرنسى الطموح فى هزيمة مانفرد وقتله عند بنفنتو Benvento عام ١٢٦٦.

لــم يبق من أسرة الهوهنشتاوفن إلا صبى فى الخامسة عشرة من عمره هو كونراديــنو Conradino ابن كونراد الرابع، الذى أقدم بناء على نصائح مستشاريه على غزو إيطاليا عام ١٢٦٧ ليحكم عرش أجداده ومن الغريب أن روما رحبت به كراهية فى البابا الفرنسى كلمنت الرابع Clement IV (١٢٦٥-١٢٦٨) الذى كان أشــد ولاء لفرنســيته من عرشه الأسقفى[١٤٥] وفر البابا إلى فيتربو Viterbo لكن الجــيش الإمبراطورى لقى هزيمة ثانية على يد القوات الفرنسية، ووقع كونرادينو أسيرا وحتى يتم التأكد من القضاء على أسرة الهوهنشتاوفن خصم البابوية اللدود تم اقتــياد هــذا الأسير إلى نابلى، حيث احتزت رأسه عام ١٢٦٨ تحت سمع البابوية وبصرها!

هكــذا أسدل ستار أسود كثيف .. كقطع الليل البهيم، على إمبراطورية قبرت بيد البابوية، بينما لبث البابوات ثلاثة مائة سنين وازدادوا ستا، منذ توج أوتو الأول

---

(144) Ibid. p.38.

(145) Ibid., p.37.

عام ٩٦٢، حتى ارتحل كونراديتو عن الدنيا كارهًا سنة ١٢٦٨، يصعدون إلى قمة السمو البابوى، ولا هم لهم طوالها إلا ممارسة لعبة السياسة، كما لو كانوا من بنيها، تاركين وراء ظهورهم مهمتهم الروحية، بعد أن أصبح "عملهم الرئيسى"– كما عبر عنه إنوسنت الثالث، رعاية الإمبراطورية! حتى إذا أدركوا قمة الجبل على أشلاء ضحاياهم من الأباطرة والمثل، تربعوا على امتداد ثلاثة قرون آتية، كممت فيها الأفواه، وصفدت عقول المفكرين، وسيق كوبرنيكوس Copernicus وجاليليو وغيرهم من العلماء، إلى العذاب زمرا، مما دفع العلماء الإنسابيين فى القرن السادس عشر، إلى أن يلصقوا بهذه القرون صفة العصور المظلمة. وامتهنت عقول الناس، امتلأت جيوب الكنيسة ببيع الغفران فى صكوك! حتى أن ادوارد الثالث ملك إنجلترا، لفت نظر البابا كلمنت السادس بقوله : "إن خليفة الحواريين قد وكل إليه أن يرعى خراف الرب لا أن يجز صوفها!".

ورفع الأسقف الأسبانى الفارو بلايو عقيرته ساخطًا: "إن الذئاب تسيطر على الكنيسة وتمتص دماء الشعب المسيحى"!!

لقد حققت البابوية الآن سموها وسيادتها بصورة تكاد تكون كاملة، إلى الحد الذى دفع البابا بونيفاس الثامن (١٢٩٤-١٣٠٣) إلى مخاطبة فيليب الرابع ملك فرنسا (١٢٨٥-١٣١٤) بقوله: "اسمع أى بنى إلى وصايا أبيك .. ولتأخذ جماع قلبك بتقاليد السيد، الذى يحتل على الأرض مكان الرب .. الذى هو وحده السيد والرب"!! ولم لا.. وقد خلت الساحة من منافس سياسى، بعد أن تحطمت الإمبراطورية على يد البابوات وإنه لمن سخرية الأقدار حقًا، أن يكون الأباطرة الألمان، الذين جعلوا الإصلاح الكنسى حقيقة واقعة، هم أكثر الناس خسرانًا من هذا الإصلاح لقد كانوا بحق كمن يحفرون قبورهم بأيديهم!!

الفصل الثانى

الفكر البابوى الصليبى

ماذا لو قلنا مباشرة ودون أية مقدمات، إن البابوية كانت السبب الرئيسى فى فشل كثير من الحملات الصليبية ؟! بل ما الذى سيكون عليه الأمر لو ذهبنا إلى حد القول إن البابوية سعت بكل ما وسعها الجهد إلى أن يكون الإخفاق حليف هذا العدد من تلك الحملات؟!

ولكـن ماذا لو كنا أكثر دقة وأشد تثبيتا وقررنا من البداية دون تردد أن البابوية وقفت موقف المناوئ للحملات الصليبية مذ تحولت ريادة الحركة من يد الأمراء إلى يد الملـوك، ولمـا كان هذا التحويل قد حدث مع الحملة الثانية حتى السابعة – مع استثناء الرابعة، فإن هذا يعنى أن المناوأة بدأت مبكرا منذ منتصف القرن الثانى عشر الميلادى حـتى آخـر سنى النصف الأول من القرن الثالث عشر. ولم يكن هذا الموقف البابوى العدائـى تجـاه حملات الملوك، جامدا بلا حراك، بل كان ديناميكيا مؤثرا إلى حد بعيد جـدا، اسـتخدم فيه الحبر الرومانى كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة، وكانت الأخـيرة هى الغالبة، للقضاء على أى أمل فى النجاح قد يداعب ملكا من ملوك أوروبا، وحمل الصليب وخرج متجها إلى الشرق!!

وقـد تكـون الحملة السابعة – مع التحفظ – هى الاستثناء الوحيد فى العداء الـبابوى تجاه حملات الملوك؛ ذلك أن لويس التاسع كان عند البابوية قديسا، خرج وفـاء لـنذر نذره، وإيمانا بكفرة "الحرب المقدسة" ضد أعداء المسيح، وهى اللافتة العريضـة الـتى علقـتها الـبابوية، وفعلت تحت ظلها الأفاعيل ضد المسلمين فى الشرق، بل والمسيحيين فى الغرب والذين كانت عذاباتهم بيد راعيهم، خليفة بطرس ثم نائب المسيح على الأرض، أشد وأنكى!!

وحـــتى لا يكـــون حديثـــنا هذا ضربا من ضروب التنظير، أو دربا من دروب الجـــدل العقـــيم ومتاهاته، فمن الأجدى أن نرتد على آثارنا قصصا، لنجلو حقيقة الأمر، ونناقش الوقائع من مظانها الأصلية، ونرى إلى أى مدى تصدق هذه المقدمات.

ففـــى الســـابع والعشـــرين من نوفمبر عام ١٠٩٥ ، وفى مدينة كليرمونت Clermont بجـــنوب فرنســـا، وفى الجلسة الأخيرة من جلسات المجمع الذى شهدته المديـــنة علـــى امـــتداد تسعة أيام سلفت، وجه البابا أوربان الثانى Urban II الدعوة للجميع حاضرهم وغائبهم، كى يحملوا الصليب ويولوا وجوههم شطر الشرق لإنقاذ إخوانهم هناك من ويلات العذاب التى يتعرضون لها - بزعمه - واستخلاص القبر المقـــدس مـــن الانتهاكات التى لحقت به - فى تصوره - على يد المسلمين قال: "يا شعب الفرنجة، أنتم يا من تعيشون خلف جبال الألب، يا من اختاركم الرب وأحبكم مـــن خلال أعمالكم الكثيرة، يا من تميزتم عن سائر الأمم بموقع أرضكم وعقيدتكم الكاثوليكـــية والشـــرف الـــذى أوليـــتموه للكنيسة .. إليكم نتوجه بخطابنا نستحثكم، ولـــتعلموا أن دافعـــا محـــزنا جـــاء بـــنا إلى بلادكم .. إنها الحاجة إليكم وإلى كل المؤمنين"[١].

ويدخـــل البابا بعد ذلك فى حديث طويل عن التعذيب والقمع والاضطهادات الوحشـــية الـــتى يتعرض لها - على حد قوله - المسيحيون الشرقيون، فى أسلوب يمـــس شغاف قلوب سامعيه وينزع بهم إلى القتال، ثم يتساءل فجأة وهو يرمى إلى مـــا وراء تساؤله ببعيد: "على من إذن تقع مهمة الانتقام من هذا، ومهمة الخلاص منه، إذا لم يكن على عاتقكم أنتم يا من اختاركم الرب دون سائر الأمم ليسبغ عليكم نعمـــة المجد فى السلاح وجسارة القلب والبسطة فى الجسم، والقدرة على التحدى؟ لتكـــن قصـــص أســـلافكم العظام حافزا لكم يحرك أرواحكم صوب القوة؛ فها هو شارلمان وابنه لويس وغيرهما من ملوككم وقد دمروا ممالك الوثنيين ومدوا حدود البـــيعة المقدســـة داخلها .. أيها الجنود يا من تتمتعون بالقوة وتتحدرون من صلب

---

(١) روايـــة روبـــير الراهـــب عن مجمع كليرمونت، ترجمة قاسم عبده قاسم. الحروب الصليبية، نصوص ووثائق، القاهرة بدون تاريخ، ص٧٧.

آبـــاء لا يشق لهم غبار، لا ترضوا لأنفسكم مظهرا أقل من أسلافكم، وتذكروا على الدوام قوتهم، وإذا كان حب الأطفال والوالدين والزوجات سوف يعوقكم، تذكروا ما يقولــه سيدنا فى الإنجيل "من أحب أبا وأما أكثر منى فلا يستحقنى، ومن أحب ابنا أو ابـنه أكـثر مـنى فلا يستحقنى" (متى ١٠/٢٧-٢٨) وكل من ترك بيته أو أباه أوأمه أو زوجه أو أطفال فى سبيل اسم المسيح سوف ينال قدرها مائة مرة وسوف يستحق الحياة الخالدة"[٢].

ثم يعرج إليهم حاملا بلسانه طبقا شهيا يسيل له لعاب السامعين الذين يعانون مـن وطـأة نظام اقطاعى قصم ظهور الأقنان، وأفسد سلام النبلاء بحروب أهلية طاحنة، ومغامرات تنافسية إقطاعية لانهاية لها، فشلت معها كل جهود "هدنة الرب" و"سـلام الـرب" ويعدهـم البابا وعدا حسنا فيقول: ".. هذى الأرض التى يعيشون عليها يحوطها البحر من كل جانب، وتحفها سلاسل الجبال من كل ناحية، وتضيق بكـثرتكم، وتشـح بالثروة، ولا تكاد تغل من الطعام ما يكفى الزارعين، ولذا فأنتم تشـنون الحـروب ضـد بعضكم بعضا، وتقتلون أنفسكم بأيديكم. الآن أوقفوا هذه الكراهية، وكفوا عن النزاع، وأطفئوا نيران الحرب بينكم وانطلقوا إلى طريق القبر المقـدس لتنقذوا تلك الأرض من ذلك الجنس الذى يثير الرعب فى النفوس، ولتكن لكـم الأرض خالصة من دونهم، فهى الأرض التى حدثنا عنها الكتاب المقدس بأنها تفيض باللبن والعسل"[٣].

ورجـع الفضـاء الصدى الناجم عن صيحات الجمع المحتشد وهو يصرخ "إنهـا" إرادة الله" "والله يـريدها" Deus Vult .. Deus Vult وسرت الدعوة مسرى النار فى الهشيم، وكأنما كان يتلهف المجتمع بأسره لسماع مثلها، الأمراء والفرسان والأقـنان والـزناة والخطـاة، واللصوص والسفاكون، والمتهربون من الضرائب، والهـاربون من الديون، والفارون من السجون .. المجتمع كله، عليته وحثالته، أو أضـلاعه الثلاثة التى حدثنا عنها ألفرد العظيم Alfred the Great ملك انجلترا فى

(٢) نفسه، ص٧٨ – ٧٩.

(٣) نفسه.

القرن التاسع، ضلعه الذى يصلى .. رجال الاكليروس، وضلعه الذى يحكم الأمراء العلمانـيون، وضـلعه الذى يقوم بخدمة هذين الضلعين - الفلاحون الأقنان وتناول الشعراء الدعوة فتغنوا بها وترنموا:

ألا أيها المحبون العاشقون أفيقوا

ودعوا النوم .. وكفى

فالقبرة المغردة تردد أن النهار

قد جاء .. وصفا

وتشدو بأن السلام آت قريب

يعطيه الرب واسع المغفرة .. المجيب

لأولئك الذين فى حبه يحملون الصليب

يعانون الآلام بالحب .. وصبر عجيب(٤).

أمـا الملـوك فقـد وضعوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم، وأصروا واستكبروا استكبارا نيفا وخمسين سنة بعد الدعوة، إلى أن قرروا تلبية النداء بحمل الصـليب وعلى مسئوليتهم الخاصة، ووضعوا على كواهلهم عبء الحملات القادمة إلـى الشـرق ابتداء من الثانية فى أخريات النصف الأول من القرن الثانى عشر، حـتى السـابعة فى منتصف القرن الثالث عشر، باستثناء الحملة الرابعة التى كانت لها ظروفها الخاصة ونتائجها الخاصة أيضا وهذا الموقف الذى اتخذه ملوك أوروبا آنـذاك بـلا اسـتثناء، يثير كثيرا من علامات الاستفهام. أتراهم لم يكونوا يؤمنون بالفكـرة فى حد ذاتها؟ أم لم يكن لديهم امتناع بجدواها فى مواجهة عدو لم يكونوا علـى علم كامل بقوته العسكرية وتعبئة جيوشه؟ أم تراهم أدركوا المغزى الحقيقى

(4)"Vos qui ameis de Vraie amour" An Anonymous poet writes of the love of God expressed (by the Crusader (in Riley – Smith, The Crusades, Idea and reality, London, 1981, pp. 89-90).

الذى كانت تهدف إليه البابوية من دعوتها هذه، والهدف الكامن وراء عبارات البابا ودعايته الظاهرة؟ أم أن البابوية نفسها كانت راغبة عن اشتراكهم كارهة إياه لحاجة فى نفس رعيانها من أوربان الثانى فى آخر سنى القرن الحادى عشر حتى إنوسنت الرابع Innocent IV ocent IV فى القرن الثالث عشر الميلادى؟

ولعل التساؤل الأخير يجد إجابته مباشرة فى سلوك أوربان الثانى، الذى ما أن فرغ من دعوته العامة فى كليرمونت حتى عكف خلال الأشهر التالية التى استغرقتها الاستعدادات العامة لخروج الحملة الأولى باتجاه الشرق، يكاتب عددا من أمراء أوروبا من وراء ظهر ملوكهم، سادتهم الإقطاعيين! ويعقد المجامع الكنسية، ويبعث بقسيسيه إلى مناطق متفرقة من أوروبا - وإن كانت فرنسا مركز نشاطه - حاثا إياهم على دعوة الأمراء والنبلاء والفرسان على التضامن جميعا فى سبيل نجاح دعوته. وقد تضمنت رسائله جميعا النغمة التى عزف على أوتارها فى كليرمونت، والخاصة بويلات العذاب التى يلقاها إخوانهم مسيحيو الشرق، وانتهاك الحرمات فى الأراضى المقدسة.

ففى رسالة بعث بها إلى "كل المؤمنين فى الفلاندرز" فى ديسمبر ١٠٩٥، أى فى أعقاب مجمع كليرمونت يقول :".. لقد زرنا بلاد الغال (فرنسا) وحرضنا السادة والرعايا بحمية فى هذا الإقليم على تحرير الكنائس الشرقية .. وفرضنا عليهم التزامات بأن ينجزوا مثل هذا المشروع لمحو كافة خطاياهم، وعينا نائبا عنا قائدا لهذه الحملة، هو ابننا العزيز أديمار Adhemar أسقف لى بوى Le-Puy ومن ثم فإن كل من يقرر الذهاب فى هذه الرحلة فعليه أن يطيع أوامره كما لو كانت صادرة منا، كما يجب أن يخضع لسلطانه تماما فى الحل والعقد فى أية قرارات تتصل بعمله"(٥).

وواضح من هذه الرسالة أن البابا قد اختار قائدا روحيا للحملة فى الوقت نفسه هو أسقف لى بوى، ولم يعقد لواء الزعامة لأى من الأمراء الذين خرجوا

---

(٥) URBAN II, to all the faithful in flanders, December 1095 وراجع أيضا الترجمة العربية عند قاسم عبده قاسم، المرجع السابق ص٩.

بجيوشهم فى هذه الحملة مثل جوزفروى دى بوايون Gogfrey de Bouillon دوق اللوريـــن، وبوهيمند Bohemond النورمانى، وستفن كونت بلوا Stephen Count Blois، وريمونـــد Raymond الصـــنجيلى Sanit-Giles أمير تولوز Toulouse، وإن كان الأخير قد حظى بصحبة المندوب البابوى له مما أوحى بأنه من المقربين!

وفـــى التاســـع عشـــر مـــن سبتمبر عام ١٠٩٦ كتب إلى أتباعه فى بولونيا Bologna يقول ضمن إجراءات تنظيمية: "... علمنا أن كثيرين منكم قد استبد بهم الشوق للذهاب إلى أورشليم، وذلك شىء أثلج صدورنا، وليكن معلوما لديكم أن كل مـــن يمضـــى إلى هناك، لا من أجل مكاسب دنيوية، بل فى سبيل تحرير الكنيسة وخـــلاص أرواحهم، فإننا بمقتضى السلطة المخولة لنا وسلطة أساقفتنا الكبار وكل أساقفة الغال، بفضل رحمة الرب العظيم وصلوات الكنيسة الكاثولوليكية، نعفيهم من التكفـــير المفـــروض علـــيهم بسبب خطاياهم التى اعترفوا بها، وذلك لأنهم قدموا أموالهـــم وحـــياتهم فى حب الرب والجيران، أما الأساقفة والرهبان فلا يسمح لهم بالرحيل قبل الحصول على موافقة أساقفتهم ومقدمى أديرتهم، ويجب أن يوضع فى الاعتـــبار أن الشـــباب حديثى الزواج لا يفضل أن يقوموا برحلة طويلة كهذه دون موافقة أزواجهم، وليساعدكم الرب العظيم"(٦).

وبعد ثلاثة أسابيع من هذا التاريخ، أى فى السابع من أكتوبر ١٠٩٦، أرسل إلـــى جماعة دير "فالومبروسا" Vallombrosa يقول: "لقد نما إلى علمنا أن بعضا مـــنكم يـــريد الانطـــلاق مـــع الفرسان الذاهبين إلى أورشليم بنية خالصة لتحرير المســـيحية، وهذا النوع من التضحية الحقة، غير أنها جاءت من أفراد غير مؤهلين لذلـــك، فنحـــن نستنفر أفئدة الفرسان للقيام بهذه الحملة لأنهم هم القادرون على كبح جمـــاح المســـلمين بأسلحتهم، وإعادة الحرية للمسيحيين ونحن لا نريد لأولئك الذين هجـــروا دنيا الناس، ونذروا أنفسهم لجهاد الروح، أن يحملوا السلاح أو يذهبوا فى هذه الحملة"(٧).

---

(٦) URBAN II, to his Partisans in Bologna 19 September 1096- ، وراجـــع الـــترجمة العربية عند قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص٩١ .

(7) URBAN II, to the religious of the Congregation of Vallombrosa 7 October 1096
وراجع الترجمة العربية عند، قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص٩٢.

واضــح تماما من هذه الرسائل التى جئنا على طرف منها هنا، وتلك التى أوردتهــا المصـــادر ولــم نذكرها، ومن خطاب أوربان الثانى فى كليرمونت، أن البابوية قد وضعت نفسها من البداية فى موضع الزعامة الروحية والسياسية للحركة الصـــليبية، أمـــا الأولـــى فلا سبيل إلى الشك فيها أو النيل منها، وأما الثانية - وقد خاطبـــت البابوية الفرسان دون الملوك - فكانت تعنى صراحة إعلان الحرب على الســـلطة الزمنية فى أوروبا ودون مواربة. فالأمراء يدينون بولائهم السياسى - ولو مـــن الناحية النظرية فقط، لملوكهم باعتبارهم أفصالهم الإقطاعيين، وقد أقسموا لهم بمقتضـــى أعـــراف النظام الإقطاعى السائد يمين الولاء والتبعية، وهو اليمين الذى حاج به زعماء الحملة الأولى الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس كومننوس Alexius Comnenos وهـــم مـــثول فـــى حضـــرته قبل عبورهم البسفور فى طريقهم إلى الأراضى المقدسة. ورغم أن الأمراء وملوكهم يدينون بالتبعية الروحية للبابوية، إلا أن مخاطبـــتهم من وراء ظهور سادتهم الإقطاعيين، حتى ولو كان من جانب خليفة القديـــس بطرس الآن، ونائب المسيح Vicarius Christi من بعد، يعد اعتداء على حقـــوق الســـيادة الزمنـــية، وانتهاكا لفرضيات النظام الإقطاعى الباسط كفيه على أوروبـــا آنـــذاك، والقاضية "برابطة تعاقدية تحت زعامة الملك باعتباره ممثلا لقمة الهـــرم الإقطاعى"(٨)، رغم أن هذه "القمة" كانت طيلة العصر الوسيط تمثل المكانة وتخلو من السلطة!!

ولمـــا كانـــت الـــبابوية تدرك ذلك تماما، فقد سعت حثيثا لتضع نفسها هى الأخرى فى مصاف الملوك الإقطاعيين، وسعت فى هذا السبيل خطوها حتى أمسى الـــبابا بـــدوره سيدا إقطاعيا تفوق سلطته الإقطاعية سلطة الملوك، وبدا هذا الاتجاه واضـــحا حـــتى قـــبل أن تتســـع الهـــوة بيـــن البابوية والسلطة الزمنية ممثلة فى الإمـــبراطورية. ففـــى عام ١٠٧٣ كتب جريجورى السابع Gregory VII فى أول عهـــده بالعرش البابوى، رسالة "إلى كل الأمراء الراغبين فى الذهاب إلى إسبانيا"(٩)

(٨) ســـعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، جزءان القاهرة ١٩٨٣، الجزء الثانى ١٩٨٦ ص ٢٧٣؛ محمد كامل ليلة، النظم السياسية، القاهرة ١٩٦٣، ص٤٢٢.

(9) GREGORY VII, to Princes wishing to reconquest Spain, 1073

جـــاء فـــيها: "هـــا هو كونت إفولوس Evolus صاحب روشيو Roceio وصاحب الشـــهرة الفائقـــة، رغب فى مهاجمة تلك الأراضى لاستخلاصها من أيدى الوثنيين (يعنى المسلمين فى الأندلس)، ومن ثم أعطيناه الحق فى امتلاك كل الأراضى التى يستردها بنفسه أو بمساعدة حلفائه، وكان ذلك بموافقاتنا نحن ممثلى القديس بطرس، فـــإذا حذوتم حذوه وسعيتم سعيه، كان سعيكم مشكورا، أما إذا فكر أحدكم أو خطط لمهاجمة تلك الأراضى منفردا أو لحسابه الخاص .. فليكن معلوما لديكم جميعا أنه من الخطأ البين أن تغضبوا القديس بطرس باستيلائكم لحسابكم على تلك الأراضى، فتمسون بذلك شأن الوثنيين" .

وإذا كـــان جـــريجورى السابع قد استفتح ولاية عهده البابوى بتأكيد سيادته الإقطاعـــية تجاه الأمراء، فإنه ثنى ذلك فى العام التالى (١٠٧٤) بدعم هذا الادعاء إزاء الملـــوك؛ فقـــد كتب إلى "سولومون" Solomon ملك المجر[10] يقول فى لهجة متغطرسة تنم عن شخصيته" .. تستطيع أن تقف من أمرائك على أن مملكة المجر ترتـــبط بالكنيســـة الرومانـــية المقدسة، وهذا يستتبع بالضرورة خضوعها وتبعيتها للقديس بطرس .. غير أنه نما إلى علمنا أنك وافقت على قبول المملكة كإقطاع من الملك الألمانى (لم يكن هنرى الرابع قد توج حتى ذلك الحين إمبراطورا)، وهذا يعد انـــتهاكا لحقوق القديس بطرس، وهو سلوك لا يتفق وأخلاق الملوك وفضائلهم. فإن أردت أن تـــنال بـــركة القديـــس بطرس ورضانا، فعليك أن تبادر إلى إصلاح هذه الخطايـــا الـــتى أثمتها يداك، ولا شك أنك تعلم جيدا أنه ليس لك أمل فى أن تحظى بالعدالة، أو تضمن لنفسك على عرشك عمرا مديدا، إلا إذا تلقيت صولجان سلطانك من يد البابا وليس من الملك. ولما كان الله قد منحنا القوة، فإننا لن نسمح أبدا تحت أى تهديد أو خوف أو اعتبارات شخصية بتدنيس مجد وكرامة من نحن على خدمته قـــائمون. وإذا أردت أن تصوب خطى مسارك وأن تسلك سلوك الملوك، فعليك أن تكتسب محبة الأم .. الكنيسة الرومانية المقدسة .. وصداقتنا فى المسيح".

---

(10) GREGORY VII, to solomon King of Hungary 1074

والرســالة بكــل ما فيها من عجرفة دالة على ملامح العصر الجريجورى، تنبــئ عن المكانة الإقطاعية التى عملت البابوية على تحقيقها، حتى تطاول الملوك مكانــتهم فى حربها معهم، مضافا إليها مكانتها الروحية التى تدل على الجميع. وقد يــدور بخلــد بعــض أن جريجورى فعل ذلك ضمن برنامجه الإصلاحى، وأنه لا علاقــة لـــه بالفكرة الصليبية لدى البابوية، وأن هذه الرسائل وأشباهها سابقة على مجمــع كليرمونت. غير أن الحقيقة التاريخية توقفنا على أن الفكر الصليبى البابوى قــد قر فى ذهن جريجورى قبل أوربان الثانى بعشرين سنة كاملة، وأن الاتجاه إلى الشــرق فـــى حملة صليبية كان من بنات أفكار جريجورى السابع نفسه؛ ففى عام ١٠٧٤ وجـــه نداء عاما "إلى الراغبين فى الدفاع عن الإيمان المسيحى"(١١) افتتحها بالحديــث عــن الولايـــات التى حلت بالمسيحيين فى الشرق، والاضطهادات التى تعرضـــوا لهـــا علـــى يـــد المســلمين، ومـــا تعانـــيه الإمبراطورية فى الشرق، والاضـــطهادات التى تعرضوا لها على يد المسلمين، وما تعانيه الإمبراطورية فى الشـــرق مـــن خطـــر داهـــم من جانبهم، وهذا هو بعينه ما قاله أوربان الثانى فى كليرمونت، وصدر بها رسائله التى أوردناها من قبل.

وبعد هذا الحديث الذى يفيض حسرة وأسى، يوجه جريجورى السابع الدعوة لحملـــة صـــليبية لإنقاذ مسيحى الشرق. يقول "نحن نثق فى رحمة الله. كما نثق فى قدرتـــه وســـوف نبذل كل ما فى وسعنا لعمل الاستعدادات اللازمة لتقديم يد العون للإمـــبراطورية المســـيحية (يعنى البيزنطية) فى أسرع وقت ممكن، ومن ثم فنحن نناشـــدكم بالإيمان الذى ألف بينكم فى المسيح، وسلطة القديس بطرس أمير الرسل أن تـــتحركوا بكـــل الحـــنو إزاء جرحات ودماء إخوانكم ... لإنقاذهم مما يعانون، ولتـــتحملوا الصعاب مهما كانت من أجلهم، ونبئونى بما سيهديكم الله إلى عمله فى هذا السبيل"(١٢).

---

(11) GREGORY VII, calls for a Crusade, 1074

(١٢) Id.1989, Vol. I, pp. 222-223 وراجع أيضا Setton (K.), A history of the Crusades, Six Vols, Philadelphia, 1955.

كانت هذه الرسالة فى الأول من مارس عام ١٠٧٤، وما أن وافى شهر سبتمبر من العام نفسه، حتى بعث برسالة إلى وليم السابع دوق أكويتين Aquitaine وكونت بواتو Poitou جاء فيها أن التقارير تفيد بهدوء الأحوال فى الشرق، وأن المسيحيين هناك بدأوا يستردون ثقتهم فى أنفسهم ثانية،(١٣) وأن علينا التريث حتى نرى ما يطالعنا به المستقبل(١٤) . ولم تكد تمضى على ذلك أشهر ثلاثة، حتى كتب إلى هنرى الرابع Henry IV ملك ألمانيا فى الأيام الأخيرة لعام ١٠٧٤ يقول: "أود أن ألفت انتباهكم إلى أن المسيحيين فيما وراء البحار يعانون من اضطهاد وذبح المسلمين لهم كما تذبح الشياه، وأنهم كتبوا إلى مستجيرين .. وليكن معلوما لديك أن هناك خمسين ألف رجل على أتم استعداد للقتال تحت قيادتى كما أنى أقترح بعد أن ينفذوا مهمتهم أن يواصلوا تقدمهم حتى قبر المسيح"(١٥). ولعل هذا ما دعا المؤرخين Edgar H. McNeal, Oliver J. Thatcher إلى الاعتقاد بأن ما حدث فى عام ١٠٩٥ لم يكن يختلف كثيرا عما دعى إليه فى سنة ١٠٧٤، وأن البابا أوربان الثانى عندما وجه الدعوة للحملة الصليبية فى كليرمونت، لم يكن فكره يحتوى على شئ أكثر مما اشتمل عليه فكر جريجورى السابع الذى كشفت عنه رسائله هذه(١٦). وإذا كان جريجورى السابع لم يستطع أن يمضى فى تنفيذ برنامجه الصليبى إلى حيث يبتغى، نتيجة للصراع الذى نشب على الفور بينه وبين هنرى الرابع مستترا برداء التقليد العلمانى، فإنه يعد بلا شك صاحب اللبنة الأولى فى بناء صرح الحركة الصليبية، والتى تعهدها أوربان الثانى من

(١٣) لعل جريجورى يشير هنا إلى التحالف المؤقت الذى جرى فى منتصف عام ١٠٧٤بين الإمبراطورية البيزنطية وبعض زعماء السلاجقة، مثل أرتق وسليمان بن قطلمش. للقضاء على الحركة التى قام بها "روسل باليل" Roussel of Bailleul لإقامة دولة نورمانية مستقلة عن الإمبراطورية فى آسيا الصغرى، وأدى هذا التحالف المؤقت إلى هدوء الأمور نسبيا فى المنطقة بين البيزنطيين والسلاجقة. راجع، أسد رستم، الروم، جزءان، بيروت ١٩٥٦ الجزء الثانى، ص١١٢-١١٣؛ سيد أحمد على الناصرى، الروم، القاهرة ١٩٩٣، ص٣٧٩-٣٨١؛ عبد الغنى محمود عبد العاطى، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور الكسيوس كومننوس، القاهرة ١٩٨٣، ص٨٢ – ٨٧.

(14) Setton, Crusades, Vol. I,p. 223

(15) Ibid. p.224

(16) Thatcher (O.) & McNeal (E.), A Source book of Mediaeval History, New Youk, p.512

بعـــده وبالرعاية الكاملة حتى ليعد بحق هو صاحب الجانب العملى التطبيقى منها دون شك، ودون أن ينازعه في ذلك أحد.

واســتكمالا لمشروعه وجه جريجورى السابع فى السادس عشر من ديسمبر ١٠٧٤ دعــوة عامة للمؤمنين عبر الألب للمشاركة في حملته المقترحة،وكتب إلى حليفــته الكونتيســة ماتــيلدا Matilda أميرة تسكانيا Tuscany يدعوها مصاحبة المبراطورة الأم "آجنى" Agnes التى من المتوقع ذهابها إلى الشرق مع الذاهبين- وضــمن رســالته إلـــى هنرى الرابع التى تحدثنا عنها توا - طلبا بأن يقوم الملك الألمانى بحماية الكنيسة الرومانية المقدسة ومباشرة شئونها ويوصيه بها خيرا أثناء غــيابه فى الشرق قائدا للحملة؛ ويعتبر "فردريك دونكالف Frederic Duncalf"[١٧] ما أقدم عليه جريجورى السابع فى وصيته هذه لهنرى الرابع "نوعا من السذاجة" . بينما لانرى فيها إلانوعا من خبث "شيطان مقدس" على حد وصف بطرس الدميانى لـــه[١٨]. فهوقــد جعــل من نفسه داعية لحملة صليبية تتجه إلى الشرق بهدف انقاذ المســيحيين الشـــرقيين فـــى الإمبراطورية البيزنطية، الذين كان هو نفسه يعتبرهم "خارجيــن عــن عقيدة الكنيسة الجامعة"[١٩] ونصب نفسه قائدا عسكريا للحملة إلى جانــب كونـــه زعيما روحيا. فكأنه بذلك اختص شخصه بجانب من سلطة الملوك، الحكــام الزمنيين، والإيحاء إلى هنرى برعاية شئون الكنيسة الرومانية فى غيابه، يجعــل من هنرى نائبا عنه، أو يعتبر أشد تحديدا، فصلا إقطاعيا تابعا له، وهذا هو جانـــب "الخبث" فى "الشيطان المقدس" وليس "نوعا من السذاجة" يؤكد قولنا هذا ما يذهــب إلـــيه "أولمـــان"[٢٠] Ullman من أن هذه الحملة المقترحة لجريجورى كان صـــاحبها يرمى بها من طرف خفى إلى هدف سياسى آخر، وهو أنه كان يأمل من مجـــرد إشـــاعة أن هـــناك خمســين الألف مقاتل رهن إشارته، وإظهار هذه القوة

---

(17) The Councils of Piacenza and Clermont (in Setton, Ahistory of the Crusaades, Vol. I,p.224).

(18) Tierney (B.), The Crisis of Church and State 1050-1300, U.S.A. 1964, p.46

(19) Setton, Crusades. I,p.224.

(20) Ullmann (W.), A Short history of the Papacy in the Middle Ages, London, 1974, pp.150.

العسكرية المزعومة، أن تخف أو تتوقف حدة هجمات النورمان غير المستقرين فى جنوب إيطاليا على الممتلكات البابوية.

وتدعم مجريات الأحداث ما ذكرناه، ففى الثانى والعشرين من يناير ١٠٧٥، وبعد أقل من شهر من رسالته إلى هنرى، كتب إلى هيو Hugh مقدم دير كلونى ورئيسه السابق، عندما كان راهبا يحمل اسم "هيلد براند" Hildebrand رسالة لم يعرج فيها بشىء أبدا على حملة عسكرية ينوى قيادتها لمساعدة البيزنطيين. وإن كان قد أظهر فى الوقت نفسه تبرمه "لانسلاخهم عن حظيرة الإيمان الكاثوليكى"(٢١). وفى العام نفسه بدأت أولى حلقات الصراع بينه وبين السلطة الزمنية فى أوروبا عامة وألمانيا خاصة، عندما أعلن صراحة عن برنامجه الإصلاحى بمحاربة "السيمونية"، أى بيع الوظائف الكنسية، وعدم التعامل مع رجال الدين المتزوجين، ثم أعلن رفضه التام للتقليد العلمانى، مما نكأ جرحا لم يندمل بين البابوية والملوك حتى نهاية العصور الوسطى، وتحول بعد حين يسير من بدايته إلى نزيف مستمر بين القوتين حول السيادة العالمية(٢٢).

ومما يوضح بجلاء نيات جريجورى السابع فى صليبية من نوع خاص إزاء السلطة الزمنية، أنه ما إن بدأ الصراع مع هنرى، حتى نحى جانبا السعى لكسب أى صداقة مع بلاط القسطنطينية، بل على العكس قلب لها ظهر المجن تماما، فبارك الغزو النورمانى للأراضى الإمبراطورية فى شبه جزيرة البلقان، فى محاولة لصرف انتباههم بعيدا عن ممتلكات البابوية فى إيطاليا. وأصدر قرار الحرمان الكنسى ضد الإمبراطور "نقفور الثالث بوتنياتس Nicephorus III Botaniates تحت دعوى أنه عزل صديقه ميخائيل السابع سنة ١٠٧٨ وشجع روبرت جويسكارد Robert Guiscard النورمانى عندما أعلن عزمه على إعادة ميخائيل إلى عرشه(٢٣). وأنعم على أمير زيتا Zeta، إحدى دويلات البلقان الدائرة

---

(21) Setton, Crusades, I,p. 224

(٢٢) لمزيد من التفصيلات عن هذا الصراع، راجع الفصل الأول.

(23) Setton, Crusades, I,p.224 وأيضا Runciman, (S.), A history of the Crusades, 3 vols. London 1965, vol, I, pp. 69,99

فـــى فلــك الإمـــبراطورية البيزنطية، بالتاج هبة منه ليجذبه إلى صف الكاثوليكية، ضـــاربا هــو والأمـــير عــرض الحائط بالإدعاءات البيزنطية. ومع أن الكسيوس كومـــنزس، فـــى محاولـــة منه لإزالة الخلاف بين القسطنطينية وروما، جدد رغبة ميخائيل السابع فى الاستعانة بجند مرتزقة من الغرب الأوروبى، إلا أنه لم يجد من جريجورى آذانا صاغية، فأقدم كرد فعل لغيظه على إغلاق الكنائس الكاثوليكية فى العاصـــمة الإمـــبراطورية، وراح أهلوهــــا يـــنظرون إلى البابا الرومانى باعتباره متواطـــئا مــــع النورمان، وأطلقت النكات الساخرة فى المدينة محدثة باستهزاء عن غطرسة جريجورى وعجرفته[٢٤].

هـــذه الفعـــال التى مارسها جريجورى السابع لا يمكن أن تنسب مطلقا إلى زعيم روحى، بقدر ما ترتبط ارتباطا وثيقا بملك اقطاعى يمارس كل شئون السلطة الزمنـــية، أو على حد تعبير "ستيفن رنسيمان[٢٥]" Steven Runciman فإن البابوية أمسكت دفة الحرب "المقدسة" - في عرفها - وراحت توجهها كيف تشاء، فهى التى تدعو إلى هذه الحرب وتطلقها وتعين قادتها، أما الأراضى التى يتم الاستيلاء عليها فهـــى تحت الحماية الكاملة والسيادة البابوية. ومن هنا لم نكن مبالغين عندما ذكرنا مـــن قبل، إن دعوة أوربان الثانى فى كليرمونت، ورسائله العديدة التى وجهها إلى الأمـــراء، هـــى والدعوة العامة للأمراء دون الملوك، بمثابة إعلان لحرب صليبية تـــدور رحاها فى أوروبا بين السلطة الزمنية ممثلة فى الملوك والإمبراطورية من ناحية، والسلطة الروحية الزمنية مجتمعة فى البابوية!

لـــم يكـــن غريبا إذن أن يطلق جريجورى السابع فكرة القيام بحملة صليبية لانقـــاذ مســـيحى الشـــرق طلاقا بائنا لا رجعة فيه، وأن يوجه كل جهده الآن لشن حرب صليبية أخرى فى الغرب الأوروبى ضد الحكام العلمانيين وأصحاب السلطة الزمنـــية من الملوك، طيلة عشر سنوات تالية (١٠٧١-١٠٨٥)، ولم يقلع عنها إلا

---

(24) ANNA COMNENA, The Alexiad, translated from the Greek by E.R.A. Sewter Penguin book 1969, pp.61-65

(25) Crusades, I,P. 92

عــندما جاءته رسل الموت تتوفاه، بحكم الارتباط الحتمى القائم بين ألمانيا وإيطاليا، باعتبار الملك الألمانى هو الإمبراطور الرومانى الذى يتلقى التاج من البابوية.

وبغض النظر عن قرار الحرمان الذى أصدره جريجورى السابع ضد هنرى الرابع فى فبراير ١٠٧٦، والذى قاد إلى الإذلال الشهير للملك الألمانى فى كانوسا، وراح يضرب به المثل، فإن القرارات والمراسيم البابوية الصادرة عن جريجورى السابع تباعا، حتى قبل صدور قرار الحرمان هذا، كانت تعنى فى جوهرها إعلان الحــرب صراحة ضد السلطة الزمنية وممثليها فقد كان من بين ماتضمنته أن للبابا وحــده الحق فى أن يقبل الأمراء منه القدم وكان هذا يعنى أمرين : أحدهما أنه لن يــنال هــذا الشرف إلا أصحاب الحظوة الذين سوف يسمح لهم البابا بذلك من قبيل التــبرك. والآخــر أن البابا بذلك يوجه ولاء الأمراء له دون الملك، وهذا هو بيت القصــيد. ومن ثم كان لابد أن يتبع هذا المرسوم بآخر يعد تتمة طبيعية له ومقدمة لما هو آت يقول فيه: "من حق البابا عزل الأباطرة"، ثم يعلن الحرب صراحة على كــل مخالفــيه تحت دعوى ماقدم به مراسيمه من أن الكنيسة الكاثوليكية لم تخطئ طــيلة ما مضى من عمرها ولن تخطئ فيما بقى لها من عمر، "ليس بكاثوليكى كل مــن يخــالف الكنيســة الرومانية، ولن ينعم بالسلام" وكان هذا التحول من حرب صــليبية باتجاه الشرق يقودها بنفسه، إلى حرب صليبية أخرىً فى الغرب يحركها ويؤجــج نــيرانها بقداســته ضد الملوك، هى الركيزة الأساسية التى استندت عليها البابوية فى سياستها الآتية، واستغلتها استغلالا كاملا لتحقيق أغراضها الأساسية فى الشرق والغرب على السواء.

لقــد كانت دعوة الأمراء وحدهم للقيام بهذه المهمة، تعنى بتعبير دقيق سحب البساط من تحت أقدام الملوك وتجريدهم من أهم دعامتين تعتمد عليهما عروشهم .. أعنى المال والجنود فالملك - فى ظل النظام الإقطاعى - لم يكن يعدو فى كثير من الأحيان "الأول بين أقرانه" Primus inter Pares يمتلك مساحات من الأرض، ربما تزيد ممتلكات بعض أفصاله عنها أحيانا، ويعتمد فى دخل خزانته على ما يقدمه له أمــراؤه فــى مناســبات بعينها، دون أن يأخذ فى شكله صفة الضريبة، بل معنى

الهدية. ويرتكز فى جيشه على جيوش الأمراء فى أى حرب يخوضها، بتعبير آخر كان الأمراء هم مصدر قوة الملك أو مصدر ضعفه فى الوقت نفسه، تبعا لشخصية الملـك فـى المقام الأول. ولما كان النظام الإقطاعى، بمسألة الوراثة فيه، والقائمة علـى توريـث الابن الأكبر وحرمان بقية الأبناء تجنبا لتفتت الملكية الزراعية، قد خلـق مجموعـة مـن الأمراء المغامرين بلا أرض، لم يفلح ميدان الاسترداد فى الأندلس فى تعويض خسرانهم، فقد أصبحوا على استعداد لبيع ولائهم لمن يقدم لهم أرضـا أو وعـدا بأرض، كما هى الحال مع البابوية، وأدركت الأخيرة فى الوقت نفسه أنها إذا نجحت فى استقطاب هؤلاء المغامرين، وضم غيرهم من الإقطاعيين، الطامحين، لحققت بذلك هدفها المزدوج بضربة واحدة، السيادة فى أوروبا - بالدفاع عـن قضية المسيحيين فى الشرق، واحياء الحلم القديم الذى يؤرق جفنها منذ القرن الخامس الميلادى ويلح عليها باستعادة سيطرتها على كنيسة القسطنطينية.

ولا شـك أن هذا كله كان ماثلا فى ذهن أوربان الثانى، كما كان ماثلا أيضا فـى ذهن جريجورى السابع من قبل، ومع أن أوربان لم يكن له صلف سلفه، ولم يكـن فى الوقت نفسه ضعيفا، إلا أنه كان يفضل دائما أن يتجنب المواجهة السافرة مـع خصومه[٢٦] ومن ثم لم يجد حرجا فى أن يشارك بكل ما يستطيع فى المؤامرة الـتى دبرها الأمير الألمانى كونراد conrad ضد أبيه الإمبرطور هنرى الرابع[٢٧]. ولم يكن ذلك بدعا، بل كان سنة وضعها أوربان الثانى وسار عليها خلفاؤه من بعد فى علاقتهم بفردريك الثانى وابنه هنرى السابع وابنى فردريك الثانى أيضا كونراد ومانفرد Manfred.

ولـم تتـنازل البابوية أبدا طيلة صراعها مع السلطة الزمنية عن ادعاءاتها بالسـيادة الإقطاعية، لتشارك الملوك بذلك حقوقها باعتبارهم قمة الهرم الاجتماعى. ولعل أوضح الأمثلة على ذلك، تلك المعاهدة التى وقعت بين وليم الأول ملك صقلية والبابا هادريان الرابع، والتى يعترف فيها الملك النورمانى بالتبعية الإقطاعية للبابا،

(26) Brooke (Ch.), Europe in the central Milddle Ages, 962-1154, Longman-london 1966, pp. 186-187.

(27) Runciman, Crusades I, p, 101.

وحصوله على مملكته كإقطاع من البابوية[٢٨] والمحاولة التى قام بها البابا نفسه مع الإمبراطور فردريك الأول Frederick I عندما أعلن فى رسالة بعث بها إليه، أن إمبراطوريته لا تعدو أن تكون إقطاعا Beneficium بابويا، وما ترتب على ذلك من حادثة "بيزانسون" Besancon الشهيرة عام ١١٥٧، والتى عرفت الإمبراطورية منذ ساعاتها بـ "الإمبراطورية الرومانية المقدسة"[٢٩].

وكانت صقلية فى الجنوب، وتسكانيا فى الشمال هما حزام الأمن للبابوية، ومن ثم سعت بكل ما وسعتها الطاقة لتظل المنطقتان تحت سيادتها الإقطاعية، وقد تحقق هذا بالنسبة لصقلية على النحو الذى قدمنا الآن، إلى أن تمكن فردريك الأول من توجيه صفعة قوية للبابوية عندما خطب "كونستانزا" "Constance" وريثة عرش النورمان لابنه هنرى السادس، الذى خلفه على عرش الإمبراطورية، وكان ذلك يعنى خنق البابوية ووقوعها بين فكى الكماشة الألمانيتين، فظلت تتحين الفرص حتى إذا سنحت إحداها لم تتردد مطلقا فى اهتبالها، فحصلت من فردريك الثانى فى عام ١٢١٣ على اعتراف بسيادتها على صقلية كإقطاعية تابعة لها[٣٠] ، ثم أجبرته على أن يقدم وعدا فى عام ١٢١٦، قبل أن يتوج إمبراطورا بأربع سنوات، على أن تنفصل صقلية عن التاج الإمبراطورى، وتمسى مملكة مستقلة يحكمها ابنه هنرى إقطاعا من البابوية[٣١]. ولما لم يلتزم فردريك بهذه الوعود من بعد، شنتها البابوية حربا ضروسا عليه وعلى أسرة "الهوهنشتاوفن" Hohenstaufen كلها حتى تم لها إعدام آخر أفرادها "كونرادينو" Conradino فى نابولى عام ١٢٦٨.

أما تسكانيا فكانت أميرتها ماتيلدا صديقة للبابوية وساندتها كثيرا فى سبيل إعلاء سيادتها، إلى الحد الذى تنازلت عن الدوقية و"كل ممتلكاتها فى إيطاليا

---

(28) TREATY between ADRIANIV and WILLIAM I OF SICLY 1156

(٢٩) ADRIANIV, Letter to Frederick I, September 1157 وللوقوف على تفاصيل حادثة بيزانسون، راجع، الفصل الأول.

(30) PROMISE OF FREDERICK II TO INNOCENT III, 1213

(31) PROMISE of FREDEICK II to resign Sicily after his Coronation as Emperor 1216

وألمانـــيا" للبابوية[٣٢]، وكان هذا يعنى امتدادا هائلا باتجاه الشمال للسيادة الإقطاعية للبابا، غير أن الأباطرة رفضوا الاعتراف بهذه الوصية، محاجين بأنه ليس من حق الأميرة أن تتصرف فيما يخص الإمبراطورية وحدها.

ولتنفـــيذ ذلك أسرع هنرى الخامس بجيشه إلى إيطاليا، إبان نزاعه مع البابا باســـكال الثانى Paschal II ليكره "ماتيلدا" على إلغاء وصيتها السابقة وتعديلها إلى الإمـــبراطورية بدلا من البابوية![٣٣]، وأكد الإمبراطور لـــوثير الثالث Lothair III هـــذه المســـألة ثانيا بعد مفاوضات مع البابوية، وليمنحها فردريك الأول بربروسا إقطاعا لعائلة الولفيين Welfs فى أول عهده بالعرش الألمانى[٣٤].

والـــذى يلفـــت الـــنظر أن هـــذه الرغبة البابوية الجامحة فى إضفاء الصفة الإقطاعـــية على أنفسهم مزاحمة لأصحاب السلطة الزمنية، الملوك، امتدت عدواها بالـــتالى إلـــى كل رجال الأكليروس فى الكنيسة الكاثوليكية، بحيث أصبح المساس بهـــذه الحقـــوق الإقطاعـــية إعـــتداء يســـتدعى إعلان حرب صليبية ضد الأمراء العلمانييـــن، حـــتى اكتســـب رجـــال الديـــن الصفة نفسها، وأمسوا بالتالى "أمراء أكليروســـيين" يفوقـــون قـــرناءهم العلمانييـــن بالإعفـــاء من الالتزامات الإقطاعية المفروضـــة علـــى هؤلاء الآخرين باعتبارهم أفصالا إقطاعيين تابعين للملك. ولم يتعرضـــوا لمـــثل هـــذا الالتزام إلا عندما فرض البابا إنوسنت الثالث Innocent ضريبة على دخولهم بدأت بواحد على أربعين من الدخل عام ١١٩٩، غير أن هذه الضـــريبة لقيـــت معارضـــة شديدة من جانبهم، حتى اضطر فى عام ١٢١٣ إلى الإحجـــام عـــن الاســـتمرار فى فرضها، غير أنه عاد فى عام ١٢١٥ إلى تجديدها ثانية، وحددها بواحد على عشرين من دخول رجال الاكليروس عامة[٣٥].

---

(32) COUNTESS MATILDA gives all her lands to the church 1102

(33) Barraxlough (G.), The Origins of Modern Gemany, Oxford, 1947 , p. 129

(24) Thompson (J.) & Johnson (E.), An introduction to Medieval Europe, New York, 1965, p.394

(35) INNOCENT III begins the taxation of the Church for the Cruades, 31 December 1199; INNOCENT III Legislates at the fourth Lateran Council for the fifth Crusade, 30 November 1215

ومن أطرف ما يمكن أن يذكر هنا في هذا المجال، أن مسودة الاتفاق الذى انتهى إليه أمر المفاوضات التى دارت بين الامبراطور هنرى الخامس والبابا باسكال الثانى سنة ١١١١ تضمنت اعتراف البابا بالتنازل عن الأراضى والحقوق الإقطاعية التى حصلت عليها الكنيسة منذ أيام شارلمان حتى تاريخه[٣٦]، و"تحرم على أى أسقف أو كاهن، مقيدين إياه بقيود اللعنة، أن يمتلك أى شئ من تلك الامتيازات فى المدن والدوقيات والماركيات والكونتيات، وكذلك دور الضرب والأسواق والمكوس ومكاتب المحاماة والضياع التى تتعلق بالإمبراطورية، وكل ما يتصل بهذه الأمور، وكذلك امتلاك القلاع وأداء الخدمة العسكرية. ومن الآن فصاعدا لن يتمسك رجال الاكليروس بأى من هذه الأمور، إلا بناء على رغبة الملك .. ذلك أنه من الضرورى أن يتطهر الأساقفة من كل الأعباء الدنيوية، وأن يكرسوا كل وقتهم لرعاية شعب الكنيسة، وأن لا يتغيبوا طويلا عن كنائسهم، أو لم يقل بولس الرسول ".. لأنهم يسهرون لأجل نفوسكم كأنهم سوف يعطون حسابا (الرسالة إلى العبرانيين ١٣/١٧)".

وأقوال باسكال الثانى هذا اعتراف صريح بالحال الذى وصل إليه رجال الدين فى القرن الثانى عشر الميلادى، القرن الزاهر للحركة الصليبية وهى فى عنفوانها، فقد تحولوا من رجال اكليروس إلى رجال أعمال وتجار ومحامين وجنود عسكريين، ومالكى مناطق جمركية ودور للضرب وأسواقا، ومصالح وظيفية واقتصادية فى المدن والدوقيات والكونتيات والقلاع. بتعبير آخر أن الرعاية الروحية أمست لديهم فقط مجرد رداء كهنوتى يحمل فى أكمامه كل هذه المصالح الدنيوية. وباسكال الثانى يفتتح اعترافه هذا بقوله، "الكهان جميعهم ممنوعون — بمقتضى الكتاب المقدس والقوانين الكنسية من أن يشغلوا أنفسهم بالشئون الدنيوية".

نقول إن الطريف هنا هو أن الأساقفة جميعا رفضوا الموافقة على هذا المشروع ، فقد كان معناه أن يفقدوا كل ما كان لهم من ممتلكات وضياع وثروة وبالتالى الجاه والنفوذ، ومن ثم يعود بهم الحال حيث أراد بولس الرسول "فإن كان

---

(36) PASCHAL II, The first Privilege Which he grated to Henry V, February 12, 1111

لكـم محـــاكم فى أمور هذه الحياة فأجلسوا المحتقرين فى الكنيسة قضاة" (الرسالة الأولـــى إلى أهل كورنثوس ٦/٤) وهو ما نبه إليه باسكال الثانى فى هذه الاتفاقية المقــترحة. وأعلــن الأســاقفة الألمان والإيطاليون المحتشدون فى كنيسة القديس بطــرس بروما عصيانهم وتمردهم على كل ما جاء فى مشروع الاتفاق هذا[٣٧] فقد ولـــت الكنيسة ظهرها للبساطة منذ قرون طويلة، وأصبحت الآن والبابا على رأسها ركنا أساسيا من أركان النظام الإقطاعى، والبابا على قمته مشاركا الملوك فى ذلك، وكان باسكال الثانى يمثل بمشروعه نغمة شاذة وسط هذا اللحن الإقطاعى الذى لابد أن يظل البابا وإكليروسه يعزفون عليه حتى تصفق له السلطة الزمنية وهى كارهة.

مـــن هـــنا كـــان أوربان الثانى واعيا تماما لما يفعله عندما وجه خطابه إلى الأمـــراء فى كليرمونت، وبعث من بعد برسائله العديدة إليهم، وغض الطرف تماما بشـــكل عمدى عن الملوك، وجعل من نفسه ــ كما فعل سلفه. جريجورى السابع ـ سيدا إقطاعيا ينافس الملوك سلطانهم الزمنى فى ظل النظام الإقطاعى، واستند بهذه الطريقة إلى قاعدة إقطاعية عريضة من كبار الأمراء، ليجرد خصومه الزمنيين من ســلاحهم الأساســى الذى يعتمدون عليه، نعنى الأمراء. ومن ثم كانت الدعوة التى وجهـــت من كليرمونت لحمل الصليب والاتجاه إلى الشرق لحرب المسلمين، تعنى صــراحة ـ كمــا أســلفنا إعلانا للحرب على السلطة الزمنية فى أوروبا ممثلة فى الملــوك والإمــبراطور الرومانى ملك ألمانيا. وكان هذا واضحا تماما فى السياسة التى اتبعها أوربان الثانى تجاه ملوك أوروبا المعاصرين لهذه الدعوة.

ففـــى ألمانيا كان هناك الإمبراطور هنرى الرابع، صاحب الملحمة الشهيرة مــع الــبابوية، والذى لم يغفر لها أبدا إذلالها له فى كانوسا Canossa عام ١٠٧٧ ذلك الإذلال الذى أصبح مضرب الأمثال من بعد فيقال: "أذل من كانوسا". ولم تغفر لـــه هـــى مهانتها التى عانتها على يديه طيلة ثلاث سنوات سويا (١٠٨١-١٠٨٤) عــندما راح يمـــتع ناظريه وهو يرى البابا جريجورى السابع أسير حصاره داخل

---

(٣٧) راجــع تفاصــيل ما دار فى كنيسة القديس بطرس فى ٢٢ فبراير سنة ١١١١ عند، سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، الجزء الأول، ص٣٦٤-٣٦٥

رومـــا لا يستطيع منها حراكا. فلما ارتحل عنها مع حلفائه النورمان جنوبا لم يكن يعـــدو أيضـــا أسـير هؤلاء الحلفاء حتى مات عام ١٠٨٥ ولذا راح أوربان الثانى يؤلـب علـيه ولده كونراد سنة ١٠٩٣، وجاء باسكال الثانى ليثير ضده ابنه هنرى (الخامس فيما بعد) سنة ١١٠٤.

أما إنجلترا فكان على عرشها آنذاك وليم الثانى روفوس (الأحمر) William II Ruffs (١٠٨٧ - ١١٠٠)، ولـم تكن علاقته بالكنيسة الرومانية تختلف عن تلك الـتى وضـع قواعدهـا أبوه وليم الفاتح، الذى رفض أى صورة فى صور التبعية للبابوية، خاصة اعتبار إنجلترا إقطاعيا بابويا، وضرب عرض الحائط بالمساعدات الـتى قدمهـا له جريجورى السابع فى أول عهده. وأضاف وليم روفوس (الأحمر) إلـى ذلك إثقال الكنيسة فى إنجلترا بالضرائب الباهظة، ولم يلتفت مطلقا إلى برامج الإصــلاح الكنسى التى كانت ترفض التقليد العلمانى، فأخذ يعين الأساقفة ويعزلهم، وفـى نوبـة من نوبات المرض والخوف من الموت أقدم على تعيين القديس أنسلم Anselm رئيسا لأساقفة كانتربورى Canterbury، فلما عادت إليه حيويته اختلف مع أنسلم واضطره إلى الرحيل عن انجلترا[٣٨].

وعلـى الشاطئ المقابل كان العرش الفرنسى يحمل فوق كرسيه الملك فيليب الأول Philip I (١٠٦٠ - ١١٠٨)، وخـلال عهـده الطويل الذى قارب الخمسين عامـا سارت العلاقات بين فرنسا والبابوية من سيء إلى أسوأ، ذلك أن فيليب أصم أذنـيه تمامـا أمـام حـركة الإصلاح الكلونى، والإجراءات الجريجورية الخاصة بالسيمونية والتى كان فيليب الأول يمارسها علانية مصعرا خده لكل التهديدات التى وجههـا إلـيه بـابوات عهده الطويل![٣٩] ولقد جر عليه ذلك بالإضافة إلى مناوءته المستمرة وتحديه للمراسيم البابوية، غضب البابا جريجورى السابع، ذلك أن فيليب، شـأنه شأن ملوك زمانه جميعا، يؤمن أن سيطرة الملك الفرنسى على كل الأساقفة تمـثل حجر الزاوية بالنسبة للملكية الفرنسية، خاصة أن الأساقفة ورؤساء الأساقفة

(38) Barlow (F.), The feudal Kingdom of England 1042-1216, London, 1974, pp.156-161

(39) Ullmann, A short history of the Papxy, p. 150

كانوا يسيطرون على مساحات واسعة تفوق أراضى الملك أحيانا، ولقد اعتقد فيليب الأول، ولـم يكـن ذلك بعيدا عن الصواب، كما اعتقد وليم الفاتح وسميه الثانى فى إنجلـترا، وملوك ألمانيا جميعا، أن إذعانه للسيادة البابوية سوف يقضى على مكانته وسيادته بشكل لا يمكن معه استعادتهما بعد ذلك مطلقا.

وإزاء هـذه السياسة التى كان يمارسها فيليب الأول، كان المجمع الذى عقد فـى بياكنزا Piaxenza فى مارس ١٠٩٥ فى شمال إيطاليا، قد اتخذ عدة قرارات ضـد السـيمونية وزواج رجال الدين، إلا أن البابا تدخل شخصيا حتى يمنع اتخاذ قـرار ضد فيليب الممارس العام لهذه الأمور، إلى أن يتمكن البابا من زيارة فرنسا مـن بعد(٤٠) وهو ما حدث بعد ذلك بقليل عند عقد مجمع كليرمونت، ولذا كان على فيليـب أن يقـف موقف المتفرج الذى ينتظر قرارا بالحرمان الكنسى وهو يشاهد أوربان الثانى يدعو لخروج الحملة الصليبية الأولى من فوق الأرض الفرنسية، ولا يستطيع المحروم أو من هو فى موقعه أن يحمل الصليب، ولن تقدم البابوية للملكية أى عون إذا حاول مليكها أن يقلد هنرى الرابع أو أن يحذو حذوه(٤١).

هذه هى الحال التى كانت عليها الملكيات الأوروبية الثلاث عشية الدعوة للحملة الصـليبية، وهـى الفرصة السانحة التى لن تجد البابوية توقيتا أكثر مناسبة منها لتنفيذ خطـتها وتحقـيق أهدافهـا فـى الداخل الخارج مجتمعة، فالملوك الثلاثة كانوا ذوى شخصـيات غريـبة، فمـع عدائهـم المشترك للبابوية وقدرتهم على تحدى برنامجها الإصـلاحى، وهـى سـمة سمعت بينهم فى حينها، إلا أنهم فى الوقت ذاته لم يكونوا أيضـا يحظون بتقدير أمرائهم أو أفصالهم فى الداخل لسياستهم العامة الرامية إلى إحكام سـيطرتهم كملـوك يمـثلون رأس النظام الإقطاعى، وهو ما يتعارض مع طبيعة ذلك الـنظام القاضـية بضعف السلطة المركزية وازدياد نفوذ الأمراء ومن ناحية أخرى لم تكـن علاقاتهم مع بعضهم البعض توحى بأى نوع من المودة أو التقارب؛ فالنزاع بين فرنسا وإنجلترا قائم على قدم وساق، يتخذ شكلا قانونيا وأشكالا عسكرية، منذ أقدم وليم

(40) Runciman, Crusades, I, p. 104

(41) Sxott (M.) Medieval Europe, London 1975, p.160

دوق نورمـــاندى، علـــى غـــزو إنجلترا عام ١٠٦٦ وإعلان نفسه ملكا عليها، مع عدم تخليه عن مقاطعته فى فرنسا، وأصبحت القضية من يتبع من ؟! فمن الناحية الإقطاعية كان لابد أن يغدو وليم ومملكته فى إنجلترا تابعين لملك فرنسا باعتباره فصله الإقطاعى ومـــن الناحية الواقعية أصبح وليم ملكا لإنجلترا ودانت له الأراضى الفرنسية التى كان يحكمهـــا بالتبعـــية ومـــن ثم كان لابد أن يقوم النزاع بين الدولتين، وأن يستمر طويلا طويلا خلال العصور الوسطى.

والعلاقة بين فرنسا وألمانيا لم تكن أحسن حالا من قرينتها، فالعداء التقليدى قائم بين المملكتين منذ انسلخت المناطق الألمانية التى كانت تكون الأجزاء الشرقية مـــن إمـــبراطورية شـــارلمان عن السيادة الكارولنجية بعد وفاة آخر أفرادها لويس الطفـــل سنة ٩١١، ومنطقة اللورين تعتبرها ألمانيا أراضى ألمانية بينما يدين دوقها بالتبعية الإقطاعية لملك فرنسا.

ولـــم يكـــن أوربان الثانى بغافل عن كل هذه الأمور، فى الوقت الذى ساقت إلـــيه الظـــروف السياسية فى الإمبراطورية البيزنطية المسوغ الذى يتمناه ليضرب ضـــربته والحديـــدة محمـــاة؛ ذلك أنه فى المجمع الذى عقده فى بياكنزا فى مارس ١٠٩٥، الـــتقى برســـل الإمـــبراطور الكسيسوس كومننوس الذين قدموا لتجنيد ما يمكـــنهم تجنيده من المرتزقة للعمل فى الجيش البيزنطى، وكانت الإمبراطورية قد لجـــأت إلى هذه السياسة بعد هزيمة مانزكرت سنة ١٠٧١، وراح الكسيوس يجيش جيوشـــه مـــن أعداد كبيرة من المقاتلين الأوربيين خاصة الإنجليز الذين تم تسريح جيوشـــهم بعـــد دخول النورمان إلى إنجلترا بقيادة وليم الفاتح، بالإضافة إلى بعض عناصـــر البوشـــناق Petchenegs وقـــبائل الاســـتبس الذين عرفوا بـــ "الورنك" Varangian، وعـــرف الطـــريق الذى يسلكونه من أقصى شمال غرب أوروبا إلى القســـطنطينية بالتسمية نفسها، وأصبحت هذه القوات تشكل الحرس الإمبراطورى، القـــوة الضاربة فى الجيش البيزنطى. وقد لجأ الكسيوس إلى الأسلوب نفسه فى بناء بحريـــته، إذ عهد إلى جمهورية البندقية بإنشاء أسطوله فى مقابل امتيازات تجارية هائلة فى الموانئ البيزنطية العاصمة الإمبراطورية.

وقـــد أحسن البابا أوربان الثانى استقبال الوفد، وأصغى إليه باهتمام زائد، بل ودعـــا مندوبى الإمبراطور للحديث مباشرة إلى حضور المجمع. ومع أن شيئا من حديـــثهم لـــم يـــبق لـــنا، إلا أنه من المتوقع أن يكون قد دار حول ما يتعرض له المســـيحيون الشرقيون فى الشرق من ويلات، وهو ما استخدمه البابا بعد ذلك فى كليرمونت، وضرورة دفاعهم عن الإمبراطورية باعتبارها درع المسيحية الشرقى. وقد ترك ذلك الحديث تأثيره البعيد فى نفوس السامعين إلا أن أحدا لم يحرك ساكنا، وإن كان الأمل يحدوهم فى أن ينفر بعض رعاياهم للاشتراك مع إخوانهم الشرقيين فـــى حمايـــة المسيحية[42] . غير أن أوربان الثانى أسرها فى نفسه ولم يبدها لهم، واســـتدعى مـــن الذاكـــرة ذلـــك المشـــروع الضخم الذى كان قد عزم عليه سلفه جـــريجورى الســـابع وذلك بقيادة حملة صليبية، أو بتعبير آخر القيام بحرب مقدسة باتجـــاه الشرق، يقودها بنفسه، وراح أوربان الثانى يقلب الأمر على كافة وجوهه، وطـــوال ســـبعة أشـــهر وعدة أيام حتى كليرمونت، حمل رحم فكره جنين "حرب مقدســـة" يشـــنها على أعداء الكنيسة فى داخل أوروبا وخارجها، فيتحقق بذلك كل آمـــال الـــبابوية العراض فى قهر السلطة الزمنية، والسيادة على الكنيسة الشرقية، والزعامة فى عالم المسيحية فيضرب بذلك عصافير ثلاثة بحجر واحد.

وكـــان الـــبابا يعلـــم جيدا أن فرنسا سوف تكون التربة الصالحة فى أوروبا للتبشير بدعوته، فالرجل كان فرنسيا ويدرك تماما الأحوال الاقتصادية والاجتماعية الـــتى يـــتردى فـــيها المجـــتمع الفرنســـى، بالإضافة إلى أن فرنسا تعد أشد الدول الأوروبـــية تعصبا للكاثوليكية، باعتبارها أسبق الممالك الجرمانية التى اعتنقتها منذ أواخر القرن الخامس الميلادى والسنوات الأولى من القرن السادس على عهد ملكها كلوفيس Clovis ، لذا أقنع المؤتمرين فى بياكنزا بتأجيل اتخاذ قرار بالحرمان ضد فيليـــب الأول ملـــك فرنسا، حتى لا ينتقل الحرمان بالتالى إلى رعيته فلا يستطيع

---

(42) Vasiliev (A.A.), A history of the Byzantine Empire, Madison and Milwaukee, 1964 vols, v.I, pp. 401-402 وأيضـــا Runciman, Crusades, I, pp. 104-105 and Setton. Crusades, I, pp. 228-229 وراجع أيضا – سعيد عاشور الحركة الصليبية، جزءان القاهرة ١٩٦٣، الجزء الأول، ص١٣١–١٣٢

الفرنسيون تلبية دعوته، هذا من ناحية، ومن الأخرى كان يريد أن يبقى على خيط رفيع بينه وبين فيليب يمكنه من خلاله أن يستتيبه ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وإن لم يفلح فيما كان يبتغيه.

وإذا كانت البابوية قد شهرت سلاح الأمراء فى وجه السلطة الزمنية، ونجحت فى ذلك إلى حد كبير جدا طيلة نصف القرن الأول من عمر الحركة الصليبية الذى امتد قرنين من الزمان، فإنها غيرت خططها من بعد تغييرا جذريا، وقلبتها رأسا على عقب، حيث أضحت الحملات الصليبية التالية كلها، باستثناء الرابعة، حملات ملوك. ويمثل القدر الذى تحقق للبابوية فى الدور الأول من الحروب الصليبية بالاعتماد على الأمراء دون الملوك، واستخدامهم سلاحا ضد سادتهم الإقطاعيين - الملوك، أصحاب السلطة الزمنية، نجحت البابوية فى الدور الثانى من أدوار هذه الحرب التى تنعتها بـ "المقدسة" نجاحا منقطع النظير، بينما فشل الملوك فشلا ذريعا فى مواجهة السلطة البابوية المتزايدة على امتداد ما يزيد على مائة وخمسين عاما تالية إلى ما بعد منتصف القرن الثالث عشر الميلادى.

وهذا الأمر يبدو واضحا حتى من مجرد الاستقراء السريع لحادثات الزمان خلال تلك الفترة؛ فالنجاح الوحيد الذى تحقق للصليبيين فى الشرق كان ما تم على يد جنود الحملة الأولى التى تكونت كلها من أمراء أوروبا، وتمثل ذلك فى تكوين الإمارات الصليبية فى الرها وأنطاكية وطرابلس ومملكة بيت المقدس، على حين أخذ الفشل يطارد الملوك فى كل حملاتهم الآتية من بعد باتجاه الشام أو مصر! حتى إذا أفلحت إحداها وهى السادسة، والتى لا يمكن أن نعتبرها حملة بالمعنى العسكرى الصليبى للحملات، وحقق قائدها فردريك الثانى بالمفاوضات ما فشل فيه الملوك بالحرب، أعلنت البابوية براءتها مما فعل، ووصمته بالهرطقة والتجديف، وحرمته من رحمة الكنيسة، وقيدته بقيود اللعنة، وألبت عليه أوروبا كلها، ولم تزل به وبأبنائه وبأحفاده حتى أودعتهم جميعا بطن الثرى!!

والأدهى والأمر من ذلك فيما يتعلق بالقضية الصليبية فى الشرق، أن البابوية - وقد تملك عليها الفزع كل سبيل - راحت تخاطب ملوك بنى أيوب فى

الشام تنفر إليهم شخص فردريك الثانى، وتكتب إلى الكامل الأيوبى فى مصر تطلب إليه عدم تسليم بيت المقدس إلى الإمبراطور ويعلق "كانتروفتش[٤٣]" Ernst Kantorowicz على ذلك بقوله: "إن البابا قد انحط إلى هذا الدرك نتيجة اقتناعه أن أى نجاح يحققه ذلك الإمبراطور المحروم سوف يعنى أن حكم الله ليس فى صالح البابوية!! وهذه الحقيقة لم تفت على المؤرخ الإسلامى ابن واصل[٤٤] الذى ذكر أن البابا كان يكن كراهية ومقتا شديدين لفردريك وبنيه، وإن كان قد علل ذلك بميلهم إلى المسلمين، ويقول المؤرخ الألمانى "هانز ابرهارد ماير" H.E. Mayer فى كتاب "تاريخ الحروب الصليبية" كانت مشاركة فردريك الثانى فى الحركة الصليبية تمثل خطرا جسيما على البابوية .. ومن ثم فقد فعل جريجورى التاسع كل ما من شأنه الحيلولة دون نجاح هذه الحملة الصليبية.

هذه الأحداث تفرض على الباحث سؤالا لا مندوحة من طرحه، هل كانت البابوية سعيدة بالإخفاق الذى أصاب الملوك فى حملاتهم الصليبية إلى الشرق؟ أم تراها كانت تضمر فى نفسها تجاههم أمنيات لهم بالفشل حتى ولو كان ذلك على حساب الحركة نفسها؟

أما الأخيرة - فهذه لا سبيل إلى الشك مطلقا فى وجودها من واقع موقفها إزاء فردريك الثانى. ولم يكن هذا هو المثال الوحيد الصارخ لسياسة البابوية تجاه السلطة الزمنية، فسوف نلقى من بعد أمثلة كثيرة على ذلك. ويقول "كانتروفتش" بالحرف الواحد "لقد كان أى نجاح يحققه الإمبراطور يمثل أسوأ كارثة يمكن أن يتوقعها البابا"[٤٥]، وذلك أن الحركة الصليبية لم تعد سوى مجرد ورقة فى يد البابوية ضمن أوراق اللعبة السياسية التى تلعبها[٤٦]، بعد أن فقدت صفتها الروحية منذ زمن ليس بالقصير!

---

(43) Frederick the Second, London 1931, p.184

(٤٤) مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، الجزء الرابع تحقيق حسنين محمد ربيع، القاهرة ١٩٧٣ ص ٢٤٨-٢٥١

(45) Frederick the Second, p. 187

(٤٦) زابوروف (ميخائيل)، الصليبيون فى الشرق، موسكة ١٩٨٦، ص٣٠٢

أمــا أن الــبابوية كانت سعيدة بما حاق بحملات الملوك من فشل، فذاك شئ يحــتاج إلــى وقفة طويلة نتدارس فيها كيف سارت العلاقات بين البابوات والملوك مــنذ منتصــف القرن الثانى عشر، أى منذ تولى الملوك قيادة الحملات الصليبية، وكــيف حرصــت البابوية على أن تستغل خروج هذه الحملات لبلوغ كل أهدافها السياسية التى كانت تسعى إلى تحقيقها.

لقــد قــر فى ذهن البابوية منذ زمان بعيد يعود إلى القرنين الرابع والخامس الميلاديــن، ودنت قطوفه فى القرن الحادى عشر أيام البابا جريجورى السابع، أن الله يدبــر أمــور هــذا العالم عن طريق الأقنوم الثانى فى الثالوث، المسيح، الذى يتصــرف فيه كيف يشاء بواسطة بطرس، الذى يحرك كل شئونه من خلال البابا، الــذى لــم يعد منذ عهد انوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦) مجرد خليفة بطرس، بل نائــب المســيح Vicarius Christi علــى الأرض، بمقتضى نظريته عن الشمس والقمــر، البابوية والإمبراطورية. وآمنت البابوية إيمانا لا يتطرق إليه شك أنه وفقا لذلــك لابد أن يكون هناك سيد واحد لهذا العام لا يشرك فى حكمه أحدا، وأن البابا هــو ممــثل هذا السيد على الأرض، وأن الصلاح كل الصلاح فى الخضوع تماما لهــذا الــبابا، طــريقا إلى ملكوت السماوات ورفقة المسيح. ومن ثم فإن أى سلطة أخــرى تــرى فى نفسها القدرة أو تساورها الرغبة فى أن تنافس البابوية أو تتولى عمــلا من أعمالها، تضع نفسها خارج الشرعية وتحل بها اللعنة وتطاردها قرارات الحرمان الكنسى، وبالتالى فإن أى نجاح يمكن أن تحققه هذه السلطة الأخرى، وهى هنا بالطبع السلطة الزمنية، يعد تحديا صارخا للسلطة الروحية، التى هى دون شك البابوية. ولذا كان أمرا منطقيا أن تعلن البابوية رضاءها التام عن حملتى الأمراء، الأولــى والرابعة، وأن تقف موقفا مغايرا تماما أيضا من حملات الملوك، بل وأن تضع العراقيل فى وجه بعض منها، وأن تضحك فى كمها سعيدة بما تحقق من فشل لهذه وغيرها!!

كــان الأسلوب الذى لجأت إليه البابوية فى هذه المرحلة الجديدة من مراحل الحركة الصليبية، هو أسلوب الغزل السياسى الذى راحت تلاعب به ملوك أوروبا،

فتتودد إلى هذا وتهجر ذاك، وتؤثر واحد بقربها وترى الآخر عين الجفاء!! ففى عام ١١٤٤ تمكن المسلمون بزعامة عماد الدين زنكى أتابك الموصل من استرداد إمارة الرها، التى كانت رأس جسر غرس فى جسم العالم الإسلامى، وكان رد الفعل الأوروبى إزاء ذلك عنيفا بحكم المكانة الدينية التى تحتلها الرها فى الروايات المسيحية الباكرة(٤٧). وتولى القديس برنارد St. Bernard مقدم دير كليرفو Clairvaux الدعوة لحملة صليبية جديدة بتوجيه من البابوية لاسترداد المدينة(٤٨) حتى خلت قرى كثيرة من سكانها، وهى التى عرفت بالحملة الصليبية الثانية.

وقد وجدت البابوية نفسها عند الدعوة لهذه الحملة فى موقف لا تحسد عليه، وكان عليها أن توزع أوراق لعبتها الساسية بذكاء شديد حتى لا تخسر شيئا؛ فإنجلترا كانت تطحنها آنذاك الحرب الأهلية التى دارت حول العرش بعد وفاة ملكها هنرى الأول فى عام ١١٣٥ ولم يكن هو نفسه على وفاق مع الكنيسة جريا على سياسة سلفيه وليم الأول الفاتح وسميه الثانى، وكان اصرار القديس أنسلم Anselm أسقف كانتربورى على استقلال الكنيسة والأراضى التابعة لها عن سلطان الملكية أمرا يرفضه ملوك إنجلترا. وقد استمرت الحرب الأهلية التى أعقبت وفاة هنرى تسعة عشر عاما (١١٣٥-١١٥٤) بين كل من ماتيلدا Matilda ابنه هنرى زوجة كونت انجو Anjou وأنصارها من ناحية، وستفن Stephen كونت بلوا Balois ابن أخ هنرى من ناحية أخرى وإذا كان ستفن قد تمكن من

---

(٤٧) ترتبط مدينة الرها فى ذاكرة المسيحيين دائما بعلاقتها المبكرة مع المسيحية، وبما فيها من آثار القديسين ومن هذه الروايات أن الرجال الأربعة المجوس الذين قدموا على المسيح ليلة مولده مهتدين بنجم فى السماء، قدموا من الرها! ومنها أيضا أن أبجار Abgar ملك الرها كتب إلى المسيح يطلب إليه – وقد علم بالمعجزات التى جرت على يديه أن يبرئه من مرضه فكان من بين ما بعث به المسيح إليه – على ما تذكر الأسطورة – منديلا Mandilon طبع عليه وجه المسيح عندما جفف به ذات يوم عرقه! وقد عاشت – الأساطير حول هذا المنديل وقدرته على شفاء المرض واتيان المعجزات. وقد قام القائد البيزنطى يوحنا كوركواس بنقل هذا المنديل فى سنة ٩٤٤ من الرها إلى القسطنطينية فى موكب مهيب. راجع، هسى (ج.ك.)، والعالم البيزنطى ترجمة رأفت عبد الحميد، ص١٤٥-١٤٦، حاشية رقم ١٥.

(48) Runciman, Crusades, I, pp. 251-256

السيادة على إنجلترا طوال فترة الحرب الأهلية، إلا أن النجاح فى النهاية كان من نصيب هنرى الثانى الذى كان كونتا لأنجو(٤٩).

أما فى صقلية فإن روجر الثانى Roger II أفلح فى توحيد النورمان جميعا فى جنوب إيطاليا وأعلن نفسه ملكا فى عام ١١٣٠، وكان هذا فى حد ذاته سلوكا غير ودى تجاه البابوية(٥٠) التى كانت تعتبر صقلية إقطاعا تابعا لها وملكها فصلا يدين بالولاء للجالس على عرش القديس بطرس، كما أن روجر نفسه لم يبد أى مظهر من مظاهر الطاعة أو التوقير تجاه البابوية ومن ثم لم تكن البابوية على استعداد لإبداء أى ترحيب به عندما أعلن عزمه على حمل الصليب مشاركا فى الحملة الصليبية الثانية.

وقد وجدت البابوية الفرصة سانحة لتأكيد سيادتها فوق الجميع، مستغلة ظروف الدعوة لهذه الحملة الجديدة؛ فبينما نجدها تبدى بصورة ما امتعاضها من تصرفات النورمان فى الجنوب الإيطالى تحت زعامة روجر، كانت فى الوقت نفسه قد أدخلت فى روع الملك الألمانى لوثير Lothair (١١٢٥-١١٣٧) وخليفته - الجالس الآن على العرش - كونراد الثالث Conrad III (١١٣٧-١١٢٥) عن طريق المتحدث باسمها القديس برنارد، أن أى شخص يعلن من نفسه ملكا على صقلية، يكون قد أعلن بذلك هجومه على الإمبراطور(٥١) وكان هذا فى جوهره يعنى استعداء ملوك ألمانيا - باعتبارهم الأباطرة الرومان - على ملك صقلية روجر الثانى. وهذه قضية لم يكن الأباطرة الرومان فى ألمانيا فى حاجة إلى من يغذيها لديهم. غير أن كونراد كان عازفا عن الدخول فى المشكلة الإيطالية التى كانت جرحا داميا فى جسم ألمانيا ظل ينزف طيلة العصور الوسطى(٥٢). هذا بالإضافة إلى أن نفوذ البابا يوجنيوس الثالث Eugenius III (١١٤٥-١١٥٣) لم يكن مستقرا فى روما، من جراء الثورة التى أشعلها أرنولد البريشى Arnold of

---

(49) Barlow, Kingdom of England, pp. 201-234

(50) Haskins (Ch.H.), The Normans in European history, New York 1966, pp. 210-211

(51) Runciman, Crusades, II, p. 251

(٥٢) لمزيد من التفاصيل عن هذه المشكلة راجع الفصل الثالث.

Brescia وأعلـن بهـا مدينة روما قومونا مستقلا، واضطر البابا إلى الهروب من المدينة فى عام ١١٤٧.

وفى ظل هذه الظروف دعت البابوية كونراد الثالث للقيام بحملة صليبية، لا إلـى الشـرق بل إلى إيطاليا لاخماد الثورة المشتعلة فيها، وإعادة البابا إلى كرسيه الأسـقفى، والتصـدى لـتهديدات الـنورمان فى الجنوب، مغازلة كونراد باللقب الإمبراطورى، الذى جرى وراء سحره كل ملوك ألمانيا، لكن كونراد كان فى شغل عـن ذلـك بالصـراعات الداخلـية فـى ألمانـيا بينه باعتباره أول ملوك أسرة الهوهنشـتاوفن، وبيـن هـنرى الأسـد زعـيم عائلة الولفيين Welfs المنافسين التقليديـين،وأدرك أن الذهاب إلى إيطاليا يعنى الغرق فى مستنقع كبير لا سبيل إلى الخـروج مـنه، خاصة إذا فتح على نفسه باب الصراع مع النورمان. لذا كان هو الوحيد من بين ملوك ألمانيا منذ أوتو الأول (٩٦٢) حتى وفـاة فردريـك الثانـى (١٢٥٠) الذى لم يحمل لقب الإمبراطور. وآثر ذلك، كما آثر المشاركة فى الحملة الصـليبية المـتجهة إلـى الشرق لاسترداد الرها، على القيام بحملة صليبية داخلية توجهها البابوية لخدمة مصالحها الخاصة جدا.

واستشـعرت البابوية الخطر من قيام حملة صليبية إلى الشرق يتزعمها ملك علمانى دون دعوة منها ودون مباركة لها من جانبها، فسارع يوجنيوس الثالث إلى مراسلة لويس السابع Louis VII ملك فرنسا منصبا إياه قائدا عاما للحملة الصليبية المنـتظرة مذكـرا بماضى الأسلاف المجيد، مثنيا على شجاعة فرسان الفرنجة فى الحملـة الأولـى" ... إن كثيريـن عبر جبال الألب، خاصة فرسان فرنسا الأشداء وقـرنائهم الإيطاليين، استجابة لنداء سلفنا طيب الذكر أوربان الثانى، قد التقوا على المحـبة وكونوا جيشا ضخما واستردوا تلك المدينة المقدسة .. وبنعمة الله وحماسة آبـائك الذيـن جـاهدوا لإعلاء كلمة المسيح على الأرض، سادت المسيحية على مناطق واسعة بعد أن تم تخليصها من سيطرة الوثنيين"(٥٣).

---

(53) EUGENIUS III, Letter to king Louis VII of France and his Subjects, proclaims the Second Crusade on God's Behalf, 1 March 1146

وقـــد رحـــب لويـــس الســـابع بهذه الدعوة واعتبرها تكريما له دون بقية ملوك أوروبا، وكانت نفسه مهيأة لذلك تماما تحت تأثير القديس برنارذ، وشوجر Suger مقدم ديـــر القديـــس دنى St. Denis، والذى كان مستشارا للملك ولأبيه من قبل، واعتبرها أيضـــا فرصة للتكفير عن الخطيئة التى ارتكبها باحراق كنيسة فترى Vitry فى مقاطعة شـــمبانى Champagne عام ١١٤٧ وبها جموع كثيرة من المصلين ومن ثم فإنه ما أن أعلـــن كونـــراد الثالث عزمه على قيادة جيشه حاملا الصليب حتى قابلت البابوية ذلك بـــبرود كامل، ورفض يوجنيوس الثالث طلب كونراد بالسماح له بلقائه فى الثامن عشر مـــن أبـــريل ١١٤٧ فـــى ستراسبورج Strassburg وغادر الملك الألمانى بلاده دون الحصـــول علـــى مباركة البابا له أو لحملته، بينما التقى مع لويس السابع وباركه خلال الأيـــام الأولى من أبريل(٥٤). وهكذا فى وقت واحد قرب إليه ملك فرنسا، وأعرض عن ملك ألمانيا، وأظهر استياءه البالغ بل وعداءه للملك النورمانى روجر الثانى فى صقلية. لاغرو إذن أن كانت السياسة البابوية سببا فى زيادة الجفاء بين ملكى فرنسا وألمانيا قبل أن تخـــرج الحملـــة مـــن أوروبـــا، بالإضافة إلى العداء التقليدى بين الشعبين الفرنسى والألمـــانى، علـــى هـــذا النحو ساهمت البابوية بنصيب كبير جدا فى الفشل الذى لحق بالحملـــة الثانـــية فى بلاد الشام، عن طريق سياستها الصليبية التى بذرت بذور الفرقة والانقســـام بين قائدى الحملة منذ اليوم الأول لها، فخرج كل منهما بمفرده يقود جيوشه ودب بينهما الخلف فى الشرق، وعاد كل منهما وحده يجر أذيال الخيبة والانكسار!

وتعلـــيقا علـــى ذلك يقول المؤرخ "زابوروف"، "هكذا قدمت الحملة الصليبية الثانـــية البرهان الجلى على غياب الوحدة بين الغزاة الإقطاعيين الغربيين، وأخذت الاعتـــبارات الدينية .. تفقد أهميتها أكثر فأكثر، حتى تذمر مدونوالأخبار فى القرن الثانى عشر من ضعف الحماسة الدينية إبان الحملة الصليبية الثانية، ولم تحمل هذه الحملة أكاليل الغار إلى الكنيسة الكاثوليكية. ثم إن التناقضـــات التى تفاقمت بين دول أوروبـــا الغربـــية بسبب التطلعات والمطامع التوسعية فى منطقة البحر المتوسط، أخـــذت تعـــارض بعضها بعضا .. وأسهم انعدام الوفاق والوئام بين زعماء الحملة

(54) Runciman, Crusades, I, p.257

وخلافـــاتهم مع بارونات بلاد الشام بقسط كبير في فشل الحملة الصليبية الثانية(٥٥).
وإذا كانـــت الـــبابوية لـــم تحقق نجاحا سياسيا في الشرق، بسبب الفشل العسكري للحملــــة، إلا أنهــــا احتفظت لنفسها بالمكانة في أوروبا، بقدرتها على تحريك ملوك أوروبـــا وجيوشها باتجاه الشرق في حرب صليبية كانت هي الوحيدة التي خرجت منها فائزة!

وللمـــرة الثانـــية تمـــارس البابوية الدور نفسه بعد أن روعتها أنباء استرداد المســـلمين للقدس على يد صلاح الدين الأيوبي، في أعقاب معركة حطين الشهيرة عام ١١٨٧، فمات البابا المسن أوربان الثالث كمدا في ٢٠ أكتوبر من العام نفسه، ولـــم يلبث أن لحق به خلفه جريجوري الثامن في ديسمبر، بعد أن قام بتوجيه دعوة عامـــة إلـــى "كل المؤمنين في الغرب" يستثير فيهم حماسة مسيحية كانت قد خبت، ويعدهم وعدا حسنا بالغفران في الآخرة، وحماية ما يملكون في الدنيا أثناء رحلتهم، غير أن القدر لم يمهله حتى يرى قطوف دعوته.

وكان قد مضى الآن على الحملة الصليبية الثانية أربعون عاما، شهدت فيها أوروبا تغييرات جذرية فيما يتعلق بالعلاقة بين البابوية والسلطة الزمنية، إذا أخذت الملكـــيات الأوروبـــية تـــنحوا إلى تدعيم مراكزها في الداخل، يساعدها على ذلك خـــروج الأمراء في الحرب الصليبية وعدم عودة كثير منهم إلى أوروبا ثانية، إما نتـــيجة لمـــوت بعضهم، أو لتفضيل بعض آخر البقاء في الشرق، وكان هذا يعني تحـــول مســـاحات واسعة من الأراضي إلى ملكية التاج ثانية. ورغم أن الكنيسة قد أعلنـــت بعد الحملة الأولى أنها سوف تضع تحت وصايتها كل ما يتعلق بالمحاربين المتجهيـــن إلـــى الشـــرق مؤكدة أن "نساء وأطفال وممتلكات أولئك الذين يحملون الصـــليب دفاعا عن المسيح، سوف يحظون بحماية الكنيسة الرومانية المقدسة منذ حملهـــم الصليب وطوال رحلتهم إلى الشرق ومكثهم هناك وعودتهم أو موتهم"(٥٦)

(٥٥) زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص١٨٦-١٨٧.

(56) EUGENIUS III, Letter to king VII of France:
GREGORY VIII, Summons Christians to repentance and describes the Crusade as a test imposed by God, October – November 1187; GREGORY VIII accords the Church's Protection to the Crusader Hinco of Zerotin 21 October, 17 Decenber 1187

فـــى محاولة منها لطمأنة المحاربين، وفى الوقت نفسه لممارسة سيادتها الإقطاعية إلا أنهـــا لـــم تستطع أن تتصدى للملوك فى ممارسة حقوقهم الإقطاعية أيضا تجاه الأمراء، أفصالهم الإقطاعيين.

يضـــاف إلى ذلك أن هذه الفترة أيضا شهدت ازدياد فى نشأة المدن ونموها وتطورهـــا، وتجلى هذا بصورة واضحة فى شمالى إيطاليا فيما يعرف بمد العصبة اللومباردية، إلى جانب كل من ألمانيا وفرنسا(٥٧)، حتى أن فيليب الثانى أوغسطس ملـــك فرنســـا عهد إلى ستة من تجار باريس برعاية شئون مملكته أثناء غيابه فى الحملـــة الصـــليبية الثالـــثة، وأصبحت المدن تمثل سلاحا تتسابق البابوية والسلطة الزمنية فى استخدامه أثناء صراعهما الطويل، وبينما نجح ملوك فرنسا وإنجلترا فى هذا الاستباق فشل ملوك ألمانيا وتركوا هذا السلاح لتستخدمه البابوية ضدهم خاصة مدن الشمال اللومباردى فى إيطاليا.

وبازدهـــار المدن وازدياد النشاط التجارى وانتشار التعليم والثقافة من جراء الاحـــتكاك بالمســـلمين فى الأندلس وصقلية والشام، ظهرت الجامعات فى أوروبا، واســـتبقت الـــبابوية والملكيات الأوروبية أيضا لاحتضان هذه الجامعة أو تلك(٥٨)، وحظيـــت بعض الجامعات برعاية الكنيسة مثل جامعة باريس التى عملت بدورها علـــى تكـــريس الســـيادة البابوية، على حين نمت جامعة بولونيا فى رعاية السلطة الإمـــبراطورية ودعت بدورها إلى سموها، ومن ثم لعبت الجامعات دورا كبيرا فى التأكيد على مفاهيم معينة فى جانب كل من البابوية أو الإمبراطورية حتى قيل: "إن

(57) Pounds (N.J.G.) An economic history of Medieval Europe, London 1974, pp.223-261; Pirenne (H.), Economic and Social history of Medieval Euorpe, pp. 26-39, 50-57; Hodgett (G.A.J.) Asocial and Economic history of Medieval Europe, London 1972, pp.48-58, 88-105

(٥٨) لمـــزيد مـــن التفاصـــيل عـــن نشـــأة الجامعات ودورها، راجع سعيد عبد الفتاح عاشور، الجامعات الأوروبـــية فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٥٩؛ جوزيف نسيم يوسف، نشأة الجامعات فى العصور الوسطى، الإسكندرية ١٩٧١.

الجامعــة هى إحدى قوى ثلاث سيطرت على الفكر المسيحى ووجهته فى العصور الوسطى، البابوية والإمبراطورية والجامعات"(٥٩).

ونتــيجة لكل ذلك دخل الصراع بين البابوية والإمبراطورية فى طور جديد خــلال القرنيــن الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين، وراح يأخذ صبغة قانونية، وغــدا أبطاله فى المقام الأول من رجال القانون، ففى الجانب الكنسى نرى الراهب جراتــيان Gratian الــبولونى يجمع شتات المجموعات القانونية الخاصة بالكنيسة كالقــرارات المجمعــية والمراســيم الــبابوية وشذرات من مؤلفات الآباء الأولين ومقــتطفات من مجموعة قوانين جوستنيان، وفى هذه الموضوعات أورد جراتيان النصــوص المؤيدة والمعارضة على حدة كأن كلا منها دفاع فى حد ذاته، وعرفت هــذه المجموعــة بـــ "المبادئ" القانونية Decretum وقد صدرت حــوالى عام ١١٤٠(٦٠) وعلــيه فليس من الغريب أن نجد معظم بابوات هذين القرنين من كبار القانونييــن مثل اسكندر الثالث Alexander III (١١٥٩-١١٨١) وإنوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨-١٢١٦) وجــريجورى التاســع Gregory IX (١٢٢٧-١٢٤١) وإنوســنت الــرابع Innocent IV (١٢٤٣-١٢٥٤) وقــد فســرت هذه المجموعــة من بعد من جانب القانونى البولونى باولينوس Paulinus بأن محورها الرئيســى يدور حول وجود إمبراطورية سماوية وأخرى أرضية، واقترح أن تكون الإمــبراطورية الســماوية هــى الاكلــيروس، بينما الإمبراطورية الأرضية تضم العلمانييــن، مؤكــدا أن البابا يمتلك السيادة فوق الإمبراطوريتين معا، الإكليروس والعلمانييــن، أو بتعبــير آخــر - الروحية والزمنية(٦١) وكان هذا تقنينا للنظريات العديدة التى أذاعتها البابوية آنذاك لاثبات سموها وعلو كعبها فوق السلطة الزمنية، مــثل نظرية السيفين الروحى والزمنى، والنظرية البطرسية، وما أصر عليه البابا انوسنت الثالث من نظرية الشمس والقمر.

---

(٥٩) سعيد عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ج ٢ ص١٧٤

(٦٠) كرامــب (ج) وجاكوب (إ) تراث العصور الوسطى، جزءان، ترجمة مجموعة من أساتذة الجامعات المصرية بإشراف محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٦٥، الجزء الثانى، ص٤٦١-٤٦٢

(61) Tierney, Crisis, pp. 98-117

وفـــى الوقت نفسه وجدت الإمبراطورية من ينبرى أيضا للدفاع عن مكانتها فى مواجهة البابوية، وكان من بين هؤلاء رجل القانون الرومانى الأشهر إرنريوس Irnerius الـــذى ارتـــبط اســـمه بجامعـــة بولونيا والتى اكتسبت شهرة واسعة فى الدراســـات القانونـــية، وخلف وراءه مجموعة من التلاميذ المشهورين عرفوا باسم "الدكاتـــرة الأربعـــة" وهم بولجاروس Bulgarus ومارتينوس Maartinus وهوجو Hugo ويعقوب Jacobus(٦٢). وقد حرص الإمبراطور فردريك بربروسا (١١٥٢-١١٩٠) أن يضـــمهم إلـــى هيئة مستشاريه للاستعانة بهم فى تدعيم مركز السيادة الإمبراطورية. وقد أولى هذا الإمبراطور وحفيده وسميه الثانى جامعة بولونيا عناية فائقة، لا باعتبارهم ملوكا لألمانيا بل لكونهم الأباطرة الرومان، وكان هذا فى المقام الأول – على حد تعبير أولمان(٦٣) من أهم العوامل فى ازدهار جامعة بولونيا.

هكـــذا أخـــذ الفكـــر البابوى الصليبى يتخذ أبعادا جديدة فى مواجهة السلطة الزمنـــية التى لم تعدم هى الأخرى مثيلا لهذه الأبعاد، وقرنت البابوية ذلك بأسلوبها العام الذى يقوم على عدم وجود وفاق دائم بين ملوك أوروبا حتى لا يشكلوا ضدها جـــبهة واحدة. وإذا كان لابد من قيام هذه الجبهة الزمنية المتحدة – وهو ما لم تسع إلـــى إيجـــاده مطلقـــا – فلتكن وجهتها إلى الخارج فقط، أى باتجاه الشرق – دون الداخل، وتسخيرها لتحقيق مصالحها الخاصة كلما استطاعت إلى ذلك سبيلا.

وهـــنا عـــندما ألحت الضرورة على توجيه الدعوة لحملة صليبية جديدة بعد عـــودة بيـــت المقدس إلى يد المسلمين، رأينا كيف خاطب جريجورى الثامن "كافة المؤمنيـــن فـــى الغرب" دون أن يخص بالذكر أحدا من الملوك، فلما اعتلى خليفته كلمنـــت Clement III العـــرش البابوى، ولى وجهه مباشرة باتجاه أعظم عواهل أوروبـــا آنـــذاك .. الإمـــبراطور فردريك بربروسا، بينما ترك لجوسياس Josias أسقف صور مهمة لقاء ملكى فرنسا وإنجلترا(٦٤). والذى يلفت الانتباه للوهلة الأولى أن ســـلفه الأسبق يوجينوس الثالث أرسل إلى ملك فرنسا لويس السابع لقيادة حملة

(62) Ullmann (W.), Law and Politics in the Middle Ages, London, 1975, pp.85-98.
(63) Ibid., 85.
(64) Runciman, Crusades, III, p.5.

صـــليبية باتجـــاه الشـــرق - كما علمنا - وأبدى تأففه من مشاركة الملك الألمانى كونـــراد الثالـــث. بيـــنما كلمنت هذا يسارع بدعوة الإمبراطور الرومانى فردريك بربـاروســـا، غاضا الطرف عن كل من ملكى فرنسا وإنجلترا! أليست هذه السياسة الـــبابوية فـــى التودد إلى واحد دون الآخر، والسعى لدى ملك دون غيره بحسابات دقيقة لمصالحها الخاصة فى عالم المسيحية؟! ولننظر كيف ولم كان ذلك؟!

ففـــى فرنســـا كـــان يقوم ملك قوى هو فيليب الثانى أوغسطس Philip II Augustus الـــذى امـــتد حكمه لفترة طويلة من الزمن نجح خلالها فى إقامة ملكية قوية(٦٥) كان من أهم جوانب قوتها أنه شدد قبضته على الكنيسة، وأخذ يعمل جاهدا للحـــد مـــن تدخـــل البابوية فى شئون دولته، وألزم الاكليروس بدفع ما عليهم من ضـــرائب والـــتزامات(٦٦)، هـــذا بالإضـــافة إلى أنه سعى لإقامة علاقات ودية مع فـــردريك بربـاروسا فى عام ١١٨٧، أى قبيل الدعوة للحمة الصليبية الثالثة بأشهر قلائـــل، وكـــان الهدف منها توحيد الجهوذ ضد كبار الأمراء الإقطاعيين. ولم يكن الـــتقارب الألمانى الفرنسى مما يسعد البابوية فى شئ، ورغم أنها سعت بنفسها من بعـــد إلـــى إحياء هذا التقارب ووصلت به إلى مرحلة التحالف بين الملك الفرنسى فيليـــب أوغسطس وسليل أسرة الهوهنشتاوفن، فردريك الثانى المنافس على العرش بدعـــم من البابوية ضد أوتو الرابع دوق برنسويك وابن هنرى الأسد الولفى، الذى كان على عداء كامل مع البابوية!

أمـــا إنجلترا فكان على عرشها هنرى الثانى (١١٥٤-١١٨٩) الذى لم يكن يقـــل عن فيليب أوغسطس قوة وذكاء وطموحا، ولذا نجح هو الآخر فى أن يجعل من الملكية الإنجليزية فى عهده الطويل أيضا ملكية قوية، وتمثل ذلك للوهلة الأولى مـــنذ إقدامـــه فى أول عهده على هدم ألف ومائة وخمس عشرة قلعة عكسرية مرة واحدة، كان الأمراء الإقطاعيون قد أقاموها منتهزين فرصة الحرب الأهلية (١١٣٥-١١٥٤)، مخالفين بذلك النظام الذى كان قد وضعه وليم الأول الفاتح بعدم بناء أى

---

(٦٥) سعيد عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ج١ ص٢٥٩-٢٧٢

(٦٦) نفسه، ص٢٦٩-٢٧٠

قلعة إلا بإذن خاص من الملك، حتى غدت القلاع الإقطاعية كلها فى إنجلترا قلاعا ملكية. وحاول أيضا أن يستعيد نفوذ الملكية على الكنيسة بعد أن تعرض للانتقاص علـــى عهـــد ســـتفن أيام الحرب الأهلية، وأمل فى أن يكون صديقه الحميم توماس بيكيت Thomas Becket الذى عينه أسقفا لكنيسة كانتروبرى، دعما له فى سياسته الكنســـية المســـتقلة الرامـــية إلى التخلص من النفوذ البابوى، غير أن "بيكيت" أخذ الاتجـــاه العكســـى تماما وأثبت أنه ابن مخلص للكنيسة وراعيها البابا وليس لسيده الملـــك الإنجليزى، مما أوجد جفوة واسعة بين الرجلين انتهت فى آخر الأمر بمقتل توماس بيكيت فى مذبح الكنيسة فى التاسع والعشرين من ديسمبر عام ١١٧٠ على يد أربعة من فرسان هنرى الثانى، انتدبوا أنفسهم لمهمة اغتياله بعد أن أبدى سيدهم عدم ارتياحه من معارضته المستمرة له[٦٧]. ورغم أن هنرى أقسم على براءته من دم "بيكيت" ، إلا أنه اضطر فى النهاية إلى تقديم تنازلات مهينة للبابوية وإن حاول بعد ذلك فى سنوات حكمه التالية أن يخفف من غلوائها . حتى إذا مات، خلفه ابنه الباقى على قيد الحياة من بين إخوته الآخرين، ريتشارد الأول Richard I (١١٨٩-١١٩٩) وأعلن على الفور عقب توليه السلطة عزمه على حمل الصليب والاتجاه إلـــى الشرق على مسئوليته الخاصة دون دعوة أو مباركة من البابوية، وهذا ما لا يمكـــن أن تغفـــره الـــبابوية أو تسمح به حتى ولو كان فى ظل الصليب ومن أجل اســـتعادة البيـــت المقـــدس. ولمـــا كان قد أمضى عمره السابق كله دوقا لأكويتين Aquitaine فقـــد غدا غريبا عن إنجلترا، ومن ثم لم يمكث فيها من سنوات حكمه العشـــر إلا ســـنة واحـــدة فقط. ولما كان فى حاجة ملحة إلى الأموال للإنفاق على مشـــروعه الصـــليبى الذى كان متحمسا له تماما، فقد أمسى على استعداد لبيع كل الوظـــائف الإدارية والكنســـية علـــى الســـواء لمـــن يعرض أعلى الأسعار ثمنا للمنصـــب[٦٨] ومن ثم فإنه رغم جسارته التى خلعت عليه لقب "قلب الأسد" The Lionhearted إلا أنه لم يكن يلق قبولا حسنا من البابوية.

---

(٦٧) راجع تفاصيل هذه الأحداث فى Barlow, Kingdom of England., pp.290-304.

(68) Ibid., pp. 353, 355

ولـــم يكـــن الملك الألماني فردريك بربارروسا (١١٢٥-١١٩٠) ليرضى بأن تكـــون دولـــته بـــأقل مـــن الأخريتين، فرنسا وإنجلترا، ولم يكن هو أيضا أقل من معاصريه طموحا وقوة، ولذا سعى ليجعل من ألمانيا في عهده الطويل أقوى الدول الأوروبـــية، ولما كان في الوقت نفسه هو الإمبراطور الروماني فقد حرص تماما على أن يكون هذا اللقب له مدلوله العملي وليس مجرد تاج يزدان به مفرق الملوك الألمـــان. وآمن فردريك إيمانا كاملا بأنه ليس فقط خليفة الأتووين والسكسون، بل قســطنطين وثيودوسيوس وجوستنيان. واتضح ذلك جليا عند إصداره لقانون تنظيم جامعـــة بولونـــيا، إذا أصـــر علـــى أن يوضـــع مرسومه ضمن مجموعة قوانين جوســتنيان(٦٩)، ووجـــد ضالته في القانون الروماني باعتباره امبراطورا رومانيا، وعثر في الدايجستا Digesta على الإجابة الفلسفية التي ترد على المزاعم البابوية، فهي تعطي القانون السيادة الكاملة، وليس للكهانة أو الروح، جاء فيها: "القانون هو الملك لكل شيء – لما هو سماوي ولما هو إنساني، إنه هو الضابط والحاكم والقائد للخـــير والشـــر" وتاه عجبا بمركزه الإمبراطوري بعد أن أوحى إليه رئيس أساقفة مـــيلانو، أن إرادتـــه هـــي القانون(٧٠). بكل هذا لم يكن غريبا أن يوصف فردريك بربارروســـا بأنـــه "هيلدبراند" Hildebrand الإمبراطورية(٧١). ودعم اتجاهاته هذه عندما وقف موقفا متشددا إزاء محاولة البابا هادريان الرابع Hardian IV (١١٥٤-١١٥٩) أن يجعـــل من الإمبراطورية مجرد "إقطاع" BeneficiumBenefici... بـــابوي؛ فلقـــد كانت البابوية تضع في اعتبارها بكل اليقين أنها لم تقصد مطلقا من إقامـــة إمبراطور في الغرب، تحقيق هذا بصورة عملية بحيث يصبح الجالس على العـــرش إمبراطورا رومانيا بكل ما تعنيه الكلمة، وإنما مجرد موظف كبير بدرجة "حـــاكم" يحمـــل فقط لقب "إمبراطور الرومان" وليس "الإمبراطور الروماني"، أي مجرد لقب أجوف لا معنى له.

---

(69) Davis (R.H.G.), A history of Medieval Europe, From Constantine to St. Louis, London, 1957, p. 322; Bryce (J.), The holy Roman Empire, London, 1950, p. 169

(70) Davis, op. Cit. p. 325

(71) Tout (T.F.), The Empire and Papacy, London, 1924, p. 247

وللوقوف علىتفاصيل الصراع البابوي الإمبراطوري، راجع الفصل الأول.

ولم يكن فردريك بالذى يمكن أن يقبل "لعبة" البابوية هذه أو يستسيغها، وكان هذا من بين ما جعل فردريك يخلع لقب "القداسة" على الإمبراطورية، شأن البابوية، لتصبح منذ ذلك التاريخ ١١٥٧ "الإمبراطورية الرومانية المقدسة" كما أسلفنا القول من قبل.

واتساقا مع هذا الفكر الإمبراطورى، يغدو إمبراطور الرومان هو "سيد العالم" (٧٢) Dominus mundi وبالتالى لا يمكن أن يستقيم هذا مع الفكر البابوى القائل هو الآخر بالسيادة على العالم، ولما كان العالم لا يتحمل من وجهة نظر كل منهما وجود سيدين، كان لابد أن تسير العلاقات بين الطرفين من سئ إلى أسوأ، ولقى الإمبراطور فردريك إذلالا فى عام ١١٧٧ فى ميلانو على يد البابا إسكندر الثالث، يكاد يقترب إلى حد ما من إذلال كانوسا الذى سبقه بمائة عام.

ورد الإمبراطور على الصفعة بأقوى منها عندما خطب ابنه هنرى (السادس) إلى الأميرة كونستانزا Constance وريثة عرش النورمان فى جنوب إيطاليا وصقلية سنة ١١٨٤، وتم الزواج فى احتفال مهيب شهدته مدينة ميلانو سنة ١١٨٦؛ ولما رفض البابا أوربان الثالث (١١٨٥-١١٨٧) أن يتوج هنرى، أعلن فردريك ابنه إمبراطور شريكا وخلع عليه لقب "القيصر".

وشاء القدر أن يحرم البابوية آنذاك من شخصية قوية تعتلى كرسى القديس بطرس بعد وفاة اسكندر الثالث، الذى يعد مرحلة وسطى بين جريجورى السابع وإنوسنت الثالث. ولذا لم يكن أمام البابا الضعيف كلمنت الثالث، إلا أن يخاطب الإمبراطور فردريك فى أمر قيادة حملة صليبية باتجاه الشرق لاسترداد بيت المقدس ثانية، رغم أن برباروسا كان قد جاوز الآن السبعين من عمره، بينما قريناه فيليب أوغسطس الفرنسى وريتشارد قلب الأسد الإنجليزى فى ريعان شبابهما. ورغم أن الملكين الأخيرين لم يكونا أيضا على وفاق مع البابوية، إلا أن التهديد الأكبر والخطر الجاثم كان يتمثل لها فى الإمبراطور الرومانى، ولما كان البابا الواهن كلمنت الثالث عاجزا عن مواجهة تحديات فردريك بربروسا فى أوروبا،

(72) Ullmann, A short history of the Papacy, p. 194

فــلا ضير فى إغرائه بالابتعاد عنها والاتجاه إلى الشرق رغم ثقل خطوه فى هرمه هــذا. ولــذا كان من المفيد جدا للبابوية إبعاده الآن عن الساحة الأوروبية ولو إلى حيــن. ولــيس من المبالغة فى القول بأن فرحة البابوية بغرق فردريك وموته فى الشرق، لم يكن أقل من فرحة المسلمين بذلك، تلك التى عبر عنها ابن الأثير بعبارة رائعــة حين قال، لو أن جيوش الإمبراطور وصلت إلى الشام "لكنا نقول إن مصر والشام كانتا للمسلمين، ولكن الله سلم".

ولــم يكن فردريك منتظرا لمثل هذه الدعوة من البابوية، وإن اعتبرها بادرة طيــبة فى سياسة وفاق مستحيلة الحدوث، وهو ما لم يكن يدور بذهن البابوية، لكن الاثنيــن رغم العداء الشديد بينهما وجدتا فى هذه الحرب الصليبية فرصة لتحقيق ما تســعى إلــيه كل منهما، وكانت هناك أرضية مشتركة بينهما رغم هذه الكراهية، تمثلــت فــى فكرة العالمية الرومانية التى كانت تعنى بالنسبة للبابوية وجود كنيسة عالمــية واحدة هى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وهذا يقتضى فرض السيادة على كنيســة القســطنطينية الأرثوذكســية، وكان هذا هدف أساسى للبابوية اشتمل عليه فكــرها الصــليبى وسعت إلى تحقيقه منذ الدعوة إلى الحملة الأولى. وفى المقابل كانت العالمية الرومانية بالنسبة لفردريك بربااروسا تعنى وجود إمبراطور رومانى واحــد، وتمــثل ذلــك فى الرسالة شديدة السخرية التى بعث بها إلى الإمبراطور البــيزنطى مــانويل كومننوس Manuel Comnenos (١١٤٣-١١٨٠) على أثر هــزيمة الأخــير فى موقعة ميريوكيفالوم Myriocephalum عام ١١٧٦ على يد ســلطان قونية السلجوقى، تتضمن خضوع "ملك اليونان" Rex Graecorum (يعنى الإمــبراطور البــيزنطى) ومملكــته اليونانــية Regnum Graeciae للإمبراطور الرومانى (يعنى شخصه)(٧٣).

وعلــى هــذا النحو تبدو العالمية الرومانية عند كل من البابا وفردريك هى الــنقطة الــتى يمكن أن يكون عندها تناغم بين البابوية والإمبراطورية، حيث أنها تحــتم إجهــاض الإمــبراطورية البيزنطــية، إن لم يكن تدميرها وإخضاع كنيسة

---

(٧٣) هسى، العالم البيزنطى، ترجمة رأفت عبد الحميد، ص١٩٦

القسطنطينية إن لم يكن القضاء عليها(٧٤)، غير أن هذا التناغم لم يكن له وجود على الإطلاق فى علاقتهما على الأرض الأوروبية، انطلاقا من إيمان كل منهما المطلق بضرورة وجود سيد واحد يحكم هذا العالم، ولم يكن كلاهما أو أى منهما يقبل بغير هــذا بديــلا!! ولــيس أدل على ذلك من أنه بعد وفاة فردريك بربار وسا فى حملته الصليبية سنة ١١٩٠، واعتلاء ابنه هنرى السادس العرش، لم يلق هذا الأخير أى عــون أو تشــجيع من البابوية فى إعداده للحملة الصليبية التى كان ينوى القيام بها ضد القسطنطينية، لا لشىء إلا أنه كان أعنف من أبيه فى سياسته مع البابوية، ولذا عــد موته المفاجىء والمبكر فى سبتمبر ١١٩٧ فى صالح البابوية تماما(٧٥)، والتى لــم تلبــث أن حظيت فى العالم التالى مباشرة بشخصية من أقوى الشخصيات التى عرفها كرسيها فى العصور الوسطى هو البابا إنوسنت الثالث.

وبــنفس الشاكلة التى جرى بها خروج الحملة الثانية، خرجت أيضا الثالثة، الإمبراطور الألمانى سلك الطريق البرى عبر وسط أوروبا، وليلقى حتفه غرقا فى أحد أنهار قيليقية Cilicia بآسيا الصغرى، وليتفرق جيشه الضخم فى غير انتظام، بيــنما أمضــى ملكا فرنسا وإنجلترا شتاء ١١٩١/١١٩٠ فى صقلية، ثم ارتحل كل منهما وحده بجيشه باتجاه عكا، فيليب أولا وبعده بشهرين قصدها ريتشارد، وهكذا عملــت الخلافات السياسية والعسكرية والمصالح الشخصية على عدم التقاء زعماء الحملــة على عمل واحد. وكانت عاقبة أمرهم خسرا، إذا لم تحقق الحملة أى نجاح يذكــر فى الشرق، ولم تكن البابوية راغبة ولا حتى قادرة آنذاك على إيجاد الوفاق بين الزعماء الثلاثة.

ولسنا مبالغين إذا ذهبنا إلى القول أن البابوية لم يكن لها دور جدير بالاعتبار فــى هــذه الحملــة؛ فجريجورى الثامن لم يفعل أكثر من إذاعة دعوة عامة واهنة تتناســب ونهايــة العمر التى كان يعيشها، وكلمنت الثالث لم يذهب أبعد من إرسال نــداء إلــى فردريك بربار وسا، ولم يتيسر للبابوية – رغم أن الحادث جلل، أعنى

(74) Ullmann, A short history of the Papacy, pp. 186, 202-203

(75) Ibid. p. 206

ضياع بيت المقدس – شخصية مثل شخصية أوربان الثانى فى الحملة الأولى، أو يوجينوس الثالث فى الحملة الثانية، ولم يتوفر لها داعية موهوب مثل بطرس الناسك فى الأولى أو القديس برنارد فى الثانية. ولهذا يمكن وصفها بأنها حملة علمانية بحتة ليس لها من الصبغة الدينية شئ ولا من الرعاية البابوية نصيب، وهذه الأخيرة جاءت برضى الطرفين، فلا الملوك كانت عندهم الرغبة فى مثل هذه الرعاية، ولا البابوية كانت قادرة على أن تهبها!

وهذا الموقف يفسر لنا ما حدث بعد ذلك على عهد البابا أنوسنت الثالث، الذى شهد عهده (١١٩٨-١٢١٦) الدعوة إلى حملتين صليبيتين هما الرابعة التى حققت حلم البابوية البعيد والعالمية الرومانية الخاصة بها، وذلك باسقاط الإمبراطورية البيزنطية واحتلال القسطنطينية سنة ١٢٠٤ وتحويل كنيستها إلى كنيسة كاثوليكية. والخامسة التى استهدفت مصر "رأس الأفعى" كما اعتبرها الصليبيون، والتى لقيت الفشل الذريع، وإن كان إنوسنت قد مات قبل أن يرى عطب ثمرة دعوته لهذه الحملة.

لقد حرص إنوسنت الثالث على أن يجعل من الفكرة الصليبية سلاحه الفتاك الذى يستخدمه فى الداخل والخارج فى مواجهة السلطة الزمنية لتحقيق أعلى قدر، بل الأعلى، للسيادة البابوية، وأفصح دون مواربة فى رسالة بعث بها إلى نبلاء تسكانيا Tuscany عن مدى سلطانه، يقول: "كما أن القمر يستمد نوره من الشمس، كذلك فإن السلطة الزمنية تستمد سلطانها وكرامتها من البابوية"(٧٦) وفى إحدى عظاته وصف نفسه بأنه "أدنى من الله وأعظم من البشر، قاضى القضاة الذى لا يقاضيه أحد"(٧٧)، وفى دعوته للحملة الصليبية الخامسة(٧٨) فى إبريل ١٢١٣ قال: "نحن نتكلم باعتبارنا نائب المسيح Vicarius Christi "، ولم يعد بذلك خليفة بطرس كما كان أسلافه.

---

(76) INNOCENT III, Letter to the prefect of Acdrbus and the Nobles of Tuscany

(77) INNOCENT III, Sermon on Consecration of a pope

(78) INNOCENT III , Proclaims the Fifth Crusade 19-29 April 1213

كـــان إنوسنت الثالث على اقتناع كامل بأنه "سيد العالم" Dominus mundi بـــلا منازع، ولم يسمح لأى شئ أن يعوقه عن تحقيق هذا الهدف، ومن ثم أنخرط بشكل عملى فى كل المسائل السياسية والدبلوماسية وكذا الإقطاعية والعائلية فى كل أوروبـــا، لقـــد امـــتزج الفكر الصليبى عند بفكرة السمو، وأصبحت الفكرتان لديه جوهـــرا واحـــدا وكـــان هـــذا واضحا بصورة جلية فى موقفه تجاه الإمبراطورية البيزنطـــية فـــى الحملة الصليبية الرابعة عندما هنأ زعماءها بالانتصار على "دولة مـــتمردة وكنيسة مارقة، وكذا سياسته تجاه الألبجنسيين Albigensians فى جنوب فرنســـا، والجماعـــات الهرطقية، والشعوب الوثنية، إذ كان ينظر إلى سلوك هؤلاء جمـــيعا باعتباره جرائم تحاك ضد السيادة الإلهية، وتندرج بذلك تحت تهمة الخيانة العظمى للبابوية، وكأنه كان يهتدى هنا برشد سلفه الأسبق جريجورى السابع الذى كان يردد دائما: "من ليس مع الكنيسة الرومانية فليس بكاثوليكى"(٧٩).

ولـــم يقـــف دوره فى النزاع الذى دار حول العرش الألمانى بعد وفاة هنرى الســـادس عـــام ١١٩٧ عـــند حد كونه حكما فقط، بل تعداه إلى التدخل السافر بين أطـــراف هذا النزاع الذى استمر من سنة ١١٩٧ حتى سنة ١٢١٤(٨٠)، منتقلا فى تأيـــيده بيـــن هذا الجانب وذاك دون مراعاة لأية قواعد أخلاقية فى الالتزام بالعهود باعتـــباره "نائـــب المسيح"، بل استخدم هذه المكانة ليفعل ما يحلو له تماما، وحصل مـــن كل طرف من الأطراف الثلاثة، فيليب السوابى الهوهنشتاوفنى، وأوتو الرابع الولفـــى دون برنســـويك، وفـــردريك الثانى ابن هنرى السادس، على وعود بحمل

---

(79) Ullmann, A short history of the papacy, p.220

(٨٠) فـــى عام ١٢٠١ وبعد ثلاث سنوات من اندلاع الحرب الأهلية فى ألمانيا صراعا حول العرش، أصدر إنوســـنت الثالث وثيقة تعد من أخطر الوثائق البابوية فى مطلع القرن الثالث عشر الميلادى للفصل فى هـــذا الـــنزاع، ورغم أنه قال فى ديباجتها أنه سوف يفصل فى القضية بمقتضى الشرعية والصلاحية، إلا أن حكمه فى النهاية جاء بعيدا تماما عن هذين المبدأين ومطابقا كلية لمصالح البابوية للمزيد من التفاصيل راجـــع، رأفـــت عبد الحميد، السمو البابوى بين النظرية والتطبيق، ص٢٠٨-٢١٢ وأيضا رأفت عبد الحمـــيد، الملكـــية الألمانية بين الوراثة والانتخاب (فى ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط، المجلد الثانى ١٩٨٣، ص١٣٤-١٣٦

الصليب والاتجاه إلى الشرق، بالإضافة إلى تنازلات كبيرة لصالح الاكليروس على حساب سلطة الملك.

وتدخـــل إنوســـنت الثالث فى السياسة الفرنسية عندما أقدم فيليب أوغسطس على الزواج من آجنى Agnes ابنه الدوق ميران Meran الصديق الصدوق لفيليب الســوابى، وهجر زوجته إنجبورج Ingeborg أخت فلاديمير الثانى Wlademar ملــك الدانمـــرك الذى كان من القلائل المؤيدين لأوتو الرابع، ولا زال البابا بالملك الفرنسى حتى اضطر فى النهاية إلى العودة إلى زوجته إنجبورج. ونصب من نفسه حكمـــا فـــوق قمة الهرم الإقطاعى على رأس جميع الملوك عندما تدخل فى النزاع الذى دار بين ملك فرنسا وملك إنجلترا جون؛ وكان ذلك حينما قام فيليب أوغسطس بغـــزو نورمـــاندى، ولما حاول البابا التدخل لفض هذا الصراع عن طريق وساطة أســـاقفة فرنســـا، احـــتج فيليـــب بأنـــه ليس من حق البابا التدخل فى المنازعات الإقطاعـــية[٨١]، فأجاب البابا بوثيقة على جانب كبير من الأهمية، صدرت عنه فى ســـنة ١٢٠٤، جـــاء فيها أنه لا يرغب مطلقا فى انتهاك الحقوق السيادية الشرعية لملـــك فرنسا، وليست لديه النية للحكم فى القضايا الإقطاعية، ولكن فيليب وقع فى الخطيـــئة، وللـــبابا الحـــق كل الحق فى أن ينظر فى مثل هذه الخطايا!! خاصة إذا كانـــت الحـــرب قد اندلعت بسبب هذه الخطيئة، ومن واجبات البابا الأساسية رعاية الســـلام والدفـــاع عنه[٨٢] وكان من بين ما قاله فى هذه الوثيقة: "ليس هناك من لا يعلـــم أن مـــن بيـــن اختصاصات منصبنا "توبيخ" أى ملك مسيحى إذا ما زلت فى الخطيـــئة قدمه، بل وإخضاعه قهرا للعقوبات الكنسية إذا لم يمتثل لقراراتنا .. وإذا كـــان يقـــال إن الملوك يجب أن يعاملوا معاملة تختلف عن الآخرين، فإننا نعرف أيضـــا أنـــه مكتوب فى القانون السماوى: "لا تنظروا للوجوه فى القضاء، للصغير كالكبير تسمعون، لا تهابوا وجه إنسان لأن القضاء لله" (تثنية ١/١٧).

---

(81) Tierney, Crisis, pp. 127-129
(82) Ibid. pp. 134-135

وبلـــغ ســلطانه فى فرنسا أقصاه عندما وجه الدعوة إلى حملة صليبية ضد الألبجنسيين فى جنوب فرنسا، ورغم أن فيليب أوغسطس رفض الاشتراك فى هذه الحــرب، وأبــدى استياءه من التدخل البابوى السافر فى شئون دولته، إلا أن البابا مضـــى قدمـــا فـــى خطـــته، ووعد الأمراء الفرنسيين فى الشمال بالحصول على الأراضـــى الخاصـــة بالالبجنسيين فى الجنوب، إقطاعا خاصا لهم(٨٣)، مما اضطر فيليـــب فى النهاية إلى المشاركة فى هذه الحملة حتى لا يخرج الأمر من بين يديه داخل بـــلاده، وحـــتى لا يترك المسألة برمتها للبابوية. وفى عام ١٢١٥، فى مجمع اللاتيران الـــرابع، الـــذى دعـــا فيه لحملة صليبية جديدة، أعلن البابا توقف الحرب الألبجنسية – وكان قد حقق النصر له – وانتهاءها لمصلحة الحرب فى الأراضى المقدسة.

وفـــى إنجلترا، على عهد ملكها جون (١١٩٩–١٢١٦) أدت المنازعات التى دارت حول اختيار أسقف لكنيسة كانتربورى فى سنة ١٢٠٥، واقدام الرهبان على اختـــيار زعـــيمهم رينالد Reginald ثم إسقاطه واختيار أسقف بدلا منه بناء على ضـــغط ملكى، إلى عدم اعتراف إنوسنت الثالث بالاختيارين معا، فلما قدم الرهبان إلـــى رومـــا أوحى إليهم البابا باختيار أحد زملائه فى جامعة باريس هو "لانجتون Langton ســـنة ١٢٠٧ فلما رفض جون هذا التدخل السافر فى شئون مملكته لقنه الـــبابا درسا قاسيا، إذ أصدر ضده قرار الحرمان الكنسى ووضع شعبه تحت اللعنة عام ١٢٠٨، مما دفع كثيرا من الرهبان للهروب إلى روما يتضرعون إلى البابا أن يـــرفع عن إنجلترا هذه اللعنة، ولكن البابا زاد فى غطرسته حين راح يغرى فيليب أوغســـطس بغـــزو إنجلترا ووعده بالاعتراف بسيادته عليها، وكان هذا كفيلا، إلى جانب تمرد الشعب والرهبان والاكليروس بأن يدفع جون إلى قبول أن يكون فصلا إقطاعيا تابعا للبابوية فى عام ١٢١٣(٨٤)، والاعتراف بلانجتون أسقفا لكانتربورى.

(83) INNOCENT III, Letter to King Philip ii of France, 17 November 1207, on the Proclamation of the Albigensian Crusade "Letter to the Faithful in the Provinces of Narbone, Arles, Embrum, Aix and Vienne, 10 March 1208 on the Proclamation of the Albigensian Crusdae.

(84) JOHN KING OF ENGLAND, Concession of the kingdom to the pope 1213 Innocent III, Letter to King john of England accepting his Feudal homage, April 1214.

وفـــى الرسالة التى بعث بها إنوسنت الثالث إلى الملك جون. يعلن فيها قبوله أن يكون ملك إنجلترا فصلا إقطاعيا تابعا للبابوية، جمع البابا فى كلماته كل ما من شـــأنه تكريس السلطتين الروحية والزمنية فى يديه، وأضفى على نفسه من الألقاب والســمو مــا يجعــل الملــوك إلى جواره نسيا منسيا، قال: "يسوع المسيح، ملك الملوك،رب كل رب، الكاهن على رتبة" ملكى صادق" Melchisedech الذى جمع للكنيســة الكهانـــة والملكـــية، وجعل فوق الجميع رجلا اختاره بنفسه ليكون نائب المســيح علـــى الأرض (يقصـــد البابا بطبيعة الحال) - ولما كان الجميع قد خروا راكعيــن فى السماء وعلى الأرض لعظمة المسيح، كان حتما مقضيا أن يفعلوا ذلك أيضـــا مع نائبه من أجل أن يكون هناك شعب واحد وراع وحيد. وعلى كل ملوك الدنـــيا أن يجلوا ويوقروا هذا النائب طاعة له، مدركين فى الوقت نفسه أن شرعية حكمهم ترتبط كلية بالولاء التام لنائب المسيح على الأرض والسعى إلى مرضاته".

ولـــم تكن التبعية الفصلية التى أعلنها ملك انجلترا هى الأولى من نوعها، بل سبقه إليها ملك بلغاريا جوانيتزا Joannitza ، وكذلك أرغونة Aragon التى أمست تحت سيادة ملكها بطرس الثانى إقطاعا بابويا فى عام ١٢٠٤ بينما جددت البرتغال وقشتالة العهود الإقطاعية مع البابوية.

أما فى شمال أوروبا وشمالها الشرقى، فمن أجل تأييد الأسقف المبشر ألبرت Albert فى ليفلاند Livland دعا البابا المسيحيين فى سكسونيا ووستفاليا إلى حملة صـــليبية ضد الوثنيين هناك، وأصبحت هذه سياسة البابوات من بعد، وفى كل من الســـويد والـــنرويج أضـــحت السياسة الإنسنتية عاملا أساسيا فى التدخل فى مسألة اعتلاء العرش والجدل الدائر حوله. وسمح لدوق بوهيميا "أوتوكار" من جانب البابا وموافقـــة أوتـــو الـــرابع ملك ألمانيا، بحمل لقب ملك بكل امتيازاته(٨٥) وفى المجر تدخلـــت الـــبابوية فـــى النزاع الذى دار بين الأخوين "إمريك" Emmeric وأندرو Andrew حـــول العـــرش، ويمكن القول باختصار إن النشاط البابوى شمل أوروبا كلهـــا، وأصـــبح الـــبلاط الـــبابوى هو المركز الحكومى المشغول دائما فى العالم

(85) INNOCENT III Grants the title of King to the Duke of Pohemia 1204

آنـــذاك[٨٦]. وهكـــذا فإن البابوية فى مطلع القرن الثالث عشر أصبحت تضم تحت سـلطانها أكـبر عـدد من الأفصال الإقطاعيين قل أن تمتعت به أى سلطة زمنية أخرى فى أوروبا.

هكـذا تضـمنت البابوية أن تكون صاحبة اليد العليا فى أوروبا كلها خلال العقـد الأول مـن القرن الثالث عشر الميلادى، وساهمت الظروف السياسية التى سـادت أوروبـا آنذاك فى تحقيق هذا السمو البابوى، ولا نستثنى من ذلك فقط إلا فيليـب أوغسـطس الملـك القوى لفرنسا، وإن كان الرجل قد آثر عدم الدخول فى مواجهـة مـع الـبابوية، ولـم تكـن شخصـية فـردريك الثانى، الملك الألمانى والإمـبراطور، قـد أفسحت مكانا على المسرح السياسى آنئذ. وهكذا خلت الساحة تمامـا لإنوسـنت الثالـث أن يفعـل ما يحلو له مع كل ممثلى السلطة الزمنية فى أوروبـا، وأن يندفع بكل قوته الآن ليحرك أوروبا من جديد فى حملة صليبية تحقق له الجزء الباقى من حلمه الكبير فى السيادة العالمية.

لـم يكن غريبا إذن أن يكون الشغل الشاغل لإنوسنت الثالث منذ اليوم الأول لاعـتلائه كرسـى القديس بطرس الحملة الصليبية التى يجب أن تتجه إلى الشرق لاسـترداد القدس، واعتبر ذلك أولى مهامه المقدسة بعد أن فشلت الحملة "العلمانية" الـتى قادهـا ملوك أوروبا الثلاثة "العظام" فى تحقيق أى نجاح يمكن أن يكون له تأثير على مسيرة الحركة الصليبية.

وكـان الصراع الداخلى الذى نشب حول العرش الألمانى عقب وفاة هنرى السـادس الفرصـة التى اهتبلها دون تِوان؛ فبعد أن أصدر وثيقته المشهورة[٨٧] فى عـام ١٢٠١ واعـترف فيها بـ "صلاحية" أوتو الرابع الولفى للعرش، رغم عدم شـرعيته، عـاد بعـد عامين من الحرب الأهلية التى كان ينفخ فيها باستمرار، بل والـتى كانـت الوثـيقة فى جوهرها دعوة لإشعالها، عاد وقد رأى الكفة تميل إلى صالح الهوهنشتاوفن يبدى رضاه عن فيليب السوابى الهوهنشتاوفنى، ولم يكن ذلك

(86) Ullmann, A short history of the Papacy, p. 215

(87) INNOCENT III, Decision of Innocent III in regard to the disputed election 1201

إنصـــافا للحق بل طمعا فى المصلحة البابوية، ودعما للفكر الصليبى البابوى إذ قدم فيليـــب وعـــدا قاطعا على نفسه فى وثيقة رسمية(٨٨) صدرت عنه فى عام ١٢٠٣، بحمـــل الصـــليب دفاعا عن الأراضى المقدسة، جاء فيها: ".. من أجل السلام مع الكنيســة، فقد نذرت للرب والقديسين أن أعبر البحر لأحرر الأرض الموعودة من قســاوات الوثنييــن. ولما جاءنى رسول البابا يعرض على السلام مع الكنيسة فإنى نذرت ثانية ووعدت الله وقديسيه وممثلى البابا بكل الإيمان، ودون أى إنفاق، القيام بحملة صليبية من أجل دعم الكنيسة والإمبراطورية، وسوف أبذل كل ما فى وسعى مـــن أجـــل تحريـــر هـــذه الأرض .. وإذا قدر الله لى السيادة على الإمبراطورية اليونانية (البيزنطية) فإنى سوف أخضع الكنيسة اليونانية للكنيسة الرومانية".

والوثـــيقة تكشـــف عـــن مدى استخدام البابوية للفكرة الصليبية – كما قدمنا – ســـلاحا فـــتاكا ترهب به خصومها أصحاب السلطة الزمنية، وتلوح لهم به لقاء مساندة عروشـــهم! هذا بالإضافة إلى أنها تبين أيضا أن البابوية كانت عازمة تماما على بسط ســـلطانها علـــى الإمبراطورية البيزنطية والكنيسة الأرثوذكسية وإدخالها ضمن حظيرة الكاثوليكـــية. ولم يكن فيليب السوابى ليعلن عن ذلك فى وثيقته هذه إلا بوحى من رسل الـــبابا، خاصة وأنه كان مرتبطا بعلاقة مصاهرة مع الكسيوس (الرابع) الذى عزل عن العـــرش هـــو وأبوه اسحق الثانى أنجيلوس Isaac II Anglus على يد الكسيوس الثالث Alexius III وحـــتى لـــو أدخلنا فى اعتبارنا أن فيليب السوابى قد أعلن ذلك بناء على اســـتنجاد صـــهره بـــه، فلـــم يكـــن من الحصافة التصريح بأنه سوف يخضع كنيسة القســـطنطينية لكنيسة روما. ومن ثم فليس هناك شك فى أن هذه العبارات أملاها عليه رســـل البابا بوحى من حبرهم الأعظم، ولم يكن فيليب، المتطلع إلى العرش، وفى مثل هذه الظروف العصيبة، يملك إلا أن يكتب ما يملى عليه!

هـــذا مـــثال واحـــد من أمثلة أخرى جرى تطبيقها مع أوتو الرابع والشاب فـــردريك الـــثانى الـــذى أخذت عليه العهود والمواثيق مرة عند تتويجه ملكا سنة ١٢١٢ والأخرى عند تتويجه إمبراطور عام ١٢٢٠.

(88) PHILIP OF SUABIA, Concessions of Philip to Innocent III 1203

ومــن الجدير بالذكر أن البابوية دخلت فى تجربة قاسية نتيجة الظروف التى أحاطــت بالحملة الصليبية الرابعة؛ ذلك أن كل الجهود المضنية التى بذلها إنوسنت الثالــث مــنذ اعتلائه العرش البابوى، وجهود كلمنت الثالث من قبله، لم تسفر فى الــنهاية إلا عــن حملــة تضم مجموعة من الأمراء يتزعمهم بلدوين التاسع أمير الفلانــدرز، وأخوه هنرى، وبونيفاس دى مونتفرات، وثيبوت الثالث أمير شامبنى، ولويس كونت بلوا. ولم يقم أحد من الملوك بالاشتراك فيها، فملوك ألمانيا كانوا فى شغل شاغل بنزاعهم الداخلى عن الالتفات إلى الأرض المقدسة، وفيليب أوغسطس لــم يكــن راغبا فى إعادة التجربة الصليبية مرة أخرى، منصرفا إلى تقوية مركز الملكــية فــى الداخــل، وجون الإنجليزى كان يعانى من عداوة أمرائه وأكليروسه ورهبانه والبابوية حتى عام ١٢١٥، والبابوية نفسها تدير حربا صليبية خاصة جدا فــى ألمانيا بين المتصارعين على العرش، وتشعر بالقلق فى الوقت نفسه من جراء الــثورة التى تسير قدما فى الجنوب الفرنسى من جانب الألبجنسيين. والبنادقة الذين لجأ إليهم أمراء الحملة لنقلهم بسفن البندقية إلى مصر، وجهة الحملة لم يكن يعنيهم مــن أمــر الصليب إلا ما يحقق مصالحهم التجارية بعد أن غدت البندقية من أعظم الجمهوريــات الــتجارية الأرســتقراطية فــى البحرالمتوسط عندئذ، وكان شعار أدواجهــا.. بــنادقة أولا وصليبيون ثانيا .. إذا دعت الضرورة! ولم يفق البابا من دسائســه إلا جــنود الصــليب يدمــرون مدينة زارا Zara المسيحية على الشاطئ الأدرياتى المقابل، وكانت تابعة لملك المجر، وأرادتها البندقية لنفسها مركزا تجاريا جديدا متميزا. فانزل اللعنة على من فعلوا ذلك، ثم أعطاهم دبره مرة أخرى متحرفا إلى ما يدور فى ألمانيا!

لقد أمضى جنود الصليب ما يزيد على عامين كاملين يقيمون فى البندقية بلا عمل، لا يجدون من الملوك من ينفق عليهم وعلى مشروعهم الصليبى، ولا يجدون فى البابوية نفسها التى دعت إلى هذا المصير الرعاية المرجوة. وإن كانت البابوية والبــنادقة قــد اقــتطفوا فــى نهايــة الأمر الثمرة كلها، باخضاع الكنيسة الشرقية للكاثوليكــية، وابــتلاع الأراضــى البيزنطية فى القسطنطينية وشبه جزيرة المورة

ومنطقة البلوبونيز(٨٩). وحققت البابوية حلمها البعيد الذى كانت تهدف إليه، وتحققت أمنيات فيليب السوابى التى أملتها عليه البابوية.

وإذا كانت الحملة الصليبية الرابعة بالنتيجة التى انتهت إليها من تدمير زارا واسقاط القسطنطينية، قد جاءت لتؤكد بما يدع مجالا للشك انحراف الفكرة الصليبية عـن أهدافهـا المعلـنة على لسان أوربان الثانى، فإنها فى الوقت نفسه تمثل نقطة فاصـلة بيـن المرحلتيـن الثانية والثالثة من الحركة الصليبية، وإذا كانت المرحلة الأولـى قـد تميزت بالدعوة العامة للحرب والاستجابة العامة أيضا لها من جانب الأمراء، عصب الحياتين السياسية والاقتصادية فى أوروبا آنذاك، والرعاية البابوية الكاملـة، وضـمت الثانية الدعوة العامة، والنداءات الخاصة الموجهة لملك بعينه، والـرعاية الـبابوية المصحوبة بنشاط السلطة الزمنية، وتمثلت فى الحملتين الثانية والثالـثة، فإن المرحلة الثالثة والأخيرة اختصت بالطابع الفردى للحملات الصليبية، فلـم تعـد أوروبا تخرج عن بكرة أبيها بملوكها وأمرائها وأقنانها، وإنما اقتصرت الحـرب على ملك بعينه، يقود جيشه، وباتجاه الشرق قاصدا مصر بصفة خاصة. وكـان هـذا راجعا فى المقام الأول إلى أن أوروبا القرن الثالث عشر لم تعد هى أوروبـا القرنين الحادى عشر والثانى عشر، فقد آذن النظام الإقطاعى فى إنجلترا وفرنسا بصفة خاصة بالرحيل، وإن بقى فى ألمانيا طويلا من بعد، ونشطت حركة الـتجارة الداخلـية والخارجـية، وازداد عـدد المدن الجديدة، وأنشئت الجامعات، وتغـيرت الأفكـار السائدة فى المجتمع الأوروبى بصفة عامة إلى حد ليس بالقليل ومع أن هذه الظواهر كلها قد بدأت تلوح فى الأفق منذ منتصف القرن الثانى عشر المـيلادى، إلا أنها راحت تمكن لنفسها الآن فى الأرض الأوروبية، ولعل من أدق مـا قيل فى التعبير عن ذلك، ما أورده إرنست باركر فى كتابة "الحروب الصليبية" بقولـه: "إن تـاريخ الحملـة الصليبية الرابعة يعد نموذجا لتسلط النزعة العلمانية،

(٨٩) عـن الحملـة الصليبية الرابعة وظروفها ودور البابوية والبنادقة والألمان فيها راجع كلارى (روبرت) القسـطنطينية على يد الصليبيين، ترجمة حسن حبشى، القاهرة ١٩٦٤؛ فيلها ردوان، مذكرات، ترجمة حسـن الحبشـى، جده، ١٩٨٢؛ اسحق عبيد، روما وبيزنطية من قطيعة فوشيوش حتى الغزو اللاتينى لمدينة قسطنطين، القاهرة، ١٩٧٠.

ومحاولة البابوية فى الوقت نفسه التخلص من ذلك التسلط وتلك السيطرة، ومواصلة مـا اشتهرت به من قبل من توجيه الحروب الصليبية، وما حاق بهذه المحاولة من الفشل الذريع".

وإزاء هـذا الموقف الجديد الذى بدا واضحا من خلال انعدام الحماسة الدينية إزاء الحرب الصليبية، إبان الحملة الرابعة، كان على البابوية أن تغير هى الأخرى من أسلوبها لتضمن بقاء هذه الفكرة الصليبية قائمة، ولتظل فى الوقت نفسه ممسكة بـأوراق اللعبة كلها فى أيديها كما أرادت دائما. بل إن البابوية فى فكرها الصليبى فـى هذه المرحلة، جعلت الحرب الصليبية مسألة شخصية بحتة، تمس مكانة البابا وقدسـية الكنيسـة، وتحولـت من حرب مقدسة – كما كانت تسميها – إلى عداء شخصى بين البابا وكل من يجرؤ على عصيان أوامره.

ورغـم مـا بـدا للجميع ساعة سقوط مدينة قسطنطين فى يد جند الصليب اللاتين، من أن هذا يعد انتصارا ساحقا للبابوية والكنيسة الرومانية الكاثوليكية على الإمـبراطورية والكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية، إلا أن هذا كان سرابا سرعان ما تـبدد مع كل اقتراب من أرض الواقع، فوجود إمبراطورية لاتينية فى القسطنطينية ومـنطقة البلوبونـيز، حـرم الممـتلكات والإمارات الصليبية فى الشام من توالى الإمـدادات المتتابعة من أوروبا، بعد أن فضل كثير من الصليبيين الذهاب إلى هذه المملكـة الجديـدة بعيدا عن المحيط الإسلامى المحيط بهم فى الشام، ومن ثم فقدت هـذه الإمـارات موردا بشريا متجددا يقدم من أوروبا، فى الوقت الذى تزايدت فيه قـوة المسـلمين تحت زعامة مصر فى عصريها الأيوبى والمملوكى، بينما تكشف للأوروبيين أن الأرض البيزنطية لم تكن هى أرض الأحلام الموعودة، وخير دليل علـى صدق ما نذهب إليه هو أن المسلمين استردوا الرها والقدس خلال المائة عام الأولـى مـن مجـىء الصليبيين فى الحملة الأولى، بينما تساقطت باقى الممتلكات الصـليبية فـى أيديهم خلال أقل من ربع قرن من الزمان، فاسترد الظاهر بيبرس أنطاكـية سنة ١٢٦٨م واسترجع المنصور قلاوون طرابلس عام ١٢٨٩، وعادت آخـر معاقلهم، عكا، فى سنة ١٢٩١ على يد الأشرف خليل بن قلاوون، بينما نجح

البيزنطـيون فـى اسـترداد القسطنطينية سنة ١٢٦١م. ومن هنا ندرك أن سقوط الإمبراطورية على يد جنود الحملة الصليبية الرابعة لم يكن نعمة بقدر ما كان نقمة على الحركة الصليبية بصفة عامة.

وها هو إنوسنت الثالث يدعو لحملة صليبية جديدة عدت الخامسة، يحاول أن يحشـد لها كل طاقات أوروبا، مؤملا أن يعود زمان أوربان الثانى من جديد، لكن دون جـدوى. ويضـع أملـه كله فى فردريك الثانى، ولكن عبثا كان يحاول يقول موجهـا خطابه "للمؤمنين"[٩٠] إن الأمل ليحدونى أن تكون المساعدة التى تقدم إلى الأراضى المقدسة الآن تفوق بكثير كل ما قدم لها من قبل .. ويجب أن يعلم الجميع أنـا نـتكلم باعتبارنا "نائب المسيح على الأرض"، وأن كل من يتقاعس عن خدمة المخلـص فى هذه الساعات الحرجة، يستوجب اللوم كل اللوم .. لا تترددوا فى أن تقدمـوا أنفسـكم وأموالكـم فداء لمن قدم روحه لكم فداء" وأعلن حمايته على كل المشاركين فى الحملة مع التعهد بحماية أسرهم وممتلكاتهم إلى حين عودتهم، ودعا إلـى إسـقاط فوائـد الديون المتراكمة على المشتركين فى الحملة، وألزم السلطة الزمنية بأن تتخذ مع اليهود الإجراءات الكفيلة بعدم تحصيل هذه الفوائد، بل ورد ما دفـع مـنها. وكتب إنوسنت الثالث بهذا المعنى رسائل إلى أساقفة كل من "سباير" Spcyer[٩١] وأوجزبـرج[٩٢] Augsburg، وريـنزبرج[٩٣] Regensbury، ووجه الدعوة لعقد مجمع اللاتيران الرابع فى عام ١٢١٥، وهيأ له من أسباب النجاح كل مـا يمكـنه، وحرص على أن يدعو إليه أيضا العلمانيين تأكيدا لفكره فى مواجهة السلطة الزمنية، وكان من بين الحضور يوحنا التورى John of Tours مندوبا عن ملـك بيت المقدس جان دى بريين Jean de Berinne ومندوب عن الإمبراطورية

---

(90) INNOCENT III, Proclaims the Fifth Crusade, April 1213

(91) INNOCNT III, Letter to Contrda, dean of speyer, September 1213

(92) INNOCNT III, Letter to the abbot of Salem, the former abbot of Neuburg, the dean of Speyer and the Provost of Augsburg, May 1213

(93) INNOCNT III, Letter to Conrad pishob of Regensburg, September 1213

الرومانـــية المقدســـة، وممـــثلون لملـــوك فرنســـا وإنجلترا وإسبانيا، ورسول من الإمبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية وملك هنغاريا.

وفـــى المجمع حدد البابا مصادر تمويل الحملة، حتى لا يحدث ما حدث من قـــبل للحملة الرابعة، وأوجه الإنفاق الضرورية، وكل ما يتعلق بإجراءات مسارها، وضـــرورة اتجاهها إلى مصر لتحطيم "رأس الأفعى" هذه، ومن بين هذه التعليمات الـــتى أقرها أنه "يجب على المشاركين أن يطلعونا على خططهم حتى يتسنى لنا أن نمدهـــم بمندوب بابوى يقدم المشورة لهم. وعلى البطاركة ورؤساء الأساقفة وجميع الكهـــنة أن يحـــثوا الملوك والأدواق والأمراء والماركيزات والكونتات والبارونات وعلـــيه القوم الآخرين، وبالتعاون مع العواصم والمدن والقلاع، .. أن يوفروا عددا ملائما من الجنود بأسلحتهم وعتادهم ومؤنهم التى يحتاجون إليها طيلة ثلاث سنوات قادمة، عوضا عن الذين لا يستطيعون الذهاب إلى الأراضى المقدسة بأنفسهم"[٩٤].

وهـــذه كلهـــا تنبـــئ عن رغبة البابا فى أن يدس أنفه فى كل أمر من أمور الحملـــة، بعـــد أن انـــتهى من مشاكله فى أوروبا ودانت له كلها بالطاعة، حتى لا تتكرر مأساة المحاربين الصليبيين وما جرى لهم فى البندقية من قبل. وحتى يضمن نجاح الحملة فى الخارج فيكتمل الشق الأخير من سيادته على أراضى الشرق، بعد أوروبا والقسطنطينية.

ويـــبدو أن الأقدار كانت رحيمة بإنوسنت الثالث، فمات عام ١٢١٦، قبل أن يشهد النهاية المأساوية التى آل إليها أمر الحملة الصليبية الخامسة فى مصر، والتى يعود الفضل فى جانب منها إلى صلف وغطرسة المندوب البابوى نفسه[٩٥] وكانت حلقة فى سلسلة الفشل المتلاحق لحملات الملوك!

لقد كان "بلاجيوس" المندوب البابوى صورة متجسدة لشخصية وفكر وأهداف وطموحـــات سيده الراحل إنوسنت الثالث، فرغم كونه الزعيم الروحى للحملة، إلا

---

(94) INNOCENT III, Legislates of the Fourth Lateran Council for the fifth Crusade, 30 November 1215

(٩٥) عن الحملة الصليبية الخامسة راجع محمود سعيد عمران، الحملة الصليبية الخامسة، القاهرة ١٩٨٥.

أنـــه أبـــى إلا أن يكون القائد العسكرى لها، ورجل السياسة الذى يدير دفة الأمور أثناء فترة المفاوضات التى جرت بين سلطان مصر الملك الكامل الأيوبى من ناحية وصـــليبى الحملة الخامسة من الناحية الأخرى وضاعت تماما بفعاله شخصية الملك جـــان دى بريـيـــن، الـــذى أمسى من الناحية النظرية فقط، قائد هذه الحملة، ودار الصـــــراع خفـــيا تـــارة وســـافرا تارات أخرى بين بلاجيوس ومؤيديه من التجار الإيطاليـــن أصـــحاب المصالح التجارية الكبرى فى الشام ومصر، ومعهم فرسان الدوايـــة والاسـبتارية، وبين الملك وأنصاره، كانت الغلبة خلال جولاتها كلها من نصـــيب المندوب البابوى، مما دفع جان دى بريين إلى مغادرة دمياط كارها، تاركا ساحة القتال والمفاوضات لبلاجيوس، ولم يعد إلا عندما بدأت الحملة تستعد للزحف جـــنوبا تجـــاه القاهرة، خوفا من أن يناله غضب البابوية!! وكانت عجرفة المندوب الـــبابوى وغروره اللذان فاقا كل وصف سببا رئيسيا فيما لحق الحملة الخامسة من هزيمة مروعة كادت تودى بجنودها أجمعين إلى الهلاك المحقق، لولا رحمة الملك الكامل الأيوبى.

والآن .. جـــاء الـــدور علـــى الإمبراطور فردريك الثانى ليفى بعهوده التى قطعها على نفسه للبابوية، لكن فردريك كان رافضا فكرة الحرب الصليبية كلها من البداية، غير مؤمن بأسبابها، غير مقتنع بجدواها، خاصة وأنه قد نشأ فى أول عمره فـــى صقلية، ووقف على الحضارة الإسلامية المتميزة التى خلفها المسلمون هناك، وتضـــلع فى علوم كثيرة من ميادين المعرفة الإنسانية، وأجاد الحديث بست لغات، كانـــت العربـــية واحدة منها، متسامحا فى عصر طفح بالتعصب، حتى عرف بأنه "أعجوبـــة الدنـــيا" أو "محـــير العالم" "mundi Stupor" ولم يكن يقارنه فى ذلك فى زمانه إلا سلطان مصر الكامل الأيوبى، حتى شبههما كانتروفتش(٩٦) بأنهما وجهين لعملـــة واحـــدة معبرا عن ذلك بقوله: "كان الكامل هو الوجه الشرقى للإمبراطور، بينما كان فردريك هو الوجه الغربى للسلطان".

---

(96) Frederick the Second, p. 185.

لهذا ظل فردريك يسوف فى أمر الخروج حاملا الصليب على امتداد خمسة عشـر عامـا كاملة (١٢١٣-١٢٢٧)، رغم ما قدمته له البابوية من إغراءات مثل تـزويجه مـن يولاند Yolanda وريثة عرش بيت المقدس سنة ١٢٢٥. حتى إذا أصـدر الـبابا جـريجورى التاسع Gregory ضده قرار الحرمان الكنسى فى عام ١٢٢٧ لم يجد بدا من الخروج حاملا الصليب بيمينه واللعنة على كتفيه!

وإذا كـان فردريك قد نجح عن طريق المفاوضات مع نظيره الملك الكامل، فـيما فشل فيه ملوك أوروبا عن طريق الحرب، ورغم الجهود المضنية التى بذلتها الـبابوية فى أوروبا ولدى ملوك الأيوبيين فى مصر والشام، لتحول دون تحقيق أى نجـاح يمكن أن يحرزه الإمبراطور فردريك الثانى، إذ أن البابوية اعتبرت نجاحه فى استرداد القدس ثانية "كارثة صليبية" حلت بساحتها، إذ عادت على يد إمبراطور محروم من رحمة الكنيسة.

لقد كانت البابوية تكره تماما أى نجاح يمكن أن يحققه أى من ملوك أوروبا على الجـبهة الصـليبية، إذا لم يكن يدين بالولاء الكامل لها والخضوع التام لسيادتها، بل لم تكن تتورع أو تتردد مطلقا فى أن تضع بنفسها العراقيل فى سبيل نجاح يمكن أن يحققه خارجـا عن ظل عرشها حتى ولو كان ذلك ضد المسلمين فى الشرق!! فما بالها الآن وهـذا النجاح يتحقق لملك قيدته هى بقيود اللعنة وحرمته من رحمتها.وإذا كانت القدس هـى القيثارة التى عزفت عليها لحن الأمانى قبل أن تقع فى أيدى قوات الحملة الصليبية الأولـى، ثـم راحت تترنم على أوتارها بأنشودة الأحزان بعد أن ضاعت من يديها بعد أن اسـتردها صلاح الدين، فإنها كانت على استعداد تام أن تحطم هذه القيثارة تماما إذا كان بقاؤها سوف يحمل لها الخذلان والصغار؛ فحرمان ملك من رحمة الكنيسة ولعنته يعنى غضب السماء عليه، ولابد أن شعب الكنيسة كله سوف يتساءل .. كيف يمكن أن تبارك السماء ملكا محروما ملعونا، وترضى عن أعماله، فتمنحه - بغير قتال - القدس مديـنة المسيح؟! ومن هنا كانت البابوية تدرك تماما أنها فى موقف لا تحسد عليه، وإلا فـبم نفسـر مراسـلاتها لملوك بنى أيوب ترجوهم ألا يقدموا أى عون لفردريك الثانى طريد رحمتها؟!

مـــن هنا، ودون أى تردد أو حياء، كان لابد أن تعلنها البابوية حربا صليبية طاحـــنة ضد فردريك الثانى. لقد تصورت يوم وفاة أبيه هنرى السادس أنها ودعت الكـــابوس الإمـــبراطورى المتمـــثل فى شخصه بذراعيه المبسوطتين، إحداهما فى ألمانيا والثانية فى جنوب إيطاليا وصقلية. وتبسمت ضاحكة يوم وقع فردريك على وثيقة انفصال صقلية عن ألمانيا وإعطائها لابنه هنرى (السابع)، وظنت أنها نجحت فـــى ذلـــك بعد أن اصطنعت فردريك لنفسها وربته على عينيها. لكن ذلك كله بدا سرابا عندما رأت فكرة العالمية الرومانية التى أرساها فردريك الأول تطل برأسها مـــن جديد فى حفيده وسميه الثانى، وزادت قناعتها عندما أقدم فردريك على تزويج ابنه "إنزيو" Enzio من وريثة عرش سردينيا.

وكـــان هـــذا الـــزواج لطمة قاسية للبابوية، أعاد إلى الأذهان زواج هنرى السادس من كونستانزا! وريثة عرش النورمان فى صقلية. وكانت البابوية – بغض الـــنظر عـــن الاعتـــبارات الاســـتراتيجية – تنظر إلى سردينيا على أنها جزء من ممـــتلكاتها، طـــبقا لهبة قسطنطين المزعومة، وليست شيئا يخص الإمبراطور[97] ولذلـــك كله صممت البابوية على تدمير الهوهنشتاوفن جميعا وليس فردريك وحده، وأعلنتها حربا صليبية ضد كل أفراد هذه الأسرة ومن ينتمى إليها، حتى لقد شبهت هـــذه المرحلة من الحرب بين فردريك وأبنائه من ناحية والبابوية من الأخرى أنها "حـــرب إبادة" Guerre a Qutrance لأن المنتصر فيها لن يرحم المهزوم، وهو ما يحدث بالفعل من بعد.

ولـــم تكن معاهدة سان جرمانو San. Germao التى وقعت بين الطرفين إلا إجـــراء مؤقتا لالتقاط الأنفاس[98] ففى عام ١٢٣٨ كلفت البابوية أساقفة "فيرزبرج" Werzburg و"وورمـــز" Worms و "فرسالى" Vercelli و "بارما" Parma بتدبيج اتهامـــات معينة ضد الإمبراطور، وامتثل الأساقفة للأمر، وقدموا ما عهد به إليهم فى أربعة عشر اتهاما تدور كلها حول هرطقة الإمبراطور وفسقه وفجوره وانتهاكه

(97) Ullman, A short history of the Papacy, p. 257

(98) TREATY of San. GERMANO, 1230

للمقدسات، وحنثه باليمين، وتجديفه، وعدم وفائه بنذره أكثر من مرة. وتناول فردريك كل هذه الاتهامات بالرد والتفنيد(٩٩) ولكن دون جدوى.

وكان مما يزعج روما الآن إلى حد الفزع، أن الإمبراطور أرسل بالأسرى اللومبارديين والمرتزقة التابعين للبابوية إلى روما، بعد انتصاره عليهم عند كورتنوفو Cortenovo ومعهم أعلامهم وأبواقهم، باعتباره إمبراطورا رومانيا، جريا على عادة الأسلاف الأقدمين، وأعلن فى الوقت نفسه عن مشروعات كانت تعد بعيدة المنال، وداعبته الآمال حول إعادة مجد الرومان، وبعث الحياة فى رومولوس Romulus مؤسس روما، واعتزم تقسيم إيطاليا إلى أقاليم جديدة يديرها حكام رومان يعيدوا لها بهاءها المندثر(١٠٠)، وصدقت البابوية، أو لنقل أنها أرادت أن تصدق ذلك خاصة أنها كانت من وجهة النظر القانونية الرومانية العاصمة الفعلية للإمبراطورية التى يرأسها إمبراطور رومانى، وكان هذا تصورا طبيعيا بعد اختفاء الإمبراطورية البيزنطية فى الشرق. وهكذا وجدت البابوية أن الأيديولوجية التى صنعتها بنفسها فى خلق إمبراطور فى الغرب، قد ارتدت الآن إلى نحرها، ولم تكن تملك إلى ذلك دفعا، فهى التى توجت فردريك بيدها إمبراطورا. ولم يكن ليلام إذا ما حاول أن يجعل من هذه الأيديولوجية البابوية حقيقة واقعة(١٠١).

لذلك ما أن وضع البابا يده على الاتهامات التى طلب من قبل إعدادها، ورفض السماع لدفاع فردريك عن نفسه، حتى أصدر على الفور فى عام ١٢٣٩ قرار الحرمان الكنسى من جديد ضد الإمبراطور، وقرنه باللعنة، وضمنت حيثيات القرار ستة عشر بندا(١٠٢) تناولت كل الاتهامات السابقة، وكان من بينها أنه استولى على أراضى الداوية والاسبتارية، وأنه كان عائقا فى سبيل استعادة الأراضى المقدسة، وهذا الأخير تزييف صريح للحقائق .. ولكن البابوية كانت تنظر للأمور من وجهة نظر شخصية، وبفكر صليبى خاص بها.

---

(99) GREGORY IX & FREDERICK II, Papal Charges and Imperial defence 1238

(100) Thompson & Johson, Medieval Europe p. 423

(10) Ullmann, A Short history of the Papacy, p. 257

(102) GREGORY IX, Excommunication of Frederick II 1239

وطفقت البابوية تطلق أساقفتها ورجال أكليروسها فى أوروبا كلها ليحرضوا ناسـها وملوكهـا ضد فردريك، وكان مجمع ليون المنعقد فى عام ١٢٤٥ مظاهرة لتأييد البابوية، تقرر فيه التأكيد على حرمان فردريك. ورغم أن الإمبراطور لم يلجأ إلـى تعييـن بابـا منافس، فقد كان صريحا فى حربه شريفا فى ممارستها، إلا أن الـبابوية استخدمت كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة للقضاء على فردريك، فدبـرت مؤامـرة لاغتـياله فـى إيطاليا، ودفع البابا الجديد إنوسنت الرابع خمسة وعشـرين ألف مارك من الفضة إلى أحد النبلاء الألمان، وهو هنرى أمير ثورنجيا ليقبل التاج بدلا من فردريك، ودفع ستة آلاف مارك أخرى لشراء أصوات الأمراء الناخبين، إلا أن الموت عاجل هنرى، فاختار البابا خلفا له وليم كونت هولندا(١٠٣).

وفـى عـام ١٢٥٠ مـات فردريك الثانى، فتنفست البابوية الصعداء، لكن الحرب الصليبية ظلت مشتعلة ضد ولديه كونراد فى ألمانيا ومانفرد فى صقلية، ثم حفيده كونرادينو Conradino الذى كان صبيا صغيرا لا حول له ولا قوة، غير أن الـبابوية رأت أن مجرد بقاء أى فرد من أسرة الهوهنشتاوفن على قيد الحياة يعنى أن الحرب الصليبية التى أعلنتها ضدهم لم تنته بعد.

---

(103) Thompson & Johnson, Medieval Europe, pp. 247-248

- كل الوثائق التى ورد ذكرها فى الحواشى السابقة موجودة ضمن مجموعات الوثائق التالية:
- Bettenson (H.), Documents of the Christian Church, London 1956 .
- Cantor (N.), The Medieval World 300-1300, London 1968.
- Care (R.) & Coulson (H.), A Source book for Medieval Economic History, New York 1965
- Hinderson (E.F.), Select historical documents of the Middle Aes, London 1925
- Riley – Smith, The Crusades, Idea and Reality 1095 – 1274, Documents of Medieval History, London 1981
- Thatcher (O.J.) & Mc Neal (E.H.) , A source book for Medieval history, New York.
- Tierney (B.), The Crisis of Church and State, 1050-1300, U.S.A. 1964.
- The Middle Ages, vol. I, Sources of Medieval history, New York 1978.

وحتى تصل إلى نهاية إلى هذه الحرب، فقد تم القبض على كونراديـنو من جانب جيوش البابوية وعملائها فى إيطاليا، وسيق إلى نابولى حيث تم إعدامه عام ١٢٦٨.

لقد حققت البابوية فى فكرها الصليبى صعودًا واضحًا. لكنها فى الوقت نفسه منيـت أيضًا بحالة من التخبط بدت جلية فى الفترة التالية. لقد راحت البابوية تبشر بالحـرب الصليبية وتدعو لها ضد المسيحيين مثل فلاحى "ستنيجر" Stedinger فى ألمانيا، الذين رفضوا دفع الضرائب لأسقفهم، ومن قبل ضد الألبجنسيين فى جنوب فرنسا، وقبلها أغمضت عينيها – إلا من احتجاج واهن عما حدث ضد أهالى مدينة زارا Zara علـى يد جنود الحملة الصليبية الرابعة. أو فى الأراضى المقدسة نفسها ضـاعت القدس من بين يديها إلى غير رجعة سنة ١٢٤٤ لصالح نجم الدين أيوب سـلطان مصـر. وفوق هذا وذاك فإن الشعوب الأوروبية نفسها أظهرت نوعًا من الضـجر الذى لا تخطئه العين تجاه الحركة الصليبية عامة، بعد أن راحت تتكشف النوايا الحقيقية للفكر البابوى الصليبى.

وليس أدل على ذلك كما يقول أولمان Ullmann من أنه على الرغم من أن جـريجورى العاشر (١٢٧١-١٢٧٦) ظل يحتفظ ببرنامج صليبى بعد الفشل الذى لحـق بحمـلات لويـس التاسع فى الشرق، وبعد فرض ضريبة صليبية جديدة فى مجمـع لـيون الـثانى سـنة ١٢٧٤، إلا أن الاستجابة الأوروبية لهذا النداء وتلك الضـريبة كانت من الناحية العملية صفرا. ولم تلبث الإمارات الصليبية الباقية فى الشـرق أن راحـت لصـالح المسلمين بعد هذا التاريخ بسبعة عشر عامًا. بل إن التـنازلات الضـخمة التى قدمها الإمبراطوران البيزنطيان يوحنا الخامس ومانويل الـثانى علـى حسـاب العقـيدة والتقالـيد البيزنطـية العريقة، وذلك بالتخلى عن الأرثوذكسية والتحول إلى الكاثوليكية قرباناً على مذبح البابوية، واستعطافاً لمسيحى أوروبـا، من أجل مد يد العون للإمبراطورية لمواجهة المد العثمانى الهادر، لم تلق إلا الأمنيات الطيبة وقبض الريح!!

هكـذا كان الفكر البابوى الصليبى ركنًا هامًا من أركان السمو للحبر الأعظم الـرومانى فـى رحلـة السمو الطويلة التى قطعتها البابوية فى العصور الوسطى،

وحرصت البابوية على أن تجعل من الحرب الصليبية أداة طيعة لتحقيق كل ما كانت تصبو إليه من علو شأن فى مواجهة السلطة الزمنية. ولعل خير تعبير جرى بـه قلم كاتب معاصر، كان هو ما كتبه متى الباريسى تعليقا على ذلك، يقول : "لقد حاول فردريك جاهدا حتى أخريات أيامه أن يقيم السلام بينه وبين البابا، لكن البابا أعلن أنه لن يسمح بعودة الإمبراطور إلى مكانته السابقة تحت أى ظرف من الظروف، ومهما قدم من تنازلات. ويؤكد البعض – والكلام ما زال لمتى الباريسى – أن البابا كان يرغب قبل كل شئ فى تحطيم فردريك وتلطيخ سمعته وسحقه، متهما إياه بأنه التنين الأعظم حتى يتسنى له بعد ذلك تحطيم ملوك إنجلترا وفرنسا وكل ملوك المسيحية، الذين كان يتحدث عنهم باعتبار كل واحد منهم "مليك" (تصغير ملك)، و"ثعبان صغير"، وذلك بعد أن يوقع الرعب فى قلوبهم عن طريق ما يفعله مع فردريك، وبذا يصبح قادرا على إنهاك قواهم هو وأساقفتهم .. كل ذلك من أجل سعادته هو وحده! إن جشعه وحبه الشديد للمال هما السبب فى كل هذه الكوارث.. لقد أغشى المال بصيرته .. إن البابا – وهو الأب الروحى – هو المسئول عن كل هذا القلق والاضطراب الحادث فى العالم، ولم لا ؟ لقد سار على خطى قسطنطين، وترك درب القديسين!!

وبعد هذا كله فإن باحث فى تاريخ الحركة الصليبية لا يستطيع أن ينكر الدور الرئيسى الذى اضطلعت به البابوية على امتداد هذه الحركة؛ فهى التى دعت لها فى البداية، وروجت لها، وكرست جزءا كبيرا من وقتها وجهدها للدعاية لها، وقام البابوات أوربان الثانى ويوجينيوس الثالث وكلمنت الثالث وإنوسنت الثالث وجريجورى التاسع، بإطلاق أبواق دعاياتهم لخروج الحملات من الأولى إلى السادسة على التوالى، ونقل بطرس الناسك الصيحة التى أطلقها أوربان الثانى يقصد بها الأمراء إلى جموع العامة والدهماء فى الحملة الأولى و"أقفرت قرى من ساكنيها" بفعل جهود برنارد مقدم دير كليرفو فى الحملة الثانية. وأعلنت البابوية الغفران التام لما تقدم من الذنوب وما تأخر لمن يحمل الصليب إلى الشرق، وأسبغت نعمها وحمايتها على فرق فرسان الداوية والاسبتارية والتيوتون، وفرضت الضرائب وجمعت الأموال، وأعلنت رعايتها للضياع التى يقلع عنها أصحابها

متجهيـــن إلـــى الأراضى المقدسة من أجل الصليب. هذا كله لا يمكن إنكاره ولكن الـــذى لا يمكن إنكاره أيضا أن هذا كله جرى شريطة أن يكون تحت عباءة البابوية الفضفاضـــة التى أراد لها أصحابها أن تسع العالم كله ولما كان ملوك أوروبا الذين خـــرجوا علـــى رأس جيوشهم فى حملات صليبية، قد فعلوا ذلك خارج هذه العباءة بعيدا عنها، باستثناء ملكى فرنسا لويس السابع وسميه التاسع، وكان لابد أن يشملهم الغضـــب الـــبابوى بدلا من العباءة البابوية، فقد وجدت فيهم البابوية منافسا خطيرا يهـــدد زعامـــتها لعالم المسيحية، فالنصر فى ميدان الصليب إذا تحقق على أيديهم، نســـب لهـــم دون ذكـــر لها، وهذا ما يرفضه تماما الجالسون على عرش القديس بطـــرس فى روما، أو نواب المسيح على الأرض، إذ يجب أن تكون مقاليد الأمور كلهـــا بأيدى هؤلاء، وأن تتجمع بين أصابعهم خيوط اللعبة كلها، ومن هنا كان لابد أن تعلنها البابوية حربا صليبية سافرة ضدهم.

وكـــان الإذلال الذى جرى فى كانوسا لهنرى الرابع والإمبراطورية على يد جـــريجورى الســـابع والبابوية، علامة بارزة فى هذا السبيل قبل أن تبدأ رحلة أول حملة صليبية إلى الشرق الإسلامى بعشرين عاما.

لقد كان الأمراء هم عصب الحياة السياسية والعسكرية فى أوروبا آنذاك فى ظـــل النظام الإقطاعى، وكان الملك يستمد قوته فى الناحيتين من وقوف أمرائه إلى جـــواره، وفـــى تخليهم عنه كان الخسران المبين، ولما كانت فرنسا هى بؤرة هذا النظام، لذا لا نجد غرابة فى أن الحملات كلها انطلقت منها باستثناء السادسة، وكان أمـــراؤها وفرسانها هم الدماء التى تجرى فى عروق الحركة الصليبية، وهكذا كان الأمـــراء فـــى ألمانيا وإنجلترا، من هنا كانت دعوة أوربان الثانى فى جوهرها إلى الأمـــراء، المحاربيـــن، وهى دعوة تعنى فى حقيقتها أيضا سحب البساط تماما من تحـــت أقـــدام الملـــوك، أصحاب السلطة الزمنية، الذين أدركوا هم الآخرون مدى خطـــورة مـــا أقدمت عليه البابوية، فراحوا بدورهم بدءا من الحملة الثانية يعلنون قيادتهم لأمرائهم فى هذه الحملات الصليبية.

هكــذا كانــت الحــروب الصليبية تسير فى اتجاهين .. أولهما الحرب ضد المســلمين فـــى الشرق، ولكل من البابوية والملوك أهدافهم المتباعدة من وراء هذه الحــرب، وثانيهما الحرب التى أعلنتها السلطة الروحية ممثلة فى الكنيسة الرومانية وبابواتها ضد السلطة الزمنية ممثلة فى الإمبراطور والملوك. ولما كانت البابوية قد اعتلــت قمــة جبل السمو فى كانوسا، فقد بات مستحيلا بالنسبة لها التخلى عن هذه المكانـــة، بل أصبح لزاما عليها أن تسعى بكل ما تملك إلى تكريس هذا السمو، وما زالت به حتى جعل البابوات من أنفسهم، ليس فقط خلفاء بطرس، بل نواب المسيح علـــى الأرض، وأعلـــنوها حـــربا صليبية شرسة لا رحمة فيها ولا هوادة، ودون مواربة، ضد أصحاب السلطة الزمنية فى أوروبا. وهكذا – كما قال متى الباريسى – سارت البابوية على خطى قسطنطين، وتركت درب القديسين"!!

الفصل الثالث

المشكلة الإيطالية في السياسة الألمانية

فـــى النصـــف الثانى من القرن العاشر الميلادى، وعقارب الزمن تشير إلى السنة الثانية من ستينيات هذا القرن، كانت خشبة المسرح السياسى فى مدينة روما تعد ليعاد عليها تمثيل فصول مسرحية كان قد جرى إخراجها من قبل بمائة واثنتين وستين سنة على وجه التحديد.

ففـــى ليلة عيد الميلاد لعام ثمانمائة .. أعنى الخامس والعشرين من ديسمبر ســـنة ٧٩٩، تقدم الحبر الرومانى ليو الثالث ليضع على رأس ملك الفرنجة شارل العظـــيم Carolus Magnus (Charlemagne) تاجـــا، وليعلنه إمبراطورا للرومان وكـــان الـــباب ذاك قد تعالى من قبل فى الزمن صراخه، مستغيثا بالملك الفرنجى، مـــتخوفا من ضربات اللومبارد فى الشمال الإيطالى، وعداوات نبلاء الرومان فى مدينة روما ذاتها ولما كان شارلمان يعلم يقينا ما سوف يجره عليه هذا التتويج من خلافـــات قـــد تصل إلى العداء مع أصحاب الحق الشرعى فى التاج الرومانى على شطآن البسفور فى القسطنطينية، فقد أدعى كاتب سيرته ومادحه إينهارد Einhard فى عمله الباقى Vita Caroli أن شارل العظيم لم يكن يعلم عن هذه الناحية شيئا[1] ولـــيس بخـــاف علـــى أحـــد أن شـــارلمان – وأن لم يكن قد خلع على نفسه لقب الإمـــبراطور حتى تلك اللحظة، إلا أنه كانَ يحمل جوهره، ويرفل فى حقيقته نتيجة

---

(١) ناقشت هذه القصية باستفاضة فى تقديمى لترجمتى لكتاب العالم البيزنطى ص ١٦ – ٢٠ ولمزيد من التفاصيل انظر

Einhard, The life of Charlemagne, trans. by: Lewis Thorpe, in (Two lives of Charlemagne by Einhard and Notker stammerar). Penguin Book, 1969; G. Baraclough, The Mediaeval Empire. Idea and Reality.

وقـــد نقلـــه إلـــى العربية وعلق عليه الدكتور جوزيف نسيم يوسف فى كتابه "الدولة والإمبراطورية فى العصـــور الوسطى" ص ٣٨-٤٢، ١٨٣ – ١٨٩. وراجع Bryce, The Holy Roman Empire, pp. 62 - 64 وأيضا: ديفز، شارلمان، ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى، ص ١٧٢ – ١٨٧.

توســعاته فــى فريــزيا وسكسونيا، وحروبه مع المسلمين فى الأندلس، ونشاطاته المتعددة فى الداخل خاصة الميدان الثقافى.

والحقــيقة التى لا مراء فيها، أن المناداة بشارل العظيم إمبراطورا فى الغرب على يد البابوية، كان يمثل التتويج العملى لرحلة طويلة من المودة والتفاهم بين مملكة الفــرنجة الميروفنجــية، ومــن بعد الكارولنجية، والكنيسة الرومانية. بدأت منذ زمن طويــل يعــود إلـــى عهد كلوفيس Clovis فى أوليات القرن السادس الميلادى عندما تحــول الفــرنجة وحدهم – والناس فى ذلك الزمان على دين ملوكهم، إلى المسيحية النيقــية الكاثوليكــية وراء زعــيمهم، دون القبائل الجرمانية الأخرى التى آوت إلى المســيحية الآريوســية، ووجدت لنفسها فيها مستقرا وإيمانا (٢) هذا من ناحية، ومن الأخــرى مسيرة العداء السائر قدما، والتباعد بين كل من روما والقسطنطينية، بفعل التناقضـــات السياســية والاقتصادية والاجتماعية، يسعر لهيبه حمى الخلاف العقيدى الــذى كانــت الحــروب اللايقونية ذروة توهجه، والتى وجدت فيها البابوية فرصتها للخـــلاص مـــن نفوذ ولو ضئيل لسلطة شرعية تتمثل فى أباطرة بيزنطة، إلى كيان تتبادل وإياه مصالح مشتركة، تمنحه التاج، ويقدم لها الحماية والأمان.

والآن .. تــؤدى البابوية بالمهارة نفسها، ذلك الدور، فيبعث البابا الغر يوحنا الــثانى عشر صيحات الاستغاثة إلى الملك الألمانى أوتو الأول السكسونى، بعد أن راح اللومــبارد يهـــددون ممتلكاته فى وسط إيطاليا، ويضيق النبلاء الرومان عليه الخناق داخل المدينة، ويوقعون به الأذى، بعد أن سرى فى المدينة تهتكه وخلاعته مسرى الفضيحة (٣).

---

(٢) انظر للمؤلف الدولة والكنيسة، الجزء الرابع، الفصل الثانى.

(٣) عن شخصية يوحنا الثانى عشر، راجع Stephenson, Mediaeval history pp. 243 – 245
أيضا Strayer and Munro, The Middle Ages, p. 152
ويصفه أورتون Orton بقوله "ليس هناك ذرة من أمل فى انتشاله من فسوقه" انظر C.M.H. VOL. III, P. 161 وعن فساد البابوية بصفة عامة فى القرن العاشر والدور الذى قامت به سيدات المجتمع الرومانى أمثال ثيودورا وابنتها ماروزيا Marosia وسلطاتهم المباشر ونفوذهم فى اختيار البابوات حسب هواهن، راجع Tout, The Empire and papacy, pp. 29 – 30.

وفـــى عـــام ٩٦٢ أتى أوتو الأول روما، وأعاد البابا إلى كرسيه الأسقفى، وأعلـــن بوجـــوده العسكرى فى مدينة القديس بطرس حمايته لراعى الكنيسة فيها، فكـــان جـــزاؤه أن عاد إلى ألمانيا محملا بتاج الإمبراطورية، على غرار ما جرى لشارل العظيم منذ قرن ونصف من الزمان وينيف.

ولـــم تكـــن هذه هى المرة الأولى التى قدم فيها أوتو إلى إيطاليا، لكن مجيئة الســـابق كانت له أسبابه الخاصة بإيطاليا وألمانيا على قدر سواء، ولكن البابوية لم تكـــن صـــاحبة الدعـــوة آنذاك، ذلك أن الفوضى التى ابتليت بها إيطاليا فى القرن العاشـــر المـــيلادى، ووقوعهـــا بين أيدى قوى متعددة تتنازع أمرها على امتدادها الجغـــرافى، كانت من بين العوامل الهامة التى استحثت خطى الملك الألمانى على أن يقـــود جيشـــه عبر الألب باتجاه الشمال الإيطالى، فايطاليا كانت قد أضحت نهبا للطامعيـــن خارجها والعابثين فيها، منذ أقدم الإمبراطور جوستنيان (٥٢٧ – ٥٦٥) على تدمير قوه مملكة القوط الشرقيين فى أوليات النصف الثانى من القرن السادس المـــيلادى. ورغـــم أن خليفته غير المباشر – موريس Maurice (٥٨٢ – ٦٠٢) حـــاول تدعـــيم النفوذ البيزنطى هناك أمام زحوف اللومبارد الذين عصفوا بجهود جوستنيان بعد ثلاث سنوات فقط من وفاته واكتسحوا الشمال الإيطالى، وذلك عندما أقـــدم علـــى إقامة أرخونية رافنا، التى يجمع حاكمها فى يديه السلطتين العسكرية والمدنـــية لمواجهة كافة الاحتمالات إلا أن وجود نائب إمبراطورى يتضاءل كثيرا أمـــام وجود حكومة قوية مستقرة كانت تمثلها مملكة الاوستروقوط. كما أن وسط وجنوب إيطاليا لم يكونا بمأمن من تهديدات المسلمين بعد أن تمت لهم السيطرة فى القـــرن التاسع الميلادى على صقلية، وتعرضت روما نفسها لهجماتهم فى منتصف القرن ذاك. وهكذا باتت إيطاليا، التى لم تعد سوى تعبيرا جغرافيا، موزعة أشلاؤها بيـــن اللومبارديـــن فى الشمال والوسط، والبيزنطيين فى أبوليا Apulia وكالابريا Calabria بينما البابوية يمتد سلطانها على مناطق من وسط إيطاليا وترنو ببصرها إلـــى أبعد من ذلك، والمسلمون يشكلون خطورة لها أهميتها على السواحل الغربية وروما والجزر المجاورة.

فـــإذا أضـــفنا إلى هذا التفسخ السياسى وحالة الضعف والتردى العام فى كل نواحـــى الحـــياة، ثـــراء منطقة لومبارديا، وخصب الريف الإيطالى، وسحر روما القديمـــة بكلاســـيكيتها والوسيطة بمسيحيتها وقديسيها بطرس وبولس، أيقنا أن هذه كلهـــا كانـــت عوامل جذب تستحث أى غاز فيها أو طامع. وفى هذا السبيل بذلت المحـــاولات من ناحية رودلف الثانى Rudolf II ملك برجنديا، عندما تم استدعاؤه فى عام ٩٣٠ من جانب النبلاء الإيطاليين، ثم عاود الكرة مرة أخرى فى سنة ٩٤٧ . بـــل أن دوقـــات ألمانيا أنفسهم رنوا بأبصارهم عبر الألب إلى هذه المنطقة، وفى مقدمـــتهم دوق ســـوابيا لـــيودولف Liudolf ابن اوتو الملك الألمانى، وكذا هنرى المشـــاغب Henry the quarrelsome دوق بافاريا فى عام ٩٥١ طمعا فى توسيع رقعة ممتلكاتهم (٤) .

ولا شك أن هذا الاتساع لممتلكات فصلين إقطاعيين من أفصال أوتو الأول، حتى لو كان أحدهما ابنه. سوف يحمل فى طياته نذر خطر يتهدد سلطانه، ولم يكن أوتو بالذى يقبل بقيام ملكية ضعيفة يصبح هو فيها فقط الأول بين أقرانه Primus inter pares كمـــا تقضـــى سمات النظام الاقطاعى، والملكية الألمانية الانتخابية، ولكـــنه كان حريصا منذ البداية على أن يعيد إلى الأذهان سيرة سلفة العظيم شارل الكارولـــنجى، فـــتلقى تـــاج الملكية الألمانية فى آخن، وأصـــر علـــى أن يكون حفل التـــتويج نموذجا للتبعية المطلقة من جانب أفصاله الإقطاعيين وليس مجرد مراسم شـــكلية تقلـــيدية (٥) ومن ثم لم يتوان أوتو عن العمل ليقف فى وجه أطماع كل من

---

(٤) انظر: Barraclough, The origins of modern Germany, pp. 49 - 51
وأيضا Scott, Medlieval Europe, p. 71.
وكذلك Strayer & Munro, op. cit., pp. 152 - 153.

(٥) فى المأدبة التى أعقبت مراسم التتويج قام الأمراء الألمان، إيرهارد Eberhard دوق فرنكونيا، وهرمان Herman دوق سوابيا. اللورين بالمهام التشريفية ما بين الحجابة وتقديم الشراب ورئاسة الخدم، وكان هذا تقليدا رمزيا من النظام الإطاعى، غير أنة الأيام أثبتت بعد ذلك أن مفهوم أوتو عن الملكية الألمانية يجب أن يبدو على هذا النحو، فكبار الأمراء الألمان لابد يكونوا أفصالا تابعين يعملون فى خدمة التاج، أما دوقياتهم فليست إلا اقطاعا من الملك. انظر:
Thompson & Johnson, An introduction to Medieval Europe, p. 356.
وأيضا Davis, A history of Medieval Europe, p. 216.

ملك برجنديا ودوقى سوابيا وبافاريا، وانتهز فرصة الاستغاثة التى جاءته من أدلهيد Adelheid أرملـــة أحد المتنازعين على عرش مملكة لومبارديا، تطلب فيها عونه ضـــد برنجار Berengar ماركيز ايفريا Ivria وقد حسم أوتو مشكلة الصراع على العـــرش بالـــزواج مـــن الأرملـــة الحســـناء هـــذى، وحمل دون مراسم لقب ملك اللومبارديين وترك برنجار فصلا تابعا له فى شمالى إيطاليا.

وإذا كان دافع أوتو الأول للتدخل فى إيطاليا عام ٩٥١ هو محاولته الوقوف فى وجه دوقى سوابيا وبافاريا، والحد من أطماعهما، فإن هذين لم يكونا أقل حرصا علـــى مبادلـــته المعاملة بالمثل، فقد كان الأمراء العلمانيون يدركون تماما ما الذى يعينه وجود ملك قوى على العرش الألمانى، ولذا فقد أعلنوها حربا أهلية ضروسا، استهدفت فى المقام الأول الإطاحة بأوتو من على العرش، كما استهدفت فى الوقت ذاتـــه حـــياته فاندلعت الثورة وشارك فيها ابنه دوق سوابيا وكونراد دوق فرنكونيا، ودوق اللوريـــن واستمرت قرابة السنوات الثلاث (٩٥٣ – ٩٥٥) حتى تمكن الملك الألمـــانى من إخمادها، وكانت هذه الثورة السبب الرئيسى فى أن يولى أوتو وجهه شطر رجال الاكليروس ليجعل منهم جنده وأعوانه.

علـــى أن النتيجة الرئيسية التى خرج بها أوتو من هذه الأحداث، تمثلت فى سعيه الدائب لتحطيم سطوة كبار النبلاء، وتفتيت الدوقيات الكبيرة، حتى لا يجد فيها أصحابها سندا يحثهم على تحدى السلطة الملكية، بل أن هذه النظرة تخطت الأمراء العلمانيـــن لتمـــتد إلى الاكليروس، ذلك أن السياسة الكنيسة التى تبناها أوتو وسار علـــيها خلفاؤه، وكانت بعينها تلك التى وضع قواعدها الأباطرة قسطنطين (٣٠٦ – ٣٣٧) Constantinus I وثيودوســـيوس (٣٧٨ – ٣٩٥) Theodosius وجوستنيان (٥٢٧ – ٥٦٥) Iustinanus والـــتى إذا كانـــت تعـــترف بحق الكنيسة فى مناقشة المسائل العقيدية ووضع نظمها، فإنها مع ذلك تظل مجرد هيئة حكومية شأنها شأن بـــاقى الهيـــئات الأخرى تحت سلطان الإمبراطور الذى عد نفسه مسئولا مسئولية مباشـــرة أمـــام الله. ثم أليس بيبن الأول Pepin I هو الذى دافع عن البابوية، وعن طريق هبته الشهيرة نشأت الدولة البابوية؟ ألم يكن شارلمان وخلفاؤه هم الذين حموا

البابوات وأثروا الكنيسة؟ ومن ثم فرجال الكنيسة، شأن الموظفين العلمانيين، ليسوا إلا رعايا الإمبراطور، انطلاقا من إعطاء ما ليقصر لقيصر (٦). وفى المقابل كانت الكنيسة ترفض أى سلطان دنيوى عليها فهى قد نشأت دون مساعدة أحد، وكثيرا ما كتب آباؤهم وعلى رأسهم أوغسطين Augustinus أن المؤسسات السياسية كانت النتيجة التلقائية لخطيئة آدم (٧).

وبناء على ذلك، يمكننا أن نفسر الخلاف الذى وقع بين كل من أوتو الأول وابنه غير الشرعى الذى كان أسقفا لمينز Mainz، عندما حاول الملك الألمانى التدخل فى شئون الكنيسة هناك، فرفع الأسقف الابن الأمر إلى البابوية فى روما. وهناك أدرك أوتو أن أياديه البيضاء على الكنيسة الألمانية ما زالت قاصرة عن تحويل الولاء الكامل لرجال الاكليروس إليه، وأيقن الرجل أن الكنيسة الألمانية ليست بمعزل عن الكنيسة الأم فى روما، وأنها ليست مستقلة الشأن، ولذا فقد آمن أن عليه إذا ما أراد السيطرة على الكنيسة الألمانية بعامة أن يبسط سلطانه أولا على الكنيسة الرومانية، أو بتعبير آخر، فإن الطريق إلى الاكليروس الألمانى يبدأ من روما.

وواتت أوتو الفرصة عندما استدعته الأحداث فى روما نفسها، ممثلة فى رجاء البابا يوحنا الثانى عشر أن يخف لنجدته من مضايقات برنجار وطموحه الذى يهدد الأملاك البابوية. ورغم أن يوحنا كان يلح فى طلبه منذ عام ٩٥٧، إلا أن أوتو كان مشغولا عن البابا بنفسه، يحاول تثبيت دعائم سلطانه، والقضاء على المؤامرات التى كانت تبتغى رأسه، فلما أفاق كان عليه أن يسرع الخطى إلى روما ليجيب البابا إلى مطلبه وليحقق فى المقام الأول سيادته على رأس الكنيسة الرومانية.

---

(٦) انظر : Stephenson, op. cit., p. 247

(٧) انظر : Pirenne, A history of Europe, pp. 136 - 7; 184-5.

وراجع: Augustinus, De Civitata Die, XXII, 22

وكذلك: Paoluci, The political Writings of St. Augustinus, pp. 1-183

وفــى فبراير ٩٦٢، وفى نفس المكان الذى توج فيه شارلمان من قبل مائة واثنتيــن وســتين سنة تلقى أوتو الأول الملك الألمانى، من يد يوحنا الثانى عشر، البابا الرومانى، تاج الإمبراطورية. وهذه الحادثة تشير بما لا يدع مجالا للشك إلى أن أوتــو الأول راح يســلك ســبيل سـلفه العظيم شارل، أو على حد تعبير أحد المؤرخيــن الألمــان، أن الملكــية الألمانــية كانت موجهة إلى السير على درب الثيوقراطــية الكارولنجــية [٨] مع فارق لا يخفى شأنه، هو أن الكارولنجيين عملوا علــى جعــل الدولـــة هيــئة دينية، بينما حاول أوتو أن يجعل من الكنيسة مؤسسة دنيوية[٩].

علــى أنـــه ممـــا تجدر الإشارة إليه بادئ ذى بدء، أن أوتو الأول جاء إلى إيطالــيا بدافع من المصالح الألمانية فى المقام الأول، وأن ظروف ألمانيا الداخلية، ومحاولته المستميتة إقامة ملكية ألمانية قوية، يجلس على عرشها ملك مقتدر، يحنى له الأفصال من العلمانيين والاكليروس، الهام إجلالا وتوقيرا، كان الباعث الرئيسى وراء مقدمـــه على التدخل فى المشكلات الإيطالية. وإذا كانت الدعوة قد جاءته من الــبابوية، فــإن الدافــع كان كامنا فى ألمانيا. خاصة وأنها كانت فى القرن العاشر المــيلادى تفــوق بكثــير جاراتهـــا، وأصبحت ذات مركز مرموق فى قيادة عالم المســيحية فــى الغــرب الأوروبى [١٠] ومن ثم فلا مجال هنا لما يرمى به بعض

(8) Joachimsen, The investiture contest and the German Constitiutions, p. 98.
(9) Pirenne, op. cit., pp. 136 – 7, 184 – 185.
(10) Mayer, The histoeical foundations of the German Constitutions.

والحقيقة أن ألمانيا كانت أسعد حظا من فرنسا وانجلترا فى القرنين التاسع والعاشر، ففى فرنسا بعد عزل شارل السمين سنة ٨٨٧ دخلت فرنسا فى حرب أهلية لمدة قرن بين أفراد البيت الكارولنجى وأمراء باريس، بينما تحطمت إيطاليا تحت ضربات النبلاء، وعانت انجلترا الكثير من هجمات الدانيين بعد وفاة الفرد العظيم سنة ٩٩٨ وخاصة فى النصف الثانى من القرن العاشر وأوليات سنى القرن الحادى عشر، هذا فى الوقت الذى أقدم فيه الأمراء الألمان على اختيار أرنولف الحفيد غير الشرعى للويس الألمانى، ورغم أن هذا أدى إلى إحياء التقليد الجرمانى القديم الخاص بحق اختيار الزعيم، وقائد إلى تقوية نفوذ النبلاء وأضعاف سلطان الملكية على الذى طويل، إلا أنه أعطى ألمانيا حكما قويا. وقد عاد الأمراء الألمان إلى ممارسة حقهم ثانية سنة ٩١١ بعد وفاة لويس الطفل واختاروا كونراد دوق فرنكونيا. انظر:

Barlow, The feudal Kingdom of England, pp. 1-3

وأيضا Strayer & Munro, op. cit., pp. 147 – 149.

وكذلك C.M.H. Vol III, pp. 311, 323 – 325.

المؤرخين أوتو من لوم معتبرين إياه قد إنساق بذهابه إلى إيطاليا وراء تحقيق مكاسب شخصية وسمعة ذائعة يعيد بها لنفسه ذكرى سلفه العظيم شارل (١١) وإن كان هذا لا ينفي أن أوتو الأول هو الذى وضع أسس سياسة الارتباط الكامل بين إيطاليا وألمانيا، لقرون طويلة سواء فى القوة أو الضعف (١٢) وما ترتب على ذلك من عواقب وخيمة لهذه وتلك.

فلقد كان حمل لقب "امبراطور الرومان" يثير من الناحية القانونية مشكلة تستعصى على الحل، فهذا اللقب وإن كان بصورة أخرى – أعنى "الامبراطور الرومانى" يحمله الأباطرة الرومان الشرعيون فى القسطنطينية، وليس لأحد أن ينافسهم فيه. فسلسلة الأباطرة هناك لم تنقطع ابتداء بأوكتافيانوس أوغسطس فى روما القديمة، إلى قسطنطين العظيم فى روما الجديدة، وصولا إلى الجالس على العرش آنذاك فقفور فوقاس Nicephorus Phocas والنظرية السياسية الرومانية لا تعترف أبدا بوجود إمبراطوريتين رومانيتين، بل هى إمبراطورية واحدة، حتى وأن جلس على عرشها أربعة أو ثلاثة أو اثنان، بل وأن تنازع على هذا العرش ستة أباطرة (١٣).

وليس أدل على ذلك من أن المعاصرين الجرمان، وهم أعداء الإمبراطورية، البعيدون حضاريا عن سمتها، قد أدركوا هذه الحقيقة فى جلاء، ويتضح هذا مما أقدم عليه القائد الجرمانى أودواكر Odovacar فى عام ٤٧٦ عندما عزل روملوس Rumulus Augustulus آخر أباطرة النصف الغربى من

(11) Stephenson, op. cit., pp. 245 – 247.
Ch. Brooke, Europe in the Central Middle Ages, p. 163
ودكتور سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى. جـ١ ص٢٧٥.

(12) Tout, op. cit., p. 32.
وأيضا Pirenne, op. cit., p. 139.

(١٣) على عهد الإمبراطور دقلديانوس كان يحكم الإمبراطورية أوغسطسان وقصيران، وهو النظام الرباعى Tetrachia الذى وضعه دقلديانوس، ولما توفى قسطنطين عام ٣٣٧ خلفه أبناؤه الثلاثة، بينما خلف ثيودوسيوس سنة ٣٩٥ أبناه اركاديوس فى النصف الشرقى وهونوريوس فى النصف الغربى، أما الأباطرة الستة الذين تنازعوا على عرشها فقد كان ذلك فى عام ٣٠٨ بعد اعتزال دقلديانوس سنة ٣٠٥

الإمبراطورية، وبعث بتاجه وصولجانه مع وفد من السناتو الرومانى، إلى إمبراطور النصف الشرقى مبعوثيه فى القسطنطينية، زينون Zeno وراح يوضح على لسان مبعوثيه أن الإمبراطورية يكفيها الآن وجود حاكم واحد على عرشها هو القائم بالفعل على شطآن البسفور فى مدينة قسطنطين، ويطلب إليه أن يعتبره نائبا عنه فى حكم إيطاليا. وبغض النظر عن النتيجة التى انتهى إليها أمر أودواكر وموقف زينون منه، فهذا بلا شك يعد اعترافا صريحا من جانب أحد زعماء الجرمان بوحدة الإمبراطورية. ولم يدر بخلد أودواكر، وكان باستطاعته ذلك، ولا بخلد غيره من زعماء بنى جنسه، أن يعلن من نفسه إمبراطور منافسا أو حتى شريكا، وكان بمقدورهم جميعا أن يفعلوا ذلك بعد أن أصبحت بيدهم مقاليد الأمور فى شطرى الإمبراطورية عقيب وفاة ثيودوسيوس عام ٣٩٥ (١٤).

وهكذا لم يجرؤ أحد من الجرمان على أن يفعل ذلك حتى عندما تساقطت ولايات النصف الغربى للإمبراطورية فى أيديهم إبان القرن الخامس الميلادى وطوال قرون آتية. ومن ناحية ثانية فإن الحروب العسكرية التى خاضها الإمبراطور جوستنيان Iustinianus (٥٢٧ – ٥٦٥) على امتداد ربع قرن من الزمان لاستعادة ولايات الغرب هذى الضائعة، خير دليل على حرص الأباطرة الرومان على تحقيق النظرية السياسية الرومانية القائلة بالإمبراطورية الواحدة. ولم يكن خلفاء جوستنيان أقل "رومانية" منه فى هذا السبيل وإن اختلفت أساليبهم السياسية عن سلفهم العظيم.

وهكذا أحجم الجرمان فى ضوء (وعيهم) بوحدة الإمبراطورية عن إقامة إمبراطور من بينهم فى الغرب، ولكن البابوية اجترأت عندما توجت الجرمانى الفرنجى شارلمان إمبراطورا، متحدية بذلك مشاعر الأباطرة الرومان فى القسطنطينية. ولعل هذا هو الذى دعا كاتبه ومؤرخه إينهارد Inhard أن يذكر فى كتابه "حياة شارل" Vita Caroli عدم معرفة الإمبراطور مسبقا بمسألة التتويج،

---

(١٤) كان ستيلكو الجرمانى هو القائد العام لجيوش الإمبراطورية ومقره فى الغرب "ميلانو" حيث توفى ثيودوسيوس. بينما آلت إلى زميله جايناس الجرمانى الأومر فى القسطنطينية.

رغم ما فى هذا القول من مغالطة واضحة [١٥] كى يظهر سيده بمظهر الذى لم يكن طامعا فى شئ من ذلك، حتى لا يجر على دولته عداء القسطنطينية.

والبابا فى روما – بعمله هذا – تخطى حدود سلطانه الروحى وراح يمارس سلطات زمنية غير قانونية، فهو من الناحية الرسمية واحد من رعايا الإمبراطور، لكنه لمنافع دنيوية ومصالح شخصية [١٦] ولعدوات طويلة بين روما والقسطنطينية، زادهـا ضراما تأجج نيران العداء تجاه الأيقونات الذى حمل الأباطرة الأيزوريون والعموريون مشعلة، ووقوف روما معارضة متحدية، كل هذا دفع البابوية كى تتوج جرمانـيا إمبراطورا للرومان. وكان هذا – أعنى لقب "إمبراطور الرومان" وليس "الإمـبراطور الـرومانى" بالألف واللام والنسبة، هو الذى حمله شارلمان. وحتى علـى هذا النحو لم يحظ شارل العظيم إلا باعتراف واهن فى عام ٨١٢ من جانب الإمـبراطور ميخائـيل رانجـاب Michael I Rangabe نتـيجة لظروف سياسية عصـيبة كانت تعانيها الإمبراطورية البيزنطية، ولم يكتب لهذا الاعتراف أن يرى دائرة الضوء لأن مجلس السناتو فى القسطنطينية لم يصدق عليه، ولم يلبث الموت أن اختفى بشارلمان من الحياة [١٧].

ومـن ثم فإن الإمبراطورية البيزنطية وهى فى أوج قوتها وإزدهارها زمن المقدونيين، عصرها الذهبى، لم تكن أقل حرصا على بقاء اللقب الرومانى من حق أباطـرتها وحدهم دون غيرهم. وكان أوتو الأول يعلم هذه الحقيقة تماما، حتى أن لقـبه التقليدى ظل دائما "الإمبراطور العظيم" Imperator Augustus ولم يرد ذكر روما فيه، ولذا كان هذا اللقب مجرد منصب شخصى فحسب. ومع ذلك فإن عملية التـتويج وما تبعها من التدخل الرسمى فى شئون إيطاليا، وضعه وجها لوجه أمام الامـبراطورية الرومانـية "البيزنطية" فى وقت كانت آخذة فى الصعود والاستعداد للتوسع والعودة إلى الغزو تحت قيادة نقفور فوقاس [١٨].

---

(15) Einhard, The life of Charlemagne, 28.
(16) Ibid, 28.
(17) Ibid, 17.

(١٨) جوزيف نسيم يوسف، الدولة والإمبراطورية، ص ٢٠٦.

ومــــع ذلك فقد كان واضحا بصورة جلية أن من المستحيل أن تحتفظ بيزنطة بمركـــز قـــوى لها فيما كان يعرف واقعا بالجزء الغربى pars Occidentalis أمام قـــوة المسلمين فى الجنوب الإيطالى وعداء الملوك السكسون، الأباطرة الجدد، ولذا ســـعت للحفـــاظ على الحالة الراهنة status que هناك، وشرع الإمبراطور باسل الـــثانى فـــى تنظيم الحكم البيزنطى فى ولايتى إيطاليا الجنوبيتين اللتين اتحدتا الآن تحـــت ســـيطرة حاكم واحد يعرف باسم قطبان Catapan لا يختلف عن الاكزارك ويجمـــع فى يديه السلطتين المدنية والعسكرية (١٩). ورغم أنه كان أمر بعيد المنال أن يقـــوم فـــى الغرب شبيه لتلك الإمبراطورية الرومانية Imperium Romanum القامـــة فـــي القســـطنطينية. إلا أن خلفاء أوتو الأول، خاصة سمييه، ولده وحفيده، وهـــنرى الـــثانى، انتهزوا فرصة الظروف الصعبة للإدارة البيزنطية فى إيطاليا، وحمـــل أوتو الثانى لقب إمبراطور الرومان وأصبح ملازما له لا يفارقه، وظهرت عبارة "الإمبراطورية الرومانية" فى المكاتبات الرسمية زمن هنرى الثانى وكونراد الـــثانى (٢٠). وبـــات الفـــرق واضحا بين سياسة أوتو الأول الذى جاء إلى إيطاليا لدوافـــع ألمانية، وسياسة خلفائه الذين استهوتهم فكرة "الإمبراطورية"، أو على حد تعبير المؤرخ باراكلاف هو الفرق بين السياسة "السكسونية"لاوتو الأول، والسياسة (الرومانية) لخلفائه (٢١).

وإذا كـــان التدخل الألمانى فى إيطاليا ومشكلاتها العديدة، حتى غدا الارتباط بيـــنهما وثـــيقا، قد أغرى الأباطرة الألمان باصطراع مع "بيزنطة" حول "رومانية" الإمـــبراطورية فـــى الغـــرب، فإن الرغبة الشديدة فى الوصول إلى حوض البحر المتوســـط، وهى منطقة لها أصالتها الحضارية، كان باعثا قويا لزيادة حدة الصراع مـــع القسطنطينية، صاحبة السيادة الآن أعنى القرنين العاشر والحادى عشر، على حـــوض البحر المتوسط الشرقى بعد انحسار موجة المد الإسلامى فيه آنذاك. وهذا كلـــه يفســـر المحـــاولات العسكرية التى قام بها أوتو الأول وولده أوتو الثانى فى

---

(١٩) هسى: العالم البيزنطى، ص ١٥٣ – ١٥٤.
(٢٠) جوزيف نسيم يوسف، المرجع السابق. ص ٢٠٨ – ٢٠٩ وأيضا،
Bryce, op. cit ., pp. 142 – 146.
(21) The origins of modern German, p. 62.

جـنوب إيطاليا من أجل فرض السيطرة الألمانية على هذه المنطقة، وتوسيع حدود "الإمبراطورية" على حساب البيزنطيين والمسلمين على السواء غير أن هذه الجهود باءت بالفشل، بل ولقى أوتو الابن هزيمة مروعة عند خليج كولون سنة ٩٨٢ على يـد المسلمين، أفلت منها هو نفسه بصعوبة بالغة. وكانت هذه الهزيمة كارثة فادحة لحقـت بالإمـبراطورية الألمانـية، ظهر أثرها واضحا فى أنها قضت لمدة قرنين تاليين علـى طمـوح الإمـبراطورية الغربية فى السيطرة على وسـط إيـطاليا وجنوبها [٢٢].

ولم تحل المناوشات العسكرية بين الطرفين دون بذل الجهود الدبلوماسية بين الإمبراطوريتين، فدارت المفاوضات بين الطرفين زمن أوتو الأول ونقفور فوقاس، تضـمنها ذلك التقرير Relatio de Legatione Constantinopliana الذى وضعه ليوتبراند Liutprand أسقف كريمونا Cremona مبعوث الإمبراطور الألمانى [٢٣]، والـذى يتسم بالحقد والسخرية اللاذعة تجاه البيزنطيين الذين لم يستقبلوا الأسقف – فـى اعـتقاده – بمظاهر الحفاوة والتكريم اللائق به. وقد استمرت هذه المفاوضات علـى عهد يوحنا تزيمسكس Iohannes Tzimisces وكان أقصى ما استطاع أوتو الحصـول علـيه، زوجة بيزنطية تدعى ثيوفانو Tcheophano لابنه ووريثه أوتو الـثانى، وهـى تنـتمى لأسـرة مـن كـبار ملاك الأراضى، وليست من البيت الإمبراطورى كما كان يشتهى.

وقد ساهمت التغيرات السياسية التى طرأ على خريطة المنطقة فى إزدياد ما بـدا أنه تقارب ودى بين الإمبراطوريتين، ذلك أن النورمان وقد ورثوا البيزنطيين والمسـلمين على السواء فى جنوب إيطاليا وصقلية فى القرن الحادى عشر، ورثوا أيضـا العـداء التقلـيدى تجاه الإمبراطورية الألمانية، ومن ثم أدرك الطرفان أن

---

(٢٢) M.H. Vol. III, 169 –170. وأيضـا دكـتور سعد عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ص ٢٧٩ وكذلك دكتور إبراهيم طرخان، المسلمون فى أوروبا فى العصور الوسطى، ص ٢٦٤ وأيضا:
Vasiliev, op. cit. I. p . 328.

(23) Liurptand of Cremona, report, in (Cantor, Med. World pp. 166 – 176)

علـيهما أن يعمـــلا معا ضد عدوهما المشترك، وظهر هذا واضحا فى عدة أمور مـنها، زواج الإمبراطور مانويــل كومننــوس Manuel Comnenus (١١٤٣ - ١١٨٠) مــن بــرتا Bertha من سولزباخ Sulzbach أخت زوجة كونراد الثالث Conrad III (١١٣٩ - ١١٥٢) وهــى الــتى عرفــت باســم الإمبراطورة إيرين Lreme عــند اقترانها بمونويل [٢٤]. وأدى هذا الزواج السياسى إلى زيادة التقارب بيــن الرجليــن خاصـــة بعد فشل الحملة الصليبية الثانية التى قادها كونراد الثالث بالاشـــتراك مـــع لويس السابع ملك فرنسا، فقد تم عقد اتفاقية سالونيك بين مانويل وكونراد الثالث ١١٤٨، تعهد فيها الأخير برد إيطاليا إلى الإمبراطور كبائنة لايرين (بــرتا). وإن كانت هذه الفقرة من المعاهدة قد اختفت من المصادر الغربية. وتدور أهميــتها أساســا حــول ما تعنيه كلمة "إيطاليا"، هل تعنى جنوب إيطاليا فحسب أم إيطاليا كلها؟ [٢٥].

غــير أن فــترة العســل القصــيرة هذه سرعان ما انتهت باعتلاء فردريك بربارو ســا Fredrick Barbarossa عرش ألمانيا، فقد كان الرجل يطمح فى مملكة الــنورمان فـــى صقلية وعرش القسطنطينية على السواء. ولذا نراه يتفق مع البابا يوجنيوس الثالث Euginius III على عدم التخلى عن "أية منطقة" على هذا الساحل "لملك اليونان" Rex Grecorum وهى التسمية التى كان يحلو لفردريك الألمانى أن يخلعهــا على إمبراطور القسطنطينية، بل أن هذا اللقب جرى استخدامه من جانب الأباطــرة الألمـــان، كمـــا يتضح من الرسالة التى بعث بها كونراد الثالث ليوحنا كومنــنوس ســـنة ١١٤٢ [٢٦] ومـــع ذلك فقد حاول الإمبراطور البيزنطى مانويل

---

(٢٤) كانت المفاوضات قد جرت بشأن هذه الزيجة بين يوحنا كومننوس (١١١٨- ١١٤٣) وكونراد، حيث طلب الأول إلى الأخير أن يختار من بين الأميرات الألمان زوجة لابنة مانويل انظر:

Letter of Conrad III to the "Greek emperor John Comnenus 1142

(٢٥) هسى، العالم البيزنطى، ص ١٩٣ وقارن

Ch. Brooke, op. cit., pp. 373 – 4.

(26) Letter of Conrad III to the Greek emperor John Camnenus, 1142; Letter of Frederick I. To Eugene III.

كومنـــنوس أن تظـــل روابط المودة قائمة بين الدولتين، فعرض عليه التحالف ضد النورمان فى الجنوب، لكن هذه المحاولة ذهبت سدى، وإن كان السفير البيزنطى قد نجـــح بدبلوماســـيته وأموالـــه فى ضم عدد من المدن على رأسها أنكونا Ancona والمتمرديـــن الـــنورمان، وأخـــيرا الـــبابوية، ممـــا عـــدة فردريك خرقا لاتفاقية كـــونستـــانس [٢٧].

أمام هذا التغير فى السياسة الألمانية، شن مانويل هجومه على جنوب إيطاليا منـــتهزا الفرصـــة الـــتى قدمها له الثائرون النورمان عقب وفاة روجر الثانى سنة ١١٥٤، غـــير أنـــه لم يحقق نجاحا معينا، بل أزدادت حدة العداء تجاه القسطنطينية مـــن جانـــب فـــردريك بربـاروســـا الذى راح يشجع سلطان قونية السلجوقى على المجاهـــرة بـــالعداء للإمبراطور البيزنطى، حتى إذا لقى هذا الهزيمة القاسية عند ميريوكـــيفالوم Myriocephalum فى آسيا الصغرى سنة ١١٧٦ كتب فردريك إليه رســـالة تقطر احتقارا وتومئ إلى ضرورة خضوع "ملك اليونان" Rex Grecorum للإمـــبراطور الرومانى، يعنى نفسه، وأعلن فردريك نفسه وريثا للأباطرة الرومان، وادعـــى أن ذلك يتضمن السيطرة على المملكة اليونانية Regnum Greciae[٢٨] بل أن فردريك بربـاروسا تمادى فى سياسته، فكتب إلى ابنه وخليفته فى ألمانيا، هنرى الســـادس، وهو فى الشرق يقود جحافله ضمن قوات الحملة الصليبية الثالثة، يأمره بإعداد حملة جديدة تستهدف القسطنطينية ذاتها، ورغم أن هذا لم يتحقق إلا أنه يدل علـــى مـــدى العـــداء بين الإمبراطورية البيزنطية وإمبراطورية الألمان. غير أن الظـــروف السياســـية التى راحت تعانى كل منهما منها بإعدت بين عدائهما. إذ لم تمـــض ســـنوات قلائل على وفاة فردريك بربـاروسا (١١٩٠) حتى دهمت جحافل اللاتيـــن جـــنود الحملة الصليبية الرابعة، القسطنطينية عام ١٢٠٤، فخرجت بذلك الإمبراطورية البيزنطية من العاصمة لتقوم فى نيقية وابيروس وطرابيزون، ولتحل محلهـــا إمـــبراطورية لاتينـــية حـــتى عـــام ١٢٦١ عـــندما تمكن ميخائيل الثامن

---

(27) Z. N. Brooke, op. cit., pp. 292 – 294.

(٢٨) هسى، العالم البيزنطى ص ١٩٧.

بالـيولوجوس Michael VIII Palaeologus حاكم نيقية من استعادة القسطنطينية. بيـنما دخلت إمبراطورية الألمان فى صراع عنيف مع البابوية حول مشكلة التقليد العلمانى وما تبعها من النزاع على السيادة العالمية، بالإضافة إلى المحاولات الجادة الـتى بذلتها أسرة الهوهنشتا وفن Hohenstaufens فى ألمانيا للسيطرة على مملكة الـنورمان فـى صقلية وجنوب إيطاليا، مما يشكل خطرا جسيما على نفوذ الباوية وسلطانها وسط إيطاليا.

وكانت البابوية قد اعترفت فى اتفاقية ملفى Melfi التى عقدت سنة ١٠٥٩، بيـن نيقولا الثانى Nicholas II من ناحية، وزعيم النورمان، ريتشارد دوق أفرسا Aversa وروبـروت جويسـكارد بشـرعية حكم النورمان لجنوب إيطاليا، مقابل اعـترافهم بالتبعـية للبابوية ودفع جزية سنوية (٢٩) ولقد جاء هذا نتيجة لفشل البابا الـراحل لـيو التاسـع فى التصدى لطموحهم، وهزيمته على أيديهم عند كيفيتاتى Civitate عـام ١٠٥٣ وأسره لديهم بضعة شهور. كما أن البابوية وجدت فيهم – ربمـا – حلـيفا طبيعيا ضد أعدائها من النبلاء الرومان فى روما، وعدوها اللدود، الإمـبراطور الألمـانى. وبتعبير أدق فقد وجدت فيهم إلى جانب أسلحتها الروحية "الحـرمان والمصـادرة" سـلاحا زمنيا فتاكا، بما لهم من قوة عسكرية ترهب بها أعداءهـا. وتمـثل هذا بصورة واضحة عندما استنجد بهم البابا جريجورى السابع للتصـدى لقـوات هـنرى الرابع التى فرضت حصارها على روما وهاجمتها عدة مـرات فـى الفـترة مـا بين عامى ١٠٨١ – ١٠٨٤، وإن كان النورمان، حلفاء الـبابوية، لـم يـرعوا للمديـنة حـرمة، فاستباحوها وعاثوا فيها فسادا، مما دفع جـريجورى السابع إلى الارتحال فى حمايتهم جنوبا فرارا من الغضب المتأجج فى صدور رعيته الرومانية تجاهه باعتباره المسئول الأول عما فعله حلفاؤه النورمان.

---

(29) Oath of Robert Guiscard to Nicholas II 1059.

ولمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث .. انظر.

Haskins, Th Normans in European history, pp. 202 – 204.

ولـم تلبـث هـذه العلاقات الودية أن تحولت إلى تحالف رسمى بين البابا هادريـان الـرابع ووليم الأول ملك صقلية سنة ١١٥٦، كانت أهم سماته اعتراف الـبابوية بحق الملك النورمانى فى الأشراف على عملية اختيار رجال الاكليروس فى مملكته (٣٠) وهو الحق الذى تدعيه البابوية لنفسها، وتناضل من أجله ضد ملوك ألمانيا طيلة أربعة قرون كاملة (من العاشر حتى الثالث عشر)، نعنى مشكلة التقليد العلمـانى ثـم السيادة العالمية. ويمكن القول بصورة واضحة أن هذا التحالف كان موجهـا بصفة رسمية إلى فردريك الأول بربروسا، الإمبراطور الألمانى، الذى لم يكن طموحه يخفى على ملوك النورمان فى صقلية، ولا خطره يغيب عن البابوية. خاصـة وأن فـردريك كـان يعتبر أقاليم جنوب إيطاليا وصقلية جزءا من مملكته الألمانـية، ممـا دفعه إلى إبداء معارضته واحتجاجه لدى هادريان الرابع على هذا الـتحالف، معتـبرا إياه نقضا لشروط معاهدة كونستانس Constance التى وقعت بيـنهما عام ١١٥٣ وتجاهلا لإدعاءاته هذه (٣١). غير أن هادريان الرابع كتب إلى فـردريك رسـالة مطولـة دحـض فـيها هذه الاتهامات، وأبان عن أن اتفاقه مع الـنورمان لا يعـنى إهانة موجهة إلى الملك الألمانى "لأن الأراضى التى يسيطر علـيها وليم، ليست من حق فردريك، بل هى ممتلكات البابوية" (٣٢) مشيرا إلى ما جاء فى اتفاقية "أمالفى" باعتبار الممتلكات النورمانية فى الجنوب إقطاعا بابويا.

---

(٣٠) راجع نص الاتفاقية فى

Thatcher & McNeal, A Source Book for Mediaeval history, pp. 181 – 183.

(٣١) مـن المعـروف أن نص المعاهدة لم يتضمن شيئا مطلقا عن حقوق الملك الألمانى فى جنوب إيطاليا وصقلية، راجع نص المعاهدة فى

Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 178 – 180.

(٣٢) راجع نص الرسالة فى

Tierney, The crisis of church and state pp, 105 – 106.

وأيضا : Thatcher & Mcneal, op. cit, pp. 183 – 185.

وهـذه الرسالة ذات مدلول هام فى تاريخ الصراع الطويل بين البابوية والإمبراطورية، فقد تضمنت كلمة Beneficia والـتى فسرت فى حضرة الإمبراطور فى بيزانسون Besancon سنة ١١٥٧ على أنها تعنى كـون الإمـبراطورية "إقطاعا" للإمبراطور، وكاد المندوب البابوى يلقى حتفه على يد أنصار فردريك لولا تدخل الأخير بنفسه لمزيد من التفاصيل أنظر:

ورغم ذلك لم يتخل فردريك بربا روسا لحظة واحدة عن ادعاءاته فى جنوب إيطاليا وصقلية وتمكن من أن يحقق نجاحا كبيرا فى هذا الميدان عندما حظى بالأميرة كونستانس Constance ابنة وليم الثانى وريثة عرش النورمان، زوجة لابنه هنرى السادس، فكسب لنفسه بهذه الزيجة مكانة، ولدولته اتساعا، ولسلطانه امتدادا. ولكن هذا كله لم يمر هكذا حسبما تشتهى نفس فردريك الطموحة، فجرت الظروف السياسية فى المنطقة على غير ما كان يتمنى هى أو خلفاؤه، ذلك أن الارتباط الوثيق بين ألمانيا وجنوب إيطاليا وصقلية كان يعنى للبابوية وقوعها بين شقى الرحى، وهو ما كان من المستحيل على البابوية تقبله. ولما كان طبيعيا أن يعض الملوك الألمان على ما اكتسبوه بالنواجز، وتبذل البابوية الجهد، كل الجهد، فى سبيل الحيلولة دون نجاحه، جرى النزاع سافرا أحيانا، خفيا أحيانا أخرى، بين الطرفين ليزيد حمى الصراع والعداء بينهما إلى درجة أسفرت فى النهاية – كما سنرى – عن تحطيم الإمبراطورية.

ولم يكن من السهل نجاح هذا الارتباط بين المملكتين الألمانية والصقلية، للظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية المختلفة عند كل منهما، والميراث الحضارى الماثل لكليهما، فما خلفه المسلمون فى صقلية على امتداد قرنين من الزمان، هما فترة مكثهم فيها والذى حرص النورمان، السادة الجدد، على الإفادة منه إلى حد بعيد جدا، كان يعد شيئا مغايرا تماما لما كان عليه الحال فى ألمانيا، وبينما كانت الملكية فى ألمانيا انتخابية، إذا هى وراثية فى صقلية. كما أن القطيعة

=Thompson & Johnson, op. cit., p. 400.

وأيضا: C.M.H. Vol V, pp. 390 – 391

وكذلك Bryce, op. cit., p. 166; Davis, op. cit., p. 326.

وقد أصدر فردريك بربا روسابيانا فى الشهر التالى مباشرة (أكتوبر ١١٥٧) يفند فيه – ما اعتقد أنه إدعاءات بابوية، واضطر هارديان الرابع أن يبعث برسالة ثانية إلى الإمبراطور فى أوائل ١١٥٨ يوضح فيها أنه لم يعن بكلمة Beneficia "إقطاعا" بل يعنى بها "جميلا" أو (عملا طيبا). راجع بيان فردريك ورسالة هارديان الثانية فى Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 186 – 188.

وعن هذه التفاصيل كلها، راجع الفصل الأول.

الجغرافية بينهما والتى طولها شبه الجزيرة الإيطالية، تعتبر حائلا طبيعيا يباعد بين كليهما. وبمقتضى المعاهدات التى عقدت بين البابوية وملوك النورمان فى صقلية، كان هؤلاء الأخيرون، أوبعضهم يعتبرون البابوية صاحبة السيادة الإقطاعية فى البلاد، فى الوقت الذى يرفض فيه الألمان ذلك بالنسبة لبلادهم، وحتى لمناطق طموحهم فى صقلية، ولعل ما وقع في بيزانسون [٣٣] خير دليل على ذلك. وفوق هذا كله وذاك، لم يكن مقت الصقليين لملك ألمانى يتولى أمورهم، أقل من كراهية الألمان لذلك إذا ما حدث واعتلى عرشهم صقلى [٣٤].

من أجل هذا كله لم يكن غريبا أن يوجد فى صقلية حزب نورمانى يعارض انتقال العرش إلى ملوك أسرة الهوهنشتاوفن، وأن يقدم هذا الحزب على اختيار تنكرد Tancred ملكا خلفا لأخيه غير الشقيق وليم الثانى عقب موته سنة ١١٨٩، ضاربا عرض الحائط بحق كونستانس فى ميراث عرش أبيها، وبالتالى حق زوجها هنرى السادس. بل لقد سعى هذا الحزب إلى توسيع دائرة العداء تجاه الملوك الألمان، فجذب إلى صفه جماعة الولفيين Welfs (Guelfs) فى إيطاليا، الأعداء التقليديين لأسرة الهوهنشتاوفن، وعقد تحالفا مع ريتشارد الأول ملك انجلترا وهو طريقة إلى الأراضى المقدسة قائدا لجيوش بلاده فى الحملة الصليبية الثالثة، حيث كانت أخته هى أرملة وليم الثانى.

وكان على هنرى السادس أن يواجه هذا التحالف الصقلى الإيطالى الإنجليزى، فقاد جيوشه إلى إيطاليا سنة ١١٩١، ووضع على رأسه التاج الإمبراطورى، غير أن الفشل لحق به فى حملته هذه، إلا أن القدر عوضه عن ذلك بأن ساق إليه صيدا ثمينا عندما وقع فى أسره ريتشارد ملك انجلترا أثناء عودته من الأراضى المقدسة [٣٥]. أو بتعبير آخر – على حد قول فرانك بارلو F. Barlow

(٣٣) راجع الحاشية السابقة.

(٣٤) فيشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى – الجزء الأول، ص ٢٠٧.

(٣٥) وكان ريتشارد قد أسر على يد ليوبولد الرابع Leopold دوق أوستريا سنة ١١٩٢ الذى سلمه بدوره لسيدة الملك الألمانى هنرى السادس فى عام ١١٩٣ بناء على طلبه. للمزيد من التفاصيل انظر: Barlow, op. cit., pp. 361-364

امـتلك هـنرى السادس – فى شخص ريتشارد، مفتاحا من ذهب سوف يفتح أمامه جمـيع الأبـواب الموصـدة [٣٦]. ذلك أن هنرى استغل هذه الفرصة بذكاء كبير، فضـمن أن يقـف إلى جانبه فيليب أوغسطس Philip Augstus ملك فرنسا، العدو اللـدود لملك انجلترا، وجون الانجليزى أخو ريتشارد، اللذان طالبا هنرى أن يبقى عدوهـم المشـترك فـى أسره دون فكاك. وإن كان الملك الألمانى قد أطلق سراح خصـمه بعد عامين من الأسر لقاء فدية ضخمة قدرها مائتا ألف مارك، بالإضافة إلى خمسين ألفا أخرى مقابل أن يحله من وعده بمساعدته ضد النورمان [٣٧]. وفى نفـس العـام حـالف الحظ هنرى مرة أخرى إذا مات تنكرد النورمانى، فتم تتويج هنرى الملك الألمانى، وإمبراطور الرومان، ملكا على صقلية وأبوليا وكالابريا.

هكـذا أمـتدت سلطان ألمانيا على جنوب إيطاليا وصقلية، لكنه كان سلطانا مزعـزعا، يـتهدده العداء النورمانى الكامن فى الجنوب، والفوضى العارمة التى توشـك أن تعصـف بألمانيا ذاتها، من جراء انشغال ملوكها بطموحهم الخاصة فى مملكـة الصـقليين. والحقـد البابوى والكراهية المقيتة يحملها الجالس على كرسى القديس بطرس فى روما تجاه هذا "الانتشار" الألمانى، والذى أوقع البابوية بصورة عملية بين فكى "كماشة" ألمانية إذا كان أمرا طبيعيا أن يرفض البابا تتويج فردريك الـثانى ابن هنرى السادس وكونستانس، فى حياة أبيه، فى الوقت الذى قبل الألمان اختياره ملكا على ألمانيا.

ولم تلبث الحرب الأهلية أن اندلعت فى ألمانيا عقب وفاة هنرى السادس عام ١١٩٧ بيـن الولفيـين بزعامة أوتو الرابع دق برنسويك، والهونشتاوفن تحت قيادة فيليـب السـوابى، واسـتمرت ستة عشر عاما كاملة، تداول فيها الطرفان النصر والهـزيمة، وتدخل فيها البابا انوسنت الثالث بصورة سافرة، متقلبا بين الجانبين بما يحقـق مصـالحه الزمنـية فى ألمانيا وإيطاليا على حد سواء، هذا فى الوقت الذى حرصـت فـيه كونسـتانس على الاحتفاظ بعرش صقلية لابنها فردريك، غير أن

---

(٣٦) انظر Ibid. 164

(٣٧) المرجع السابق، الصفحات نفسها.

البابوية وقد قلب لها أوتو الرابع ظهر المجن بعد أن توجته فى سنة ١٢٠٩ فى أعقاب مقتل فيليب السوابى الهوهنشتاوفنى، رأت أن مصالحها الزمنية تفرض عليها الوقوف إلى جانب الأمراء الكارهين لأوتو الرابع، والذين أقدموا على اختيار فردريك الثانى ملكاً عليهم سنة ١٢١١.

وقد يبدو هذا الأمر غريباً إلى حد كبير، فالبابوية تبذل قصارى جهدها كى تقف عقبة كأداء فى سبيل إتمام أى نوع من الترابط بين ألمانيا ومملكة الصقليتين، والتى آلت إلى ملوك ألمانيا الآن. فإذا بها تساند فردريك الثانى ملك صقلية وترفعه على العرش الألمانى ليضع بذلك قدمه الأخرى على الأرض الألمانية، بعد أن كان قد ثبت الأولى فى صقلية. لكن الغرابة سرعان ما تختفى، إذا أدركنا أن انوسنت الثالث أراد أن يصطنع لنفسه فردريك ويتخذه أداة طيعة ضد أوتو الرابع الذى راح يمارس - بعد حصوله على التاج (١٢٠٩) نفس سياسة أعدائه الهوهنشتاوفن تجاه إيطاليا وصقلية والحبر الرومانى. ولا شك دار بخلده أن فردريك سوف يحمل له فى نفسه كل التقدير بعد أن أعاد إليه حقاً كان يبدو بعيد المنال. غير أن الأحداث خيبت فال البابوية.

فمنذ نجاح هنرى السادس فى فرض سيادته على جنوب إيطاليا وصقلية عام ١١٩٤، ووراثة ملوك ألمانيا بشكل واقعى لعرش النورمان، ورثوا معه أيضاً تطلعهم إلى السيادة على عالم البحر المتوسط، وصادف ذلك هوى كبيراً فى نفس فردريك الثانى بصفة خاصة، ولم لا وقد أمضى سنى عمره الأولى فى شوارع صقلية، وأجاد العربية، ونهل من الثقافة الإسلامية، وتأثر بالتراث البيزنطى ولم يتخل عن الطموح الألمانى وسياسة الهوهنشتاوفن وأتقن عدة لغات، وتعمق فى بعض من العلوم، حتى صار "محير العالم" أو (أعجوبة الدنيا) Stupor Mundi من هنا كانت محاولاته الالتزام بالتقاليد النورمانية التى انحرفت بالسياسة الإمبراطورية عن دوربها الرئيسية. لقد كان الاتحاد التام بين المملكة الصقلية والإمبراطورية

الــذى أراده فردريك، السبب المباشر فى انحراف هذه unio regni adimperium السياسة الإمبراطورية عن جادة الصواب [٣٨].

وعلى هذا النحو ازدادت حدة العداء بين البابوية والإمبراطورية، وفتح باب الصــراع على مصراعيه، وأيقنت البابوية أن عليها أن تكسب هذه الجولة الأخيرة، وإلا كــان فــيها نهايــتها، فحشــدت أسلحتها، وسعرت لهيب نيرانها، وأقدم البابا جــريجورى التاسع فى عام ١٢٤١ على الدعوة لعقد مجمع كنسى فى روما بهدف عــزل فــردريك، فلمــا حيل بين المؤتمرين والحضور، بجهود الملك، جدد البابا إنوســنت الرابع الدعوة ثانية فى سنة ١٢٤٤ والتأم عقد المجمع فعلا فى ليون عام ١٢٤٥ وصدر قرار عزل فردريك الثانى [٣٩]. وشهدت السنوات الخمس الباقية من عمر الإمبراطور عددا من الثورات فى شمال إيطاليا وجنوبها، وحركات تمرد فى داخــل ألمانيا ذاتها، وقيام البابوية باختيار وليم أمير هولندا ملكا على ألمانيا. ورغم أن فــردريك حقــق بعــض الانتصارات فى شمال إيطاليا، ولقى الأمير الهولندى الهــزيمة علــى يــد كونــراد ابــن فــردريك، إلا أن ذلك لم يجد نفعا حيث مات الإمبراطور فى نهاية سنة ١٢٥٠ [٤٠] وعندها تنفست البابوية الصعداء، ورأت فى موتــه فرصــتها الســانحة للإجهاز على الإمبراطورية، وافتر ثغرها عن ابتسامة ســاخرة، سرعان ما تحولت إلى ضحكة عالية وهى ترى مانفرد Manfred الابن غــير الشرعى لفردريك ملكا على عرش صقلية، وعلى عرش ألمانيا ابنه كونراد الــرابع، الذى لم يلبث أن توفاه الموت فى سنة ١٢٥٤ ليخلفه ابنه الطفل كونرادينو فهــذا ما كانت تطمح إليه البابوية، نعنى تقطيع أوصال الإمبراطورية، وفسح عرى الارتــباط بيــن ألمانيا وإيطاليا، وهو ما جاهد فردريك بربا روسا وهنرى السادس وفردريك الثانى للحيلولة دون وقوعه.

---

(38) Barraclough, The origins of modern Germany, p. 197.

(٣٩) راجع نص قرار العزل فى Tirney, The Middle Ages, Vol, I.Source of Medieval history, p. 272.

(40) Thompson & Johnson, op. cit., pp. 426 – 428.

وإذ أبصرت البابوية بعين السلطان الزمنى الفرصة مواتية لتحقق نصرها الكامل، فقد أهتبلت ما سنح لها على التو، وراحت تعرض عرش صقلية على ادموند Edmund ابن هنرى الثالث ملك انجلترا، لكن هذه المحاولة لم تفلح حيث تمكن مانفرد من استعادة نفوذه على الجزيرة، وإن كان إلى حين، حيث لم يجد البابا الفرنسى الأصل، كلمنت الرابع Clement IV صعوبة فى اقناع شارل دوق أنجو Charles of Anjou أخى لويس التاسع ملك فرنسا، بقبول العرش الصقلى باعتباره إقطاعا بابويا. ولم يلبث المرشح الفرنسى للعرش الصقلى أن غزا أملاك الهوهنشتاوفن، وأوقع الهزيمة بمانفرد الذى أسلم الروح فى المعركة التى دارت قرب بنفنتو Benevemto فلما استدعى آخر سلالة الهوهنشتاوفن فى ألمانيا، كونراديتو، ليواصل مهمة الحفاظ على ميراث أجداده، وهى مهمة صعبة وثقيلة، لم يكن أسعد حظا من عمه، فلقى الهزيمة على يد الجيوش الفرنسية بالقرب من تاجلياكوزو Tagliacozzo عام ١٢٦٨. وقد سيق الصبى، الذى لم يكن قد تجاوز الخامسة عشرة من عمره، إلى نابلى حيث أطيح برأسه بموافقة البابا حتى يجعل من القضاء على الهوهنشتاوفن والإمبراطورية أمرا لا سبيل إلى الشك فيه أو العودة إليه.

وفى تقديرنا أن الظروف السيئة التى كانت تحيط بالبابوية، جعلتها تغض الطرف تماما أو لنقل بتعبير أكثر دقة، تنسى كلية مهامها الروحية ورسالتها الرعوية، وتضع نصب أعينها شيئا واحدا وهدفا محددا هو السيادة الزمنية على العالم المسيحى، وهو شئ كانت قد جعلته مبغاها منذ أسقط قناع التقليد العلمانى بمقتضى اتفاقية ورمز سنة ١١٢٢ بين هنرى الخامس وكالكستس الثانى Calixtus II وحققت فى ذلك نجاحا لا بأس به عندما تزعمت عالم المسيحية فى الغرب وقادته لحرب المسلمين فى الشرق تحت راية الصليب، واعتلت سمت نجاحها عندما أسقط جنود الصليب فى الحملة الصليبية الرابعة، القسطنطينية، درع المسيحية فى الشرق وحامية الأرثوذكسية فى مطلع القرن الثالث عشر (١٢٠٤)، إلى الحد الذى دفع البابا أنوسنت الثالث إلى الإشادة فى رسائله إلى قادة الحملة

بغــزوهم للقســطنطينية، واعتــباره فــتحاً عظــيماً ونصــراً للبابوية نفسها على "إمبراطورية منحرفة وكنيسة ضالة" (٤١).

غــير أن ريــاح النصــف الثانى من القرن نفسه، حملت لها نذير الكوارث المتتالــية لهــذا الامتداد الهائل لنفوذها فى الشرق المسيحى والإمارات اللاتينية فى الشــرق الإســلامى، بــل والحــركة الصليبية ذاتها، فقد لقى لويس التاسع الملك الفرنســى، والقديــس، هــزيمة مروعة فى مصر عام ١٢٥٠، وتلك كانت ضربة قاصــمة للصليبية فى أوروبا، إذا لم تعد لمثلها ثانية بعد أن تولت إلى الظل الروح الصــليبية نفســها. ولم تفلح جهود لويس فى بلاد الشام خلال أربع سنوات قضاها، وكان فى حملته على شمال أفريقيا سنة ١٢٧٠، حتفه (٤٢) وقبل ذلك بسنوات قلائل، تلقــت الــبابوية صــفعتين متتاليتيــن، إذا فقــدت فــى عام ١٢٦١ سيادتها على القســطنطينية، حيــن تمكــن ميخائــيل الثامــن بالــيولوجوس Michael VIII Palaeolougus مــن اســترداد العاصــمة البيزنطية والقضاء على الإمبراطورية اللاتينــية وإقامة أسقف أرثوذكسى ثانية فى كنيسة القسطنطينية. ولم يأت مايو عام ١٢٦٨ حــتى كان المسلمون بزعامة الظاهر بيبرس، سلطان مصر المملوكى، قد اســتردوا إمارة إنطاكية الصليبية، ولم يبق للغرب اللاتينى فى الشرق إلا طرابلس وبعــض القلاع على ساحل بلاد الشام. ولا ريب أن هذه الأحداث جميعها قد وعتها الــبابوية جيداً، فصممت على أن تحقق لنفسها نصراً على الأرض الأوروبية تمحو بها ويلات جراحاتها التى قذفت بها رياح الشرق على أرض الواقع الأوروبى.

---

(٤١) راجع دكتور اسحق عبيد، الدولة البيزنطية فى عصر باليولوجوس ص ١٣ – ١٤.

(٤٢) فى عام ١٢٧٠ قاد لويس التاسع حملة صليبية جديدة على تونس، غير أنه توفى على أبواب قرطاجة، وكان موته كارثة بالنسبة للحركة الصليبية، فى وقت كانت فيه تحتضر ويتضح هذا من قصيدة كتبها شاعر فرنسى معاصر يدعى رتبوف Rutebeuf يقول فيها "أن من الحماقة أن يخاطر الإنسان فى حرب دينية خارج بلاده إذا كان بوسعه أن يتصل بالله وهو فى وطنه يعيش فى سلام. ويسخر الشاعر فى القصيدة من رجال الدين الذين جعلوا من الحروب الصليبية وسيلة لابتزاز الأموال. راجع مذكرات جوانفيل عن القديس لويس، ترجمة وتعلق دكتور حسن حبشى، ص ٣١٠ – ٣١٣ وكذلك دكتور جوزيف نسيم يوسف، العدوان الصليبى على مصر، ص ٢٨١ – ٢٨٢.

هذه الصورة توضح بجلاء ما آل إليه أمر الإمبراطورية الألمانية من جراء تورطهـــا فى إيطاليا بمشكلاتها العديدة المتشابكة شديدة التعقيد. وإذا كانت السياسة الألمانـــية فى إيطاليا على النحو الذى رأيناه – قد أدت بالنفوذ الألمانى فى الخارج إلى أن يتعرض لهذه الهزات العنيفة والتى انتهت بإعدام آخر سلالة الهوهنشتاوفن، تلـــك الأســـرة التى تمثل العظمة الإقطاعية فى العصور الوسطى، فكيف يمكن أن يكـــون علـــيه الحـــال فى ألمانيا ذاتها من الداخل. وإذا كانت البابوية قد وقفت هذا الموقـــف العدائـــى السافر تجاه السياسة الألمانية فى إيطاليا وصقلية، فإن ما فعلته داخـــل ألمانـــيا كان أشد وأنكى. وكان هذا حتما مقضيا مادامت المصالح بينهما قد تعارضت مفهوما وواقعا.

فقـــد حمل الأباطرة الألمان على عاتقهم ابتداء بأوتو الأول، مهمة الإصلاح الكنسى بعد أن ترددت البابوية خلال القرون من السابع إلى الثلث الأول من الحادى عشـــر فـــى هاوية الانحلال الكامل، غير أن مفهوم الإصلاح كان يختلف عند كل مـــنهما عـــن الأخـــر. فالإصـــلاح فى نظر الأباطرة كان يعنى تطهر الكنيسة من أمراضـــها الداخلـــية مثل السيمونية وزواج رجال الدين، وأن يعتلى كرسى القديس بطرس فى روما، بابوات مصلحون، شريطة أن يكون للإمبراطور السلطة الكاملة علـــى شـــئونها، والتدخل المباشر فى اختيار رجال الدين وعلى رأسهم البابا، وهذا واضـــح تمامـــا فيما تم عليه الاتفاق بين أوتو الأول والبابا يوحنا الثانى عشر عند تتويج أوتو إمبراطورا عام ٩٦٢، وما أخذه الأخير على الرومان من تعهدات سنة ٩٦٣ فـــى أعقاب نكوص يوحنا الثانى عشر على عقبية وتحوله إلى جانب برنجار اللومـــباردى عـــدو الملـــك الألمانى، والقاضية بعدم الإقدام على اختيار أى أسقف لكنيسة روما إلا بموافقة الإمبراطور [٤٣] ومن هذا المنطق أيضا جرت سياسة أوتو الثالث فى تقليد برونو Bruno منصب البابوية باسم جريجورى الخامس، وهو أول بابـــا ألمـــانى يعـــتلى الكرســـى البطرسى، ومن أشد المتحمسين لحركة الإصلاح الكنســـى، فلمـــا قـــبض صغيرا، عين الإمبراطور معلمه جربرت Gerbert أسقفا

(43) UIlmann, A short history of the Papacy in the Middle Ages, pp. 118 – 119.

رومانيا باسم سيلفستر الثانى Sylvester II . ومن هذا المنطلق أيضا أقدم الإمبراطور هنرى الثالث على عزل ثلاثة من البابوات الفاسدين وعين على التوالى خمسة بابوات مصلحين، ولم ير فى ذلك شيئا سوى إصلاح الكنيسة الكاثوليكية. وإن كان من وجهة النظر الإمبراطورية [٤٤].

أما البابوية فقد كان لها رأى آخر، فالإصلاح بالنسبة لها يعنى فى المقام الأول كف أيدى العلمانيين، أيا كان شأنهم أو مراتبهم، عن التدخل فى تعيين رجال الدين وبالأحرى البابا. واتخذت الخطوات الأولى فى سبيل ذلك عقيب وفاة هنرى الثالث وضعف السلطة الإمبراطورية فى إيطاليا، من جراء غض العمر الذى كان يعانيه الإمبراطور الطفل هنرى الرابع، إذ أقدم الإكليروس الرومانى على اختيار نقولا الثانى Nicholas أسقفا لروما، وكان أهم ما تضمنه قرار الاختيار، أن تتم عملية رسم البابا فى روما على يد كرادلة روما السبعة دون تدخل من الخارج [٤٥] بل تعدى الأمر ذلك إلى تحقيق العدالة والصلاح فى المجتمع. والإصلاح الذى تعنيه البابوية كما جاء على لسان جريجورى السابع، الأنموذج الحقيقى للسلطة البابوية المطلقة، وهو الطاعة الكاملة للرب، وهذه تتحقق عن طريق الانقياد التام للبابا، والخروج عليه بعد – حسب تعبيره – ضربا من الشرك ونوعا من الوثنية[٤٦] وأباح جريجورى السابع لنفسه أن يستمد سلطانه من مكانته باعتباره خليفة القديس بطرس، ونائبه على الأرض، واستخدم آية الإنجيل التى جاءت فى خطاب المسيح لبطرس معتبرا إياه صخرته التى سيبنى عليها كنيسته، مخولا إياه سلطة الربط والحل على الأرض، وراح يباشر سلطات زمنية واسعة، زادت النار ضراما فى آتون الصراع حول مشكلة التقليد العلمانى. وبمقتضى ذلك كتب إلى

---

(44) Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 122 – 124.

(45) The Pepal election decree of Nicholas II.

وللمزيد من التفاصيل انظر. UIlmann, op. cit., pp. 135 - 138

(46) Letter of Gregory VII to Henry IV.

هـنرى الرابع يطلب إليه عزل خمسة من مستشاريه السياسين كان قد صدر بشأنهم قرار عن مجمع روما سنة ١٠٧٥ باعتبارهم من السيمونيين (٤٧) ولم ير جريجورى فـى ذلك غضاضة أو خروجا على حدود سلطانه. بل إن الإذلال الذى لقيه هنرى الـرابع علـى يـد هـذا الـبابا فـى كانوسا Canossa، عدة المتعصبون للآراء الجـريجورية، أو الحـزب الـبابوى، نوعا من الندامة أو التوبة أقدم عليها الملك الألمانى، وإن كانت فى صدر هذا الأخير شيئا مغايرا تماما.

وإنـه لمـن سـخرية الأقدار حقا أن يكون أكثر الناس خسرانا من برنامج الإصلاح الكنسى هذا، هم الأباطرة الألمان أنفسهم، أولئك الذين جعلوا، بجهود أوتو الأول وسـميه الثالث وهنرى الثالث، نجاح هذا الإصلاح حقيقة واقعة. كنهم كانوا كمـن يحفرون قبورهم بأيديهم، فقد تلاقت مصالح البابوية مع الأمراء الألمان، فى ظـل النظام الإقطاعى بسماته المميزة المتمثلة فى انحلال السلطة المركزية، على أضـعاف الحكومـة الألمانية، وجعلها مجرد صورة شاحبة، باهتة ألوانها، بعد أن فرضـت مشـكلة التقلـيد العلمانى نفسها بقوة كقاعدة رئيسية فى برنامج الإصلاح الكنسى الهلدبراندى أو الجريجورى.

وكان تلقى أوتو الأول المتاح الإمبراطورى من يد البابا، يعنى بمفهومه التقليدى أن يقوم كل ملك ألمانى بعد تنصيبه فى ألمانيا بزيارة الحج إلى روما لـتلقى الـتاج هـناك مـن البابوية، وأصبح هذا أمرا لا مندوحة عنه بعد أن استقرت فكرة الإمبراطورية فى أذهان وخطط الملوك الألمان منذ القرن الحادى عشر بصفة أساسية.

ويعبر هنرى بيرين عن هذا فى عبارات بليغة بقوله " لم تكن الإمبراطورية بالنسبة لألمانيا قدرا محتوما ومهلكا فقط، لأنها فرضت على ملوكها سياسة عالمية، واضطرتهم إلى التضحية بالدولة في سبيل الكنيسة، وأجبرتهم فى النهاية علـى أن

---

(47) Leter of Gregory VII to Henry IV 1075.?

يــتركوا الميدان إلى الظل، بل لأنه كانت لها نتائج بعيدة المدى، تمثلت فى السماح للــبابوية بالتدخل المباشر فى شئون ألمانيا الداخلية، إذ أن الملك الألمانى، أو بتعبير أدق، ملك الرومان، باعتباره الإمبراطور المعين، وحيث أن روما كانت قادرة على هــذا الأمــر وبصورة مباشرة وواضحة، فقد أصبحت تدعى أن موافقتها تعد أمرا أساســيا لاختــيار الإمبراطور الجديد" (٤٨). لقد كانت البابوية، وعلى عهد أنوسنت الثالث بصفة خاصة توافق على أحقية الأمراء الألمان فى اختيار مليكهم، لكن جعل هذا الملك إمبراطورا كان من سلطة البابا باعتباره نائب المسيح على الأرض، ذلك أن الكرســى الرســولى فى روما هو الذى نقل الإمبراطورية من القسطنطينية إلى الغــرب زمــن شــارلمان، وأعــاد إحياءها من جديد بتتويج أوتو، ومن هنا غدا الإمــبراطور فى نظر البابوية موظفا، خلقه البابا ليكون عضده وساعده. فهو ليس إلا مــرآة تعكــس عالمية الكنيسة الرومانية، أو بتعبير آخر هو القمر الذى يعكس ضــوء الشمس. نعنى الكنيسة الرومانية (٤٩) لذا لا نكاد نجد ملكا ألمانيا واحدا على امــتداد ثلاثــة قرون كاملة ما بين عامى ٩٦٢ – ١٢٥٠ إلا وقد جاء إلى روما يســعى للحصول على اللقب الإمبراطورى، ولم يستثن من ذلك إلا كونارد الثالــث (١١٣٩ – ١١٥٢) ولم يكن تمردا ولا هجرانا، ولكن لأن ظروفه الداخلية لم تسمح لــه بهذه الزيارة، وإن كان كونراد أداة طيعة فى يد البابوية، إذ سيرته برفقة قرينه ملك فرنسا، لويس السابع، لقيادة جيشه فيما عرف بالحملة الصليبية الثانية، التى لم تجن تحت أسوار دمشق إلا الخسران.

وكــان هــذا الأمر – نعنى عملية الحج الملكى الألمانى إلى روما من أجل اللقــب الإمــبراطورى يســتتبع بالتالى وجود قوة عسكرية كبيرة يجردها الملوك الألمــان أثــناء رحلاتهم هذه، مما ترك أثره البالغ على ألمانيا نفسها ـــ كما سنرى بعد قليل. وذلك لإرهاب البابوية فى المقام الأول، ولمواجهة خصوم الإمبراطورية ممثليــن فــى المدن اللومباردية فى الشمال الإيطالى، والتى لقيت الجيوش الألمانية

---

(٤٨) انظــر: Pirenne, A history of Europe, p. 319.

(٤٩) انظر : Ullmann, op. cit., p. 211.

علـــى يديهـــا الهزيمة فى أكثر من موقع، وكانت من الأسباب الرئيسية فى تحطيم الـــنفوذ الألمـــانى فى إيطاليا. والنبلاء الرومان الثائرين دوما ضد امتداد السلطان الألمـــانى إلى إيطاليا. والغضب البيزنطى البادى فى محاولات الأباطرة المقدونيين خـــلال القـــرن العاشر استعادة بعض ما كان لهم من سيادة آذنت شمسها بالمغيب، والنورمان الطامحين والطامعين في التهام ما تبقى من الأملاك البيزنطية والأعداء الشرســـين للملـــوك الألمان. وإزاء هذه الفوضى الضاربة أطنابها فى إيطاليا، فإن الوجود العسكرى الألمانى بها، لم يحقق الاستقرار السياسى الذى كان ينشده أباطرة ألمانـــيا، ولم يتجاوز سلطان الألمان فى إيطاليا على حد تعبير برايس حدود الزمان الذى كان يبقاه الجيش الألمانى هناك (٥٠).

فهذا هو أوتو الأول نفسه، رغم دوافعه الألمانية للتدخل فى إيطاليا، فقد جاء إلـــيها فى خمس حملات عسكرية لتدعيم سلطانه فى روما، وابنه أوتو الثانى حكم عشـــر ســـنوات (٩٧٣ – ٩٨٣) أمضى الثلاث الأخيرة منها فى إيطاليا فى جهود عســـكرية فاشلة. أوتو الثالث قضى فترة حكمه كلها (٩٨٣ – ١٠٠٣) فى إيطاليا، ولـــم تره ألمانيا إلا محمولا على أيدى الرجال ميتا ليدفن بأرضها. أما هنرى الثانى آخـــر الخـــط السكسونى، فقد حج إلى روما عام ١٠١٤ ليتوج إمبراطورا وقصدها كونراد الثانى سنة ١٠٢٧، وقدم عليها هنرى الثالث مرتين ما بين عامى ١٠٤٦ – ١٠٥٧، وعســـكر هـــنرى الرابع بجيوشه محاصرا روما ثلاث سنوات ١٠٨١ – ١٠٨٤ بينما جاءها هنرى الخامس مرتين، الأولى خلال عامى ١١١٠ – ١١١١، والثانـــية فى سنتى ١١١٦ – ١١١٧. وحج إليها لوثر فى عامى ١١٣٣، ١١٣٦. أمـــا فردريك برباروسا فقد قاد جيوشه إلى هناك فى ست حملات عسكرية لم تكن كلهـــا لصـــالحه، بـــل لم يكن لأولها من ضرورة على الإطلاق إلا إذا أدخلنا فى اعتـــبارنا الناحـــية التقليدية لهذه الرحلات كما أسلفنا، ذلك أنه من الصعب أن نجد بـــالفعل سببا مقنعا لقيام فردريك بحملته الأولى إلى إيطاليا ١١٥٣/ ١١٥٥ فقد كان

---

(50) Bryce, Holy Roman Empire, p. 171.

سـلطانه علـى الكنيسة فى ألمانيا يكاد يكون تاما، على حين كان البابا غارقا حتى آذانـه فى مشاكله الخاصة مع أرنولد البريشى Arnold of Brescia ، بل وتجلت قـوة فـردريك فى تعيينه أسقف زيتز Zeitz رئيسا لأساقفة مجدبرج Magdburg وحصـوله علـى موافقة البابا على هذه الممارسة "غير الشرعية" للسلطة الملكية، فمهما كان حق الملوك فى اختيار رجال الأكليروس، فإن للبابا وحده الحق فى نقل أسـقف مـن كرسى كنسى إلى آخر. ومن ثم فلا تبرير لهذه الحملة إلا رحلة الحج التقلـيدية، أو إن يكـون فردريك غير راض بسلطانه فى ألمانيا، إزاء قوة أعدائه الولفييـن، ومن ثم كان يحلم بكسب مجد تحمله إليه حملة عسكرية موفقة. بالإضافة إلى أنه كان غاضبا من بطء حركة مشروعاته فى ألمانيا، ويطمح فى أن تحمل إليه ثـروات المـدن اللومباردية انطلاقة أسرع، فلابد – فى نظره – أن مناطق السيادة الملكية عبر الألب سوف تكون أكثر غنى وأوفر أمنا (٥١).

بل أن فردريك بربا روسا لقى فى إيطاليا سنة ١١٧٧ أذلالا شبيها إلى حد ما بـالإذلال الذى لقيه هنرى الرابع قبل ذلك بمائة عام فى كانوسا. وبينما أمضى أبنه هـنرى السـادس نصـف عهده القصير الذى لم يتجاوز سبع سنـوات (١١٩٠ – ١١٩٧) فى إيطاليا، ومات فى بالرمو، وهب فردريك الثانى جل عهده وحياته كلها من أجل مملكته الصقلية.

ولم يقتصر الأمر على هذا الحد، بل أن بعض الأباطرة الألمان، فى محاولة لاسترضـاء البابوية شاركوا فى الحملات الصليبية، فأضافوا إلى غيابهم عن ألمانيا بعدا جديدا، وكان من بين هؤلاء كونراد الثالث، وفردريك بربا روسا وسميه الثانى، ورغـم أن ثالـثهم هـذا قد حقق نجاحا لم يسبقه إليه إلا جنود الصليب فى الحملة الأولـى، إلا أن الـبابوية – فى جملة عدائها معه – جزته عن ذلك جزاء سنمار، وأوقعت ضده للمرة الثانية قرار الحرمان الكنسى ثم العزل من بعد.

---

(51) Strayer & Munro, op. cit., p. 219.

وأيضا : UIlmann, op. cit., pp. 178 - 188.

هـذا الغـياب المتوالى والمتقطع من جانب الأباطرة عن ألمانيا والذى أمتد حوالـى خمسة وتسعين سنة خلال مائتين وثمان وثمانين عاما (٩٦٢ – ١٢٥٠)، وتمثلـت خطورتـه بشكل سافر فى تغيب أباطرة مثل أوتو الثالث وفردريك الثانى بصفة مستمرة عن دولتهم، والاستنزاف العسكرى المستمر لموارد ألمانيا، والانهاك البشـرى لزهرات شباب الألمان. كان لابد أن يترك بصماته الواضحة على سلطان الملـوك الألمـان أنفسـهم فـى داخل دولتهم، فى عصر ساده النظام الاقطاعى، وسـيطرت علـى مقاليد الأمور فيه أيدى الأمراء، وتهاوت إلى الحضيض السلطة المركـزية للملوك. ولما كانت ألمانيا بطبيعة تكوينها القبلى منذ البداية، وجغرافيتها المتـنافرة، وعدم دخولها ضمن دائرة الإمبراطورية الرومانية، فقد أفتقدت الحكومة المركـزية ولـم تعرفها إلا قهرا على زمن شارلمان، فقد ظل الألمانى على امتداد ألـف سنة يفاخر بأنه سكسونى أو بافارى أو فرنكونى أكثر من كونه ألمانيا. ومن أجـل هذا بقيت الملكية الألمانية انتخابية حتى وإن تمثلت فيها الوراثة فى كثير من الأحـيان (٥٢). وظـل الأمـراء الألمـان يتحينون أية فرصة تسنح لهم ليفترسوها ولـيحققوا من ورائها ذواتهم ومطامحهم الإقطاعية التى كانت تتركز بصفة أساسية فى مزيد من الامتيازات واتساع فى الممتلكات.

ووجـد الأمراء الألمان فى البابوية خير سند ومعين لتحقيق أغراضهم، فقد كانـت بدورها تسعى حثيثا لتحطيم قوة الإمبراطورية الألمانية بعد ما تبين لها أنها تشـكل خطـرا جسيما على سلطانها خاصة فى المرحلة الثانية من الصراع بين الـبابوية والإمبراطورية فى أعقاب توقيع اتفاقية وورمز ١١٢٢. وفى الوقت الذى كانت الأولى فى عهدها الإصلاحى قادرة على التوصل إلى تفاهم مع ملوك انجلترا وفرنسـا، فـإن ساسية الملوك الألمان كانت لا تروق لناظريها، وذلك لأنها كانت بـادرة يمكـن أن تهدد سيادة روما على الكنائس الأخرى فى أوروبا، ومن ثم فإن الـتقارب الـذى كـان قائما بين التاج والكنيسة الألمانية زمن الأسرة السكسونية، والسـيادة الـتى تحققـت للملكية على الأكليروس الألمانى على عهد الفرنكونيين

(٥٢) للمزيد من التفاصيل عن هذه الناحية، انظر الفصل الرابع.

الســـاليين خاصـــة هنرى الثالث، كان يعد شيئا لا يتفق ومصالح البابوية (٥٣) وفى مواجهـــة هـــذه التحديات كان لزاما على الملوك الألمان أن يتبعوا سياسات متباينة بهـــدف الإبقاء على ولاء الأمراء العلمانيين والإكليروسيين على السواء سلطانهم، ورغـــم اخـــتلاف هذه السياسات إلا أنها أودت فى النهاية بمـــوارد التاج وبالتالى خيبته ومكانته.

فقـــد أقـــدم أوتـــو الأول علـــى بذل المزيد من الهبات والامتيازات لرجال الأكلـــيروس الألمان، حتى يصطنعهم لنفسه فى مواجهة الأمراء العلمانيين، بعد أن أخفقت سياسته فى استخدام أقاربه وأصهاره حكاما على المقاطعات. ورغم أن هذه السياســـة قـــد حققت نجاحا فى حينها إلا أنها أضحت مشكلة عانت منها ألمانيا من بعد، إذ ساعدت على خلق طائفة جديدة من الإقطاعيين هم أمراء الأكليروس. وكان علـــى هـــنرى الثانى (١٠٠٢ – ١٠٢٤) أن يبذل هو الآخر جهودا كبيرة لمعالجة الأمـــور المتردية التى هوت إليها ألمانيا بعد غياب أوتو الثانى وابنه وسميه الثالث فـــى إيطالـــيا ســـنوات طويلـــة تقترب من ربع القرن. حتى إذا مات عاد الأمراء يمارســـون هوايتهم المفضلة فى اختيار الملك الذى كان يعد بحق وفقط "الأول بين أقرانه" كما أسلفنا، فرفعوا على العرش كونراد الثانى (١٠٢٤ – ١٠٣٩) الذى كان علـــيه لـــزاما أن يوقف استنزاف أراضى التاج الذى درج عليه الأمراء العلمانيون والإكليروســـيون ســـواء. لكنه جاء شيئا نكرا عندما عمد إلى خلق طبقة جديدة من صـــغار النـــبلاء أصـــطفاها إلى جواره ليتصدى بها للنفوذ المتزايد لكبار الأمراء، وأولئك يمثلون محدثى النعمة ممن لا أصول لهم، وليست لهم جذور نبيلة، فاضحوا على المجتمع الألمانى من بعد وبالا.

وشـــهدت السنوات التسع (١٠٥٦– ١٠٦٥) التى قضاها هنرى الرابع يعانى غـــض العمر وسن القصور، سعى كل الفئات على اختلاف انتماءاتها بين الكنيسة والدولـــة، لمحاولـــة تقوية نفوذها وتدعيم مركزها استعدادا لجولات آتية وجولات،

(53) Barraclough, Origins of modern Germany, p. 113.

ذلـك أن النبالة الألمانية علمانية كانت أم كنسية، تجاسرت على أن تضع يدها على مســاحات شاسعة من الأراضى الملكية مدعية حق السيادة عليها. بل بلغ بهم الأمر إلى حد اختطاف هنرى الرابع نفسه من بين أحضان أمه الوصية عليه الملكة آجنى Agnes لينشــأ تحت رعايتهم، ورحوا يقتسمون فيما بينهم المصدر الرئيسى لدخل الـتاج، نعـنى الأديـرة الملكية. ولم يكن هؤلاء المختطفون إلا الداهية آنو Anno رئـيس أسـاقفة كولونـى، وادلـبرت Adalbert رئيس أساقفة همبرج – بريمن Hamburg-Bremen وبـات علـى هذا النحو واضحا أن الوصاية على الممالك قد أمست نهبا بين أساقفة متعطشين ونبالة نهمة (٥٤) وحينما أصبح هنرى الرابع قادرا علـى الـتخلص من هذه الوصاية، كان عليه أن يدخل فى صراع سافر مع هؤلاء وأولـئك لاسـترداد كـل الأملاك والامتيازات التى اغتصبوها أثناء فترة الوصاية عليه. ولم يغفر له الأمراء هذا، ولا صفحت عنه الكنيسة.

فتحت ستار حل مشكلة التقليد العلمانى أصدر البابا جريجورى السابع قراره الشهير بحرمان هنرى الرابع وعزله

"anathematis vinculo alligatus et a regia dignitate depositus"

وأعلـن أن هـنرى الرابع لم يعد من حقه أن يعتلى العرش iustitio aum regnare prohibet وتـم تحرير رعيته من الخضوع له أو الالتزام بأى واجبـات أو تعهدات تجاهه (٥٥).

"Omnis populus quondam sibi subjectus a vinculo iuramenti ediem promissi sit absolutus".

وكان هذا يعنى فى حد ذاته تحريضا لرعاياه للثورة ضده، فاندلعت الثورات فعـلا فى مناطق متعددة من ألمانيا خاصة جنوبها وسكسونيا. وأذلت الإمبراطورية

---

(54) Thompson & Johson, op. cit., p. 374.

(55) Joachimsen, The investiture contest and the German constitutions, p. 117.

فـــي شـــخص هـــنرى عـــند كانوسا، وذهبت الحادثة في التاريخ مثلا (٥٦) ومع أن الأحـــوال التى أمست عليها ألمانيا عام ١٠٧٥ عندما بدأ الصراع بين هنرى الرابع وجـــريجورى الســـابع، كانت من العوامل المشجعة للبابا على تحديه السافر للملك الألمـــانى، حيـــث كانـــت تختلف اختلاف تاما عما تركها عليه هنرى الثالث لحظة وفاتـــه، إذ راحت تسير الملكية الألمانية إلى التفكك، وظهرت قوى جديدة كانت فى الحقـــيقة مجـــرد عوامـــل اجتماعية أكثر منها سياسية، ولعل ذلك يعود إلى سياسة كونـــراد الثانى فى اصطفاء عناصر غير معروفة، بالإضافة إلى أزدياد العداء من جانب الارستقراطية العلمانية، والمعارضة الكاملة من جانب الأكليروس تجاه فكرة الثيوقراطـــية التى طبقها هنرى الثالث بعزل وتعيين البابوات، نقول أنه رغم ذلك، فقد كان تدخل جريجورى فى ألمانيا، نقطة تحول خطيرة ليس فقط على عهد هنرى الـــرابع، بل على امتداد التاريخ الألمانى، إذ دمر هذا التدخل كل الخطط التى جاهد هـــنرى الرابع من قبل بكل قواه فى سبيل تقوية وتدعيم الملكية، وغير تغييرا كاملا أشـــكال الحكومة والتركيب الاجتماعى لألمانيا. ولا شك أن طبيعة التطور الألمانى مـــا بين عامى ٩١١ – ١٠٧٥، مهما كانت الصعوبات والمعاناة، كانت شيئا رائعا. لقـــد ســـلكت ألمانيا نفس السبيل الذى أقدم على اتباعه ملوك إنجلترا النورمان بعد خمســـين ســـنة مـــن الآن، وكان من الصعب على ملوك أسرة كابيه فى فرنسا أن يصـــلوا إلـــيه قـــبل النصف الثانى من القرن الثانى عشر، غير أن هذا الصرح تم تحطيمه نتيجة الصراع مع الكنيسة، وكانت رسالة جريجورى السابع فى الثامن من ديســـمبر ١٠٧٥ (٥٧) تفجـــيرا لثورة غيرت تماما طبيعة التطور السياسى الألمانى، فتحت صفحة جديدة فى التاريخ الألمانى بل فى التاريخ الأوروبى (٥٨).

---

(٥٦) الدلالة الوضحة لهذه الحادثة هى خضوع الدولة للكنيسة. وقد وعى المستشار الألمانى الأشهر فى القرن التاسع عشر، بسمارك، هذا المفهوم وهو يصارع الكنيسة الكاثوليكية عندما أطلق عبارته الشهيرة "لن نذهب إلى كانوسا".

(57) Letter of Gregory VII to Henry IV 1075.

(58) Barraclough, op. cit. p. 97.

فقـد وجدت النبالة الاقطاعية فى ألمانيا فرصتها التى تبحث عنها فى قرار العـزل الـذى صـدر ضـد هنرى، وأدعت عدم التزامه بقرارات مؤتمر تريبور Tribur (٥٩) ومارسـوا رياضـتهم المفضـلة فولـوا عليهم ملكا بديلا هو رودلف السـوابى Rudolf of Suabia رغـم أن هنرى عاد من رحلته المهينة إلى كانوسا يحمل قرار العفو من البابا. وشهدت ألمانيا حربا أهلية استمرت ثلاث سنوات سويا (١٠٧٧ – ١٠٨٠) وأدى تباطؤ جريجورى السابع فى تبيان موقفه إلى ازدياد أوار هذا الصراع، حتى إذ قتل رودلف اختاروا آخر خلفا له .. هيرمان Herman الذى لم يكن أكثر من ظل شاحب لم يقم له أحد وزنا على الإطلاق.

واسـتمرأت النبالة الألمانية أفعالها، فدفعوا كونراد ابن هنرى الرابع إلى أن يـرفع فـى وجه أبيه راية العصيان، ونادوا به ملكا عام ١٠٩٣، تشد البابوية من أزرهم بيد أوربان الثانى. ولئن كانت هذه المحاولة قد باءت بالفشل، فإن غيرها قد نجحت بعد أن بلغ هنرى الرابع من العمر أزدلة، إذ رفع الأمراء هنرى الابن ملكا عام ١١٠٤، والذى عرف بهنرى الخامس، ليتولى العرش فى حياة أبيه بعون البابا باسكال الثانى.

لا ريب أن هذه الأحداث ومثيلاتها، حملت الملكية الألمانية وهنا على وهن، راح يـترك بصـماته واضحة على البناء السياسى لألمانيا فى العصور الوسطى، وازدادت حدتـه بوفـاة هنرى الخامس سنة ١١٢٥، إذ انفجر الصراع سافرا بين حزب الولفيين القوى الذى يتزعمه هنرى المتكبر دوق سكسونيا، والذى لم يكن ابنه ووريـثه هـنرى الأسـد أقـل منه صلفا وعنادا، وبين أسرة الهوهنشتاوفن. وهو الصـراع الذى أودى بقوة ألمانيا السياسية إلى حد كبير، رأى فيه أحد المعاصرين،

---

(٥٩) عقد هذا المؤتمر فى مدينة تريبور فى أكتوبر ١٠٧٦ وضم أمراء ألمانيا الساخطين على هنرى سياسته ومحاولاته تدعيم السلطة الملكية، وأساقفتها المرتعشين خوفا من بطش جريجورى، وخلع المؤتمرون طاعة هنرى، وقرروا وجوب حصوله على غفران البابا خلال خمسة شهور عليه أن يعتكفها فى أحد الأديرة. والتزم هنرى بذلك فى أول الأمر، ثم أنسل تاركا الدير متجها إيطاليا للقاء البابا، بعد أن علم أن الأمراء دعوا البابا للحضور إلى ألمانيا. وقد التقى هنرى بجريجورى فى كانوسا حيث جرت حادثة الإذلال الشهيرة.

أوتو أسقف فريزيا، الراهب السيسترشيانى Cistercian والأخ غير الشقيق لكونراد الثالث، صورة قائمة لمستقبل ألمانيا، سجلها فى كتابه "تاريخ المدينتين" Historia de duabus civitatibus بقوله "أنه يشعر أن المملكة الألمانية كانت تسير إلى زوال، وأن نهاية العالم قد دنت وليس هناك بارقة أمل إلا فى المملكة السماوية التى هى لا ريب آتية" (٦٠). وكان من نتيجة هذا الصراع أبعاد الوريث الشرعى فردريك الهوهنشتاوفن باعتباره ابن أخ هنرى الخامس، واختيار شخصية مغمورة، أداة طيعة فى يد الأمراء والبابوية، لوثر، ليكون ملكا على ألمانيا. وتجلى مدى ضعف الملكية الألمانية إبان عهده، فى المرسوم الذى أصدره البابا أنوسنت الثانى عام ١١٣٣، بمنحه أملاك الكونتيسة ماتيلدا Matilda أميرة تسكانيا، إقطاعا من البابوية على أن يدفع عنها جزية سنوية (٦١). رغم أن ارث ماتيلدا كان فى قبضة ألمانيا واقعا منذ ضمه إليه هنرى الخامس فى أعقاب وفاة الكونتيسة.

وليس أدل على ازدياد نفوذ الإقطاع فى ألمانيا، واتساع سلطان الأمراء من رفض هنرى الأسد زعيم البيت الولفى الأن، ودوق سكسونيا، الانصياع لأوامر سيده فردريك بربروسا، باعتباره فصلا إقطاعيا له، عندما طلب إليه الاشتراك فى حملته إلى إيطاليا عام ١١٧٦، مما كان له أثره الكبير فى هزيمة الملك الألمانى هزيمة ساحقة فى موقعة ليناتو Legnano على يد مدن العصبة اللومباردية، ونزولة على إرادة البابوية. هذا الموقف من جانب هنرى الأسد كان نتيجة منطقية للضعف الذى انحطت إليه الملكية الألمانية من جراء الإغراق المستمر لفردريك الأول فى مشكلات إيطاليا، حتى أن هنرى أقدم قبل ذلك عام ١١٦٤ على استقبال سفراء الإمبراطور البيزنطى مانويل الذى كان يؤيد البندقية وعصبة فيرونا ضد الإمبراطور الألمانى، وثنى ذلك فى سنة ١١٦٨ بالزواج من ماتيلدا ابنة هنرى الثانى ملك انجلترا، ووصل صلاته بهذه المصاهرى بالتاج الإنجليزى وتخطاه إلى

---

(٦٠) انظر: Heer, The Medieval history, pp. 283 - 284.
وأيضا: Storayer & Munro, op. cit., p. 218.
(61) Tout, op. cit., p. 229.

الدانمـــرك. وعــندما عرج على القسطنطينية فى سنة ١١٧٢ وهو فى طريقة إلى الأماكـــن المقدســة، ســـرت الشائعات وعلت بأنه يتآمر مع مانويل البيزنطى ضد فـــردريك الهوهنشـــتاوفنى الألمـــانى (٦٢) وقـــد كشف ذلك كله عن أن هذا الفصل الإقطاعى ينتهج سياسة خارجية مستقلة، ويدبر أمور دوقيته كما لو كان ملكا متوجا.

وكـــان لابـــد للملكية الألمانية الجريحة أن تصفى حساباتها مع هذا الفصل المتمرد، الذى ازداد تكبرا بعودة فردريك خاسرا من إيطاليا على هذا النحو. وتمثل ذلك فى رفضه المثول بين يدى أقرانه حسبما تقضى التقاليد الاقطاعية عندما دعى لمحاكمته عام ١١٧٩ على ما اقترفت يداه. عندها استجمع فردريك قواه، واستحث صـــغار النبلاء لتأييده، ووعدهم بأراضى وممتلكات هنرى الأسد إذا ماعاونوه فى تحطيم قوة خصمه الولفى هذا. فلما تحقق له ما أراد سنة ١١٨٠ كان عليه أن يفى بما عاهد عليه الأمراء.

ولا شـــك أن هـــزيمة هنرى الأسد واستسلامه ونفيه، كانت سببا مباشرا فى تغيـــير الخـــريطة الألمانـــية تغيـــيرا جذريا خاصة فى الشمال، فقد اختفت الدوقية القديمة، سكسونيا، وظهرت بدلا منها مجتمعات صغيرة، وأصبحت وستفاليا دوقية مســـتقلة، واتســـعت ســـلطات رجال الأكليروس على مناطق فسيحة خاصة رئيس أســـاقفة بريمـــن ومجـــد برج، وعادت الإقطاعية التى كان هنرى الأسد قد ضمها لســـطانه، إلـــى الأســـاقفة (٦٣). وهكـــذا اختفت الدوقات القبلية القديمة لتحل محلها وحـــدات صغيرة، وإزدادت بالطبع عدد الدوقيات، وباستثناء سوابيا، فلم تعد إحدى هذه الدوقيات تقارن بسابقتها فى المساحة أو الأهمية. ولم يعد لقب الدوق يدل على نفـــس الأهمية التى كانت له من قبل. وظهرت قوة أخرى من طبقة أقل نبالة لكنها لها نفس السلطان مثل حكام ثورنجيا وبراندنبرج (٦٤) وكان توزيع السلطة على هذا العـــدد الكبـــير من الأمراء "غير النبلاء" بدلا من العدد القليل من النبلاء الأصليين،

---

(62) Stephenson, Mediaeval history, p. 402.

(63) Brooke, A history of Europe, p. 503.

(64) Mitteis, Feudalism and German Constitution, p. 259.

يعنى فى الوقت ذاته تخلص الملكية الألمانية من التهديد الخطير الذى كان يتهددها، ولــو كــان فــردريك بربارو‌ســا على نفس قدر تفكير معاصريه، روجر الصقلى وهنرى الثانى ملك إنجلترا، لكان من الممكن أن ينتهز هذه الفرصة لتدعيم سلطانه وخلق نظام إدارى مركزى متميز، يثبت به دعائم الملكية.

ومــن هــنا يمكن القول مع "كانتور" أن محاكمة هنرى الأسد تمثل اللحظة الحاســمة فــى تاريخ الإقطاع الألمانى، ذلك أن فشل الإمبراطور فى ضم أراضى أعدائــه الولفييــن، كان يعنى أنه لا يستطيع أن يستغل القانون الإقطاعى فى زيادة سلطانه، كما كان عليه الحال فى إنجلترا على مدى أكثر من قرن من الزمان، وكما حــدث بــنجاح بعد ذلك فى فرنسا (٦٥) لكن فردريك لم يكن رجلا سياسيا، بل كان تقلــيديا فــى كــل تصرفاته. ولما كان هدفه الإمبراطورى فى إيطاليا يسيطر على سياســته، فــإن ركــيزته الأساسية للنجاح فى ذلك كانت الاعتماد على وضعه فى ألمانــيا. ولم يستطيع فردريك أن يمد بصره خلف القانون والتقاليد الإقطاعية. ومن ثــم فإنــه نتــيجة للحــروب الأهلية المستمرة فى ألمانيا، حتى قبل عهد فردريك بربار‌وســا، راح الملوك يزدادون اعتمادا على "حسن النوايا" من جانب النبلاء (٦٦). ولــذا كــان علــيهم باستمرار أن يقدموا تنازلات متزايدة لهؤلاء الأمراء لاكتساب تعــاونهم وتــأيدهم، خاصــة التأيــيد العســكرى. وكان هذا يعنى اعترافا متزايدا بطموحــاتهم الخاصة وبحقوقهم السيادية فى مناطق سيادتهم، بما فيها سلطاتهم على النــبالة الدنــيا، وحقهم فى الوراثة. ومن ثم أصبح من السهل انتقال لقب الدوق أو الكونــت مــن الأب إلــى ابنه وكذا الأراضى. وأمست فكرة إقامة دولة لها كيانها السياسى، خاصة الالتزام العسكرى تجاه الملك، أمرا عبثا. ولعبت المحلية الإقليمية الــتى ظهرت بعد هزيمة هنرى الأسد دورا كبيرا فى الابتعاد بألمانيا عن قيام دولة موحــدة. ولقــد كانــت أهم وأخطر هذه الأمور – على حد تعبير باراكلاف – أن ألمانــيا راحت تسير بخطى ثابتة نحو تأصيل وترسيخ النظام الإقطاعى، وكان هذا

(65) Cantor, Mediaval Europe, p. 434.

(66) Brooke, op. cit., pp. 505 – 506.

شيئا فرغت منه فرنسا فى القرن التاسع، فراحت القلاع تقام فى كل مكان، وساعدت الحروب الأهلية على تعميق الجذور الإقطاعية، وبقدر ما حققه الأمراء من مكاسب، بقدر ما خرج التاج فى النهاية خاسرا (٦٧).

وهناك صورة واضحة تعطينا دليلا على ما أسلفنا، ذلك أن وفاة هنرى السادس عام ١١٩٧ بعد السنوات التى أمضاها بعيدا عن ألمانيا، وموته غريبا فى بالرمو، لم يكن إلا إشارة البدء للحزبين المتصارعين فى ألمانيا للاقتتال. وطوال أربعة عشر عاما كاملة (١١٩٨ – ١٢١٢) اصطلت ألمانيا بنيران حرب أهلية طرفاها فيليب السوابى سليل أسرة الهوهنشتاوفن، الوريث الشرعى باعتباره أخ هنرى السادس، إذ كان فردريك ابن هنرى من كونستانس ما يزال صبيا قاصرا، وأوتو "الرابع" دوق برنسويك زعيم الولفيين ابن هنرى الأسد. ودون أن نخوض فى تفاصيل هذا الصراع نقول أنه جر إلى ساحته النفوذ الأجنبى للتدخل فى الشئون الداخلية لألمانيا (٦٨) إذ وقفت إنجلترا إلى جانب حلفائها الولفيين بينما أيدت فرنسا بحكم عدائها للإنجليز، حقوق فيليب السوابى الهوهنشتاوفنى، والذى اعتبر نفسه – رغم ضعف شخصيته ونفوذه الواضحين، سلسل القياصرة الرومان، وخلع على نفسه لقب فيليب الثانى بعد فيليب الأول الذى حكم الإمبراطورية الرومانية فى القرن الثالث الميلادى (٢٤٤ – ٢٤٩)، ولما كانت البابوية قد وضعت فى اعتبارها ضرورة الإجهاز على الهوهنشتاوفن، فقد راحت تتدخل بكل ثقلها فى هذه الحرب، أو بتعبير أدق على حد قول المؤرخ بيرين، أن هذه الحرب جرت كما تشتهى البابوية (٦٩)، فقد أخذت تنقل تأييدها من جانب إلى آخر على عهد رجلها الأشهر أنوسنت الثالث Innocent III الذى أعلن صراحة حقه، باعتباره راعى الكرسى البطرسى، فى اختيار المرشح الجديد لعرش ألمانيا "مادامت الإمبراطورية تستمد

---

(67) Barraclough, op. cit., pp. 136. 139, 141 – 147.

(٦٨) للمزيد من التفاصيل عن الحرب الأهلية هذه راجع C.M.H. Vol VI, pp. 44 – 79.
وأيضا : Ueemann, op. cit. pp. 206 – 212.

(69) Pirenne, op. cit., p. 285.

أصولها وسلطتها من البابوية" أما أصولها فلأن الإمبراطور أعتلى عرشه، على يد البابا الذى توجه وسلمه مقاليد الإمبراطورية" (٧٠) وبناء على هذا الحق، ومبررات تتفق وهواه ومصلحته السياسية، أعلن اختيار أوتو الرابع دون نظر إلى أصحاب الحق الشرعيين، لكن مع ذلك أخذ يغير موقفه فيما بعد حسبما تحمل إليه رياح الحرب ومطامع كرسيه أبناء جديدة أو آمالا معقودة. ولا شك أن طول الحرب الأهلية الألمانية على النحو الذى أرادته البابوية وكان الرابح الوحيد منه فى نهاية الأمر النظام الإقطاعى فى ألمانيا، والذى راح يثبت جذوره بصورة عميقة، نتيجة ما أقدم عليه زعيما الحزبين المتصارعين من تقديم التنازلات وإعطاء الامتيازات للأمراء الألمان، إرضاء لهم على مناصرتهما. وانسحب هذا أيضا على رجال الكنيسة الذين حققوا فى هذه الفترة ما لم يحققوه من قبل على عهد السكسونيين أو الفرنكونيين (٧١).

ومن الطريف أن الأمراء، الذين رفضوا فى البداية العرض الذى تقدم به إليهم فيليب السوابى باختيار فردريك ابن أخيه هنرى السادس ملكاً بدلا منه، حتى لا يتهم باغتصاب العرش، عادوا الآن بعد أن اتخمت نفوسهم – وإن كانوا ما يزالون ينتظرون المزيد – إلى التحول بولائهم المتقلب إلى اختيار فردريك "الثانى" ملكا، وهم الذين أغمضوا عيونهم عن حقه عمدا طوال هذه السنوات.

وباعتلاء فردريك الثانى عرش ألمانيا، تدخل المشكلة الإيطالية ذروة تعقيدها فى السياسة الألمانية، إذ يعد عهده تجسيدا كاملا لكل آمال الملوك الألمان تجاه إيطاليا، وكل مظاهر العداء من جانب البابوية إزاء الملكية الألمانية، وفكرة الإمبراطورية التى بذرت هى بنفسها منذ البدء بذرتها، وكل جوانب الابتزاز وتعميق النزعات المحلية والشكل الاقطاعى لسلطات أمراء العلمانيين والاكليروس على السواء. وقد افتتح عهده بوعد قطعه على نفسه للبابا أنوسنت الثالث، تنازل له

---

(70) Decision of Innocent III in regard to the disputed election of Frederick II, Philip of Suabia, and Otto of Brunswick, 1201.

(71) Concessions of Philip of Suabia to Innocent III, 1213.

فيه عن كل ما كان يناضل البابوات من أجله طوال قرنين كاملين مضيا [٧٢] يدفعه إلى ذلك حداثة سنة واعتماده على تأييد البابوية فى التصديق على اختياره للعرش. وثـنى ذلـك بتعهد آخر للبابا فى سنة ١٢١٦ ضمنه تنازله عن صقلية لابنه الطفل هـنرى [٧٣]. ولو قدر لهذه التعهدات والوعود أن تنفذ كما جرت، لانتهى الصراع بيـن البابوية والإمبراطورية تماما، إلا أن فردريك أدرك فيما بعد أنه قد تنازل عن كـل مـا جاهد أسلافه الأباطرة من أجله حول فكرة الإمبراطورية. ومن ثم عمل على رفض كل ماقطعه على نفسه، عند تتويجه، فقاد الإمبراطورية بذلك وأسرته إلى حتفها.

فمن المعروف – على النحو الذى أسلفنا – أنه منذ أعتلت أسرة الوهنشتاوفن العـرش فى ألمانيا، راحت مكانة إيطاليا فى السياسة الألمانية تتزايد بصورة بدت وكأنهـا أمسـت شيئا لا غنى عنه لألمانيا، ومثلت حجر الزاوية فى سياستها كلها، فمـن كونراد الثالث حتى فردريك الثانى أضحى التحول كاملا – وذلك بحكم مولده مـن أم صـقلية، ونشأته فى صقلية، فأضحى صقليا خالصا [٧٤]، يريد أن يقيم فى إيطالـيا ملكـية مستبدة على نسق ما أقامه فى صقلية، حيث جعل لنفسه الإشراف علـى القضـاء الجـنائى، وهدات من حريات النبلاء ورجال الدين والمدن، ويعقد مؤتمـرا فـى كريمونا Cremon سنة ١٢٢٦ يعلن فيه حرصه الكامل على حقوق الإمبراطورية فى السيادة على المدن اللومباردية، ويثير مخاوف البابوية بمحاولاته المسـتمرة لإثـبات سـيطرته على جنوب إيطاليا، ثم لا يلبث أن يتوج ابنه هنرى لـيخلفه علـى عـرش الإمبراطورية مما أفزع البابوية [٧٥] ودفعها إلى اتهامه من جانـب كـل من جريجورى التاسع وأنوسنت الرابع، بالهرطقة والتجديف، ووصفه

---

(72) Promise of Frederick II to Innocent III, 1213.

(73) Promise of Frederik II to resign Sicily after his Coronation as emperor, 1216.

(74) Pirenne, op. cit., p. 314.

(٧٥) فيشـر؛ تـاريخ أوروبـا العصور الوسطى، ج١ ص ٢٥٢ – ٢٥٣؛ ودكتور سعيد عاشور؛ أوروبا العصور الوسطى؛ ج١، ص ٣٦٣ – ٣٦٤ وأيضا:

Hyde, Society and politics in Medieval Italy, pp. 119 – 124.

بأنـــه "الحـــيوان الـــذى جـــاء ذكـــره فى سفر الرؤيا .. عبد الشيطان. نبى أعداء المسيح"(٧٦).

وساعد فردريك البابوية بسياسته على أن تسعى جاهدة لتحطيمه، وأن تستغل هـــذه السياســـة فـــى أثارة الاضطرابات ضده فى ألمانيا، وتدبير الثورات والمكائد للخـــلاص مـــنه والـــتحالف مـــع الأمراء لإزاحة هذه الأسرة من العرش الألمانى وبالـــتالى صـــقلية، وفـــتح باب ألمانيا أمام النفوذ الأجنبى الفرنسى الإنجليزى. بل وعـــرض تاجهـــا علـــى روبـــرت أخى القديس لويس التاسع ملك فرنسا، هاكون Haakon ملـــك الـــنرويج، وأمـــير من أمراء الدانمرك، وهنرى راسبى الثورنجى Hanry Raspe الذى قبله سنة ١٢٤٦، والذى كان على استعداد لتسليم كل سلطاته علـــى الكنيسة الألمانية إلى مندوبى البابا. فلما توفى فى العام التالى، رشح أنوسنت الرابع أحد صنائعه هو وليم الهولندى (٧٧). ولا يمكن القول أن أيا من المرشحين قد حظى بالاعتراف الكامل بسيادته فى ألمانيا، لكن وجهة نظر أنوسنت كانت تتلخص فـــى إثارة العراقيل والعقبات أمام فردريك أكثر من استقرار العرش الألمانى، إلى الحد الذى أقدم فيه البابا على إرسال مبعوث شخصى له إلى ألمانيا هو فيليب أسقف فـــيرارا Ferrara يحمـــل تعليمات واضحة مؤداها خلق الصعوبات والفوضى أمام التاج (٧٨).

فعلـــى امـــتداد عهـــد فردريك الثانى أتت صقلية وإيطاليا دائما فى المقام الأول، وحظيـــت العناصـــر الإيطالية بالمكانة المرموقة دوما على حساب العناصر الألمانية، حـــتى أمست ألمانيا إبان حكمه مجرد ولاية تابعة أو حتى مستعمرة تدار بواسطة نائب عـــنه، هـــو ابـــنه هنرى أولا ثم كونراد من بعد. لقد كان اهتمامه فى ألمانيا محصورا للحصـــول على اللقب الإمبراطورى فقط .. ومن هنا فإن اتجاهه إلى ألمانيا كان لتدعيم

---

(76) General Council of Lyons, Sentence of deposition promulgated by Innocent IV.

(٧٧) للمزيد من التفاصيل عن دور البابوية هذا: راجع

Thompson & Johnson, op. cit., pp. 420 – 428.

وأيضا : Waly, Later Medieval Europe, p. 76.

(78) Scott, op. cit., p. 268.

نفوذه وسلطانه فى إيطاليا وصقلية (٧٩) وهذا الاتجاه يمثل سياسة مضادة تماما لما سعى إلـــيه أوتـــو الأول، عندما كان اهتمامه بإيطاليا بحثا عن قرار سلطانه فوق الإكليروس الألمـــانى. وهكذا نرى أن التحول أصبح كاملا خلال هذه القرون الثلاثة ما بين النصف الثانى من القرن العاشر ومنتصف القرن الثالث عشر.

ويتســـاءل هـــنرى بيرين فى صراحة .. ماذا كانت ألمانيا تعنى لفردريك؟ ويجيـــب فـــى وضـــوح: لقـــد كانت مجرد طريق عليه أن يسير فيه ليعتلى عرش القياصـــرة، أمـــا قوته الرئيسية فكانت تتمثل فى صقلية .. أنه لم يكن حتى يعرف اللغـــة الألمانية (٨٠). بل لقد كان فى رأى D. Waley يمقت ألمانيا (٨١). ويعتبرها "أرض الإحـــراج الكئيبة، والمدن الموحلة، والقلاع المنفرة" (٨٢) بينما كانت إيطاليا بالنســـبة لفـــردريك – حســـب تعبير كانتروفتش Kantorowicz "مرفأة الأمين من الطوفـــان، وفردوســـه الحانى وسط غابة الأشواك" (٨٣) ومن هنا كانت نظرته إلى ألمانـــيا تحمـــل فـــى طـــياتها كل معانى التشاؤم والقنوط، ولما كان إيطالى المولد والنشـــأة، فـــإن نظرته إلى ألمانيا على هذا النحو، باعتبارها مجرد مصدر للرجال والأموال، أكثر من كونها مملكة يحكمها بصفة مباشرة، أمرا لا يمكن تجنبه، ومن ثـــم لم يكن بمقدوره أن يكون فى مملكته الإيطالية وألمانيا فى وقت واحد، ولذا كان الغياب عن أيهما لابد أن يسوق إلى تآكل السلطة الملكية بها.

وهذا هو ما حدث بالفعل لسلطة التاج فى ألمانيا، من جراء إقامته فى صقلية وتـــرك ابـــنه هنرى فى ألمانيا (٨٤)، وتمثلت خطورة ذلك فى أن هذا الاختفاء للتاج جـــاء فى أعقاب الحرب الأهلية الطويلة التى تركت بصماتها الواضحة على الكيان

---

(79) Barraclough, op. cit., pp. 219 – 211.
(80) Pirenne, op. cit., pp. 314 – 315.
(81) Waley, op. cit., p. 75.
(82) Barraclough, op. cit., p. 220.
(83) Kantorowicz, Frederick the Second, p. 220.
(٨٤) حكم فردريك الثانى ثمانية وثلاثين عاما (١٢١٢ – ١٢٥٠) لم يمكث منها فى ألمانيا سوى تسع سنوات على فترتين متباعدتين.

السياسى للسلطة الملكية فى ألمانيا. مما أعطى الفرصة لكى تخضع ألمانيا بصورة عملية للأمراء الأكليروسيين والعلمانيين. ولما بات كل ما يرجوه فردريك من ألمانيا أن تثير فى وجهه المتاعب، فقد أصبح على استعداد كى يذهب فى هذا السبيل إلى آخر المدى، وأن يقدم من التنازلات ما يهئ له الفرصة لتثبيت دعائم سلطانه فى صقلية وإيطاليا. ولعل هذا هو الذى يفسر إقدامه فى عام ١٢٢٠ على منح الأكليروس الألمانى امتيازات واسعة Privilegium in Favorem principum ecclesiasticorum تعطيهم حقوقا مطلقة فى اختيار الأساقفة ورؤساء الأساقفة، والتصرف فى الاقطاعات الكنسية كيفما يحلو لهم، وإغفال الإدعاءات الملكية برفع الضريبة عليها عند الضرورة أو بناء القلاع فوقها (٨٥) وتنازل عن حق إقامة مراكز جديدة لتحصيل المكوس الجمركية أو دور لضرب النقود فى الأقاليم الكنسية، وترك للأساقفة كل ما كان قد بقى له من حقوق فيما تختص بالمحاكم وأمور التقاضى ووعد بأن ينظر إلى أى شخص يصدر ضده تختص الحرمان الكنسى على يد أحد الأساقفة على أنه خارج عن القانون. ولا شك أن هذا التصرف الذى جاء فى صالح الكنيسة، قد أساء بشكل واضح إلى صورة العلاقات الطويلة بين الكنيسة والملوك الألمان، ذلك أنه لم يعد لديها الآن ما يدفعها إلى البحث عن التحالف مع التاج، وما دامت القوة الحقيقية قد انتقلت إلى أيدى الأمراء العلمانيين، فإن أمراء الكنيسة راحوا ينظرون إليهم باعتبارهم سندهم الزمنى، فأطاح ذلك بالبقية الباقية من الولاء الرسمى لدى الأكليروس تجاه الحكومة (٨٦) وهكذا .. فإن ما أقدم عليه فردريك الثانى هنا يعد تدميرا كاملا للتاج الألمانى، فقد صنع من كل أمير أكليروسى، ملكا فى الحقيقة وإن كان لا يحمل اللقب، فجرد التاج من حقوقه وسلطاته (٨٧).

---

(85) Concessions of Frederick II to the ecclessiastical princes of Germany, 1220.

(86) Scott, op. cit., pp. 266 – 267.

(87) Thatcher & McNeal, op. cit. p. 233.

وكان فردريك الثانى يهدف أساسا بهذه التنازلات إلى اجتذاب الكنيسة الألمانية إلى صفه، إذا ما حاولت البابوية التعرض له ولسياسته، وذلك بما عدته خرقا للتعهدات التى قطعها على نفسه عند إعلانه ملكا،=

وكانـــت هـــذه الامتيازات التى حصل عليها أمراء الأكليروس، فاتحة خير وبـــركة للأمـــراء العلمانييـــن، وكارثة خطيرة فى الوقت نفسه للكيان السياسى فى ألمانيا، فقد راح هؤلاء الأمراء يسعون بكل ما وسعهم الجهد لتدعيم نفوذهم وزيادة سلطاتهم وتوسيع رقعات أراضيهم الألمانية. لكنهم اصطدموا الآن بالسياسة الجديدة الـــتى راح يتـــبعها هنرى "السابع" مخالفا تماما لسياسة أبيه، بل لسياسة أسلافه من الملوك الألمان جميعهم، ذلك أن هنرى أبصر أمامه طريقا واحدا للخلاص أو على الأقل للحد من نفوذ النبالة الألمانية، العلمانية والاكليروسية، ألا وهو الاعتماد على المدن التى كانت تحاول جاهدة أن تحمل لنفسها على المزيد من مظاهر الاستقلال، وتسعى للتحرر من سلطان الأساقفة المتزايد، وتلك كانت السمة الرئيسية للقومونات التى شهدتها العصور الوسطى فى الشمال الإيطالى فى لمبارديا، وفى ألمانيا كذلك. ومن الغريب أن ملكا مثل فردريك الثانى، يتمتع بهذه القدرات غير العادية، والثقافة العالية، والمهارة الإدارية، يغفل عن دور المدن الناشئة فى التصدى لسلطان أمراء الكنيســة والأمـــراء العلمانيين، بل لقد أقدم على اتخاذ عدد من الإجراءات كان من شأنها حماية الأساقفة من "تطاول" المدن داخل الأقاليم الكنيسة.

ومـــن البديهى أن إزدهار المدن كان مؤشرا طبيعيا نحو التحول عن النظام الإقطـــاعى والاقتصــــاد الـــزراعى، والأرض باعتـــبارها المصدر الرئيسى للقوة الاقتصــــادية وبالـــتالى السياسية، إلى الاقتصاد النقدى والأموال والتجارى بصفتها المحـــرك الأساسى لدولاب العمل الاقتصادى فيما بعد. وكان هذا يعنى بتعبير آخر أنهـــيار الـــنظام الاقطـــاعى، وبتعبـــير أكثر وضوحا ودقة، أنهيار سلطان الأمراء العلمانييـــن والكنسيين. وساعد على سرعة هذا التحول أيضا فى القرن الثالث عشر عـــاملان رئيســـيان، أولهما ما حصلت عليه مدن العصبة اللومباردية من اعتراف بحقوقهـــا وامتـــيازات فـــى أخريات القرن الثانى عشر (١١٨٣)، بمقتضى معاهدة

=بعـــدم توحـــيد ألمانيا وإيطاليا تحت سيادة شخصية واحدة فى ذريته، وذلك عندما أقدم على إعلان أبنه هـــنرى (الســـابع) ملكـــا على ألمانيا، والذى كان يعد بصفة طبيعية ملكا على صقلية باعتباره الوريث الشرعى لأبيه، الذى لم يكن يعترف فى قرارة نفسه بما أهد عليه فى البدء البابوية.

كونستانس Constance التى انتزعتها هذه المدن من الإمبراطور فردريك الأول بربارosa، بعد أن لازم سوء الحظ حملاته المتتالية على إيطاليا [٨٨] فأصبحت هذه الامتيازات مثالا يحتذى لدى المدن الأخرى فى بقية الدول الأوروبية، وحرص رجال المدن على الحصول على "البراءات" التى تقرر مثل هذه الحقوق من جانب الأمراء. أما الثانى فهو الفشل الذى منيت به الحركة الصليبية مما أودى بها فى القرن الثالث عشر وعودة الأمراء الذين شاركوا فيها إلى الغرب مفلسين أو موتهم فى الشرق، وضياع الأرض إلى صالح التاج بعد أن رهنها أصحابها قبل رحيلهم إلى الأراضى المقدسة. ومن ثم راحت الأهمية الاقتصادية والسياسية للأرض تتولى إلى الظل تدريجيا، بينما أضحت المدن الناشئة بنشاطها التجارى تلعب دورا هاما راح يتزايد مستقبلا بصفة مستمرة.

ومما يدعو للعجب أن كل ملوك ألمانيا دون استثناء عصبوا عيونهم عن أبصار هذه الأهمية التى تمثلها تلك المدن. والأمثلة على ذلك كثيرة تجلت بصورة واضحة فى رفض هنرى الرابع العرض الذى تقدمت به مدن العصبة اللومباردية لتأييده وهو فى رحلته إلى مذبح الاذلال فى كانوسا، ليقدم لجريجورى السابع كبرياء الإمبراطورية قربانا، ومع ذلك لم تتخل عنه هذه المدن فى أخريات عهده. ووقف فردريك بربarossa موقف العداء السافر لقومون روما وأرنولد البرشى Arnold of Brescia وللمدن اللومباردية التى أرهقته من أمره عسرا خلال حملاته العسكرية إلى إيطاليا، والتى استنفذت كل طاقات ألمانيا من المال والرجال دون أن يفيق أو يحقق كسبا معينا، مع أن فردريك بربarossa كان يدرك يقينا أن أعداءه، المدن اللومباردية والبابوية، هما أيضا يحملا لبعضهما عداء كامنا، وكانت الاستراتيجية تقضية أن يعمل كى يظل هذا العداء بينهما قائما، بل وكان فى مقدوره أن يحقق ذلك بدلا من دفعهما – بسياسته – إلى تكوين جيش واحد ضده. وكان عليه فى الوقت نفسه أن يكون عارفا بقدرته التى لا تستطيع أن تحارب كل أعدائه دفعة واحدة، وأن تحصل له على كل الحقوق، وكان من الأفضل بالنسبة له أن يتفق

(٨٨) انظر : The peace of Constance, January 1183.

مــع أقــل خصومه شأنا حتى يضمن تعاونهم معه ضد عدوه الأكبر البابوية، التى كانــت هــى الأخــرى خصــمهم العنــيد. غير أن هذا هو الشئ الذى لم يستطع بربروســا، بــل ولم يرد أن يقدم عليه [89] وحتى فردريك الثانى نفسه، الذى كان يجــب أن يكــون من بين الأباطرة أكثر تعقلا وإدراكا لمغبة هذه الأمر، استمر هو الآخــر فــى المراهنة على الجواد الخاسر، وذلك باعتماده على الأمراء العلمانيين والاكليروســيين الذيــن كــانوا من الطبيعى أن يهجروا جانب الإمبراطورية فور حصولهم على ما يبتغون.

ولا ريــب أن الامتــيازات الــتى منحها فردريك الثانى لرجال الإكليروس، وخاصــة تلــك التى تتعلق بموقف الأساقفة تجاه المدن، تعد شيئا خطيرا، ليس فقط لأنها تشير إلى تحلل السيادة الملكية فى الأقاليم الخاضعة لرجال الكنيسة الطامحين الذيــن كــانوا يقتربون الآن من الاستقلال الكامل، بل أنها كانت المثل الأخير فى العمل المقدور على كل أباطرة ألمانيا الذى حال دون إدراكهم، كما أدرك ملوك آل كابيه فى فرنسا، أن الصراع ضد النظام الإقطاعى، وهو الشئ الذى لا يمكن تجنبه إذا أريــد قــيام دولة قوية، كان يقتضى بالضرورة أن تكون هذه المدن الناشئة هى الحليف القوى والطبيعى للملوك فى هذا الصراع [90] ولم يحاول هؤلاء الأباطرة أن يتعلموا شيئا من تجربة هنرى الرابع فى أيامه الأخيرة عندما بقيت هذه المدن على ولائها له، بعد أن تخلت عنه الكنيسة، وعاداه النبلاء وتمرد عليه حتى ابنه.

ولما كان هنرى "السابع" قد استوعب الأمر بكامله على هذا النحو، ولما كان يعتــبر نفسه فى المرتبة الأولى ملكا ألمانيا أكثر من اهتمامه بأن يكون إمبراطورا رومانــيا، وهو ماسار على الضد منه كل الخلفاء أوتو الأول، فقد وضع ثقته كاملة فــى المدن الألمانية التى أعطته هىالأخرى تأييدها المطلق ضد عدوهما المشترك، الأمراء الإكليروسيين والعلمانيين. واستشعر هؤلاء الخطر يأتيهم من جراء السياسة الجديــدة الــتى ينسج هنرى خيوطها، مهددا بالضياع كل سلطاتهم ومكاسبهم التى

(89) Thompson & Johnson, op. Cit., p. 430.
(90) Thompson & Johnson, op. Cit., pp. 418 – 419.

حصلوا عليها خلال السنوات الطوال التى كان التاج الألمانى يعانى فيها أوجاع الضعف وآلام التدخل البابوى. ومن ثم أعلنوها ثورة عارمة ضد هنرى والمدن، مما هدد ألمانيا بفوضى حرب أهلية جديدة كانت قد برئت من بعض جراحاتها منذ عشرين عاما فقط. واستدعى ذلك قدوم فردريك الثانى على عجل ليقر الأمور فى ألمانيا، حيث وجد نفسه مسوقا إلى السير فى نفس الدرب الذى اختطه دون تدبر أسلافه. فأقدم على منح الأمراء العلمانيين امتيازات Statutum in favorem Principum (١٢٣١ – ١٢٣٢) حققت لهم ما كان قد أعطاه لأمراء الاكليروس منذ أثنتى عشرة سنة خلت، فأضحت لهم السيادة كاملة على إجراءات التقاضى فى أقاليمهم، وحق إقامة دور سك النقود، واستخدام الطرق والمجارى المائية، واتخاذ الإجراءات التى تكفل إغلاق أبواب المدن فى وجه الاقنان الهاربين. بل أن تلك الامتيازات قضت بأن كل القوانين الإدارية الجديدة والضرائب المستحدثة، لا يصبح لها الصفة الشرعية إلا بعد استشارة الأمراء العلمانيين أو الكنسيين لهذه الأقاليم (٩١) وهكذا فإن هذه الامتيازات التى منحت الآن للأمراء العلمانيين، وقرينتها التى سبق إغداقها على الاكليروسيين، أدت إلى إتمام كمال التفسخ السياسى للنسق الاقطاعى فى ألمانيا، وبصفة قانونية. وبهذا ذهب مع الريح سلطان الملك الألمانى.

ويعلق المؤرخ الألمانى فردريش هير F. Heer على ذلك، بالنعى على ما ذهب إليه الإمبراطور فردريك الثانى معتبرا إياه أستاذ لتوماس الأكوينى Thomas Aquinas فى شكه المزمن وريبته تجاه المدن (٩٢)، ففقد فردريك الثانى بذلك نصيرا قويا كان من الممكن أن يقدم له يد العون كاملة فى صراعه ضد البابوية وحلفائها الأمراء فى داخل ألمانيا. ولما لم يكن هنرى الابن راضيا عن

---

(91) Statute of Frderik II in vor of the princes, 1231 – 1232.

(92) Heer, the Medievel history, p. 71.

وانظر أيضا:

Otto freiheer, constitutional Reorganization and reform under the Hohenstaufen, p. 211.

هـذا المـنهج، فقد أقدم على التحالف مع مدن العصبة اللومباردية والمدن الألمانية الـتى وقفـت إلـى جواره، وأعلن الثورة فى ألمانيا، مما دفع أباه إلى القدوم فى زيارته الأخيرة إلى ألمانيا عام ١٢٣٥، ليخمد هذه الثورة وليقبض على ابنه وينفيه إلى أبوليا Apulia ليظل هناك فى سجنه حتى يأتيه الموت سنة ١٢٤٢ (٩٣).

هكـذا أمست الصورة العامة لألمانيا فى منتصف القرن الثالث عشر حالكة السـواد، فالإمـبراطور مشغول عن بلده بمملكته فى صقلية، والبابوية تسعى حثيثا لـتدمر كل شئ فى صقلية وألمانيا على السواء، وأمراء الدين والدنيا حققوا كل ما تصبو إليه نفوسهم وشهوة السلطان فى صدورهم، وانفصلت بوهيميا لتصبح مملكة مسـتقلة، وأتحـد الفرسـان التـيوتون مع فرسان ليفونيا Livonia واستولوا على شـواطئ البحر البلطى لتزداد سطوتهم ضد التاج، وإزداد نمو المدن الألمانية مثل ورمـز وميـنز وكولونى وبازل مما قوض دعائم السلطة المركزية. وصدق على الإمـبراطورية الألمانـية ملاحظة المندوب البابوى همبرت Humbert فى مجمع لـيون المنعقد سنة ١٢٧٤ "أنها أمست إلى الضياع quasi ad nihilum لقد أضاع الأباطـرة الألمـان سلطانهم فى ألمانيا بتدخلهم المستمر فى إيطاليا، فأصبحوا كمن يبيع رخيصا ليشترى غاليا (٩٤).

علـى هذا النحو، فإن انتهاء حكم أسرة الهوهنشتاوفن بإعدام كونرادينو عام ١٢٦٨م- كمـا أسـلفنا – أو حتى بوفاة فردريك الثانى سنة ١٢٥٠م، يحدد خاتمة حقبة معينة فى تاريخ ألمانيا، فقد ولى الآن زمان الملوك الأقوياء بها وأقبل عصر أمـراء الإقطـاع. لقد حقق النظام الإقطاعى فى ألمانيا آنذاك انتصارا باهرا، أو

---

(٩٣) يختلف المؤرخون حول وفاته، فيعتقد بعض أنه ضاق ذرعا بعمليات المراقبة المستمرة التى فرضت عليه، فألقى بنفسه من اعلى فمات منتحرا، بينما يرجح آخرون أن اباه قد حرض على قتله، ويدللون على صدق دعواهم بما أقدم عليه القسيس فى عظته عند دفنه حين قرأ آية الكتاب المقدس "ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه" (تكوين ٢٢/١٠). للمزيـد مـن التفاصيـل انظـر:
Scott, op. Cit. p. 288.

(94) Mundy, Europe in the high Middle Ages, pp. 368 – 370.

بعبارة أخرى، لقد فشل الألمان فى التغلب على مشكلة الوحدة السياسية. وكان الاقتناع الثابت لدى المؤرخين الألمان أن السبب الرئيسى فى إخفاق ملوك ألمانيا فى ذلك، هو ضياع جهدهم وطاقاتهم وموارد بلادهم، بل ودماء الألمان أنفسهم جريا وراء أحلام بعيدة المنال عن السيادة على إيطاليا وعالمية الإمبراطورية (٩٥)، وارتسمت علامات الندم على أقلامهم وهم يلومون على ملوك ألمانيا، مبينين أنهم لو قصروا جهدهم على ألمانيا وحدها لحالوا دون تفسخها على هذا النحو ولأمكن تحقيق الاتحاد الألمانى الذى تأخر إلى القرن التاسع عشر قبل ذلك بسبعة قرون أو ربما خمسة على الأقل (٩٦). فلقد ظل ملوك ألمانيا لفترة طويلة بعد تأكد فشل سياسة الأوتويين تجاه الإمبراطورية، يرفضون بعناد الإقرار بفشل هذه السياسة. وبدا لهم جوهريا وجود نوع من الوحدة السياسية، شأن عالم المسيحية عقيديا. ولكن لا ألمانيا ولا إيطاليا غدت إحداهما قوية، إذ أضاع الأباطرة جهودهم عبثا فى حملات عسكرية متتابعة إلى إيطاليا، بدلا من بناء مملكة قوية فوق أراضيهم، وابتعدت الدولتان قصيا عن حسن الإدارة ومركزية السلطة التى تمتعت بهما غيرهما من دول الغرب الأوروبى (٩٧) فبينما كان أشهر معاصرى فردريك الثانى، وهما لويس التاسع ملك فرنسا، وهنرى الثالث ملك انجلترا، أقل منه كفاءة ومقدرة وثقافة، إلا أن كلا منهما ترك دولة تنحو إلى المستقبل، وليست ظلا لماض فقط، بعد أن اهتمت حكومتاهما باحتياجات شعبيهما (٩٨).

لقد حاول ملوك ألمانيا على امتداد قرنين ونصف من الزمان اقتفاء خطى شارلمان أو منافسته، ولكن قليلا منهم هو الذى كان يصلح حتى كى يكون فقط خليفة لأوتو الأول. فمن أجل الإمبراطورية نسى كثير من الأباطرة خلفاء أوتو أنهم ألمان، وفى طريق نضالهم من أجل الإمبراطورية، فشلوا فى تأمين حتى

---

(95) Thompson & Johnsson, op. Cit., p. 430.

(96) Ibid , 430 – 431.

(97) Strayer & Munro, op. Cit., p. 153.

(98) Ibid. 353.

دوقـيـة [99] بل ليس من المبالغة فى شئ القول أنه لم يكن هناك فى حقيقة الأمر ملـوك لألمانـيا، بـل كـانوا يعـرفون بـالملك الرومانى Rex Romanorum والإمـبراطور الرومانى Imperator Romanorum وليس هناك – على حد تعبير هـنرى بيرين – كلمات لوصف ألمانيا إلا القول أنها ذابت فى الإمبراطورية، بعد أن أهلـك ملوكهـا قواهـم فى تبنى السياسة الإمبراطورية. حقيقة لقد كانوا جميعا ألمانـا، لكـنهم لـم يضعوا أبدا سياسة ألمانية، وكانوا بصفة مستمرة غارقين فى إيطاليا. لقد قدر عليهم أن تتقطع أنفاسهم فى ملاحقة سياستهم التى وضعوها. ومن ثـم أمست ألمانيا ضحية الإمبراطورية [100] فقد خرجت فى نهاية الأمر ضعيفة إذا مـا قورنـت بانجلترا أو فرنسا، فبينما عمل ملوك الأخيرتين على تركيز سلطتهم المركـزية وتقوية نفوذهم والحد من سلطان الأمراء، وزيادة مساحة أراضى التاج، كان ملوك ألمانيا على العكس من ذلك تماما، إذ حاولوا فرض سيطرتهم وسلطانهم علـى مناطق يختلف أهلوها لسانا وحضارة وأهواء، ودخلوا فى صراع مع المدن اللومباردية والنورمان فى جنوب إيطاليا وصقلية وظلوا طيلة قرنين هدفا لعداوة لا تـنقطع وتدخل مستمر فى شئونهم من جانب البابوية. وحتى فى هذه الأخيرة كان حـظ الملك الألمانى أسوأ بكثير من قرينيه فى فرنسا وانجلترا، فوليم الفاتح تحدى جـريجورى السـابع، ووليم الأحمر قاوم أنسلم، أما هنرى الرابع وبربارosa فكانا علـيهما أن يتصارعا مع بابوات يجمعون فى شخصياتهم هلدبراند وأنسلم معا. هذا بالإضـافة إلى أن الكنيسة الألمانية كانت شيئا مخيفا من جراء ممتلكاتها الواسعة، والـتى أغدقهـا عليها الملوك الألمان أنفسهم، بحيث لا يجاريها مطلقا قريناتها فى الدول الأوروبية الأخرى [101].

---

(99) Pirenne, op. cit., p. 140.

(100) Bryce, op. cit., p. 213.

وللمزيد من التفاصيل عن العلاقة بين وليم الفاتح والبابا جريجورى السابع، انظر Douglas, Wiliam the conqueror, pp. 340 – 341.

وعن وليم الأحمر وانسلم انظر Barlow, op. cit., pp. 156 – 158.

(101) Strayer & Munro, op. Cit., p. 147.

ومــن الغريب أن هذه النهاية التى آلت إليها كل من انجلترا وفرنسا وألمانيا، إذ خرجــت الأولــى مــن النظام الإقطاعى بملكية "دستورية" إذا صح هذا التعبير آنــذاك، وآل الأمــر فى الثانية إلى ملكية مستبدة، بينما ودعت ألمانيا دنيا العصور الوســطى ممزقة شر ممزق. نقول أن هذه النهايات لا تتفق مع ماجرى عليه الأمر مــثلا بعــد أنهــيار إمبراطورية شارلمان، فقد كانت ألمانيا أسعد حظا منهما، ففى فرنســا مــثلا دخلت البلاد فى حرب أهلية لمدة قرن بين أفراد البيت الكارولنجى وأمــراء بــاريس، فــى الوقــت الذى أقدم فيه الأمراء الألمان على اختيار مليكهم أرنولــف الحفيد غير الشرعى للويس الألمانى سنة ٨٨٧م، وكونراد دوق فرنكونيا بعــد وفاة لويس الطفل ٩١١م. ورغم أن هذا أدى إلى إحياء التقليد الجرمانى القديم الخــاص بحقهــم فــى اختيار الزعيم، وقاد إلى تقوية نفوذ النبلاء وأضعاف سلطة الملكــية علــى المــدى الطويل، إلا أن النتيجة المباشرة كانت إعطاء ألمانيا حاكما قويــا (١٠٢) وتمثل ذلك بصفة خاصة فى القرنين التاسع والعاشر، وبشكل أساسى زمــن أوتــو الأول وســميه الثانى، بل وأيضا حتى عهد فردريك بربا روسا، إذا اســتثنينا فــترة الــتدخل البابوى السافر فى شئون ألمانيا على عهود هنرى الرابع ولوثــر وكونــراد، فقــد كانت الملكية الألمانية تقوم فى هذه الفترة على هيراركية عمادهــا الموظفــون والدوقات والكونتات والأساقفة ومقدمو الأديرة، يعينهم الملك ويديــنون لــه بالولاء، ولكن الأمر أنتهى إلى ملكية تستمد قوتها من مجموعة من الأفصال الإقطاعيين، من غير ذوى الأصول النبيلة، علمانيين واكليروسيين (١٠٣).

وإلــى جانــب هــذه النــتائج المدمــرة الــتى أفرزها الصراع بين البابا والإمــبراطور مــن ناحية، وهذا والأمراء من الثانية كانت هناك كارثة ثقافية هى فقدان ألمانيا للزعامة الفكرية فى غرب أوروبا .. ففى سنة ١٠٥٠م كانت الاديرة

---

(102) Ch. Brooke, Europe in the Central M. Ages, p. 157.

(103) Cantor, op. cit., pp. 303 – 304. De Wulf, Philosophy and Civilzation in the Middle Ages, pp, 281 – 283.

الألمانية مراكز للتعليم والفن كما كانت مدارس اللاهوت والقانون الكنسى الألمانية لا تبارى فى أى مكان آخر فى أوروبا. غير أن الحرب الأهلية الطويلة والمنازعات الشرسة بين الكنيسة والدولة استنزفت طاقة الكنيسة الألمانية وحولت اتجاهها، بحيث أصبح الاكليروس مثابرا على تأليف المقالات عن العلاقة بين الدولة والكنيسة، وتجاهلوا التقدم الهائل فى الفلسفة والقانون والأدب والفن الذى كان يجرى خلال الفترة نفسها غرب الراين وجنوب الألب. وهكذا تخلفت الحياة الفكرية فى ألمانيا عن عصرها، ثم ما لبث أن باتت متأخرة وعتيقة (١٠٤). بينما عكف العلماء الفرنسيون والإيطاليون على خلق مؤسسة جديدة للفكر الراقى والتعليم العالى، وهى المؤسسة التى قدر لها أن تلعب الدور الرئيسى فى الحياة الفكرية فى العصور الوسطى العالية. فى الوقت الذى لم تقم فيه فى ألمانيا جامعة من هذا النوع قبل القرن الرابع عشر (١٠٥) بل أن فردريك الثانى نفسه عندما أقدم على إنشاء جامعة، أقامها فى نابولى ولم ينشئها فى ألمانيا. لقد تخلف الألمان ثقافيا كما تخلفوا سياسيا خلال النزاع على التقليد العلمانى والسيادة العلمانية وأنغماسهم فى المشكلة الإيطالية، ولم يستعيدوا مكانتهم أبدا على الأقل خلال العصور الوسطى.

وهكذا يمكن القول أن ألمانيا منذ نهاية القرن الثانى عشر لم تعد تلعب إلا دورا تافها لا قيمة له على الإطلاق فى السياسة الأوروبية، رغم أنها تحتل مساحة شاسعة جدا على الخريطة الأوروبية، حيث امتدت من المستعمرات الألمانية على الألب الأدنى حتى نهر نيمن Niemen بحيث جاورت البحر من ناحية والصقالبة من ناحية أخرى فى روسيا وبولندا (١٠٦) بل إن بعض المؤرخين يذهبون إلى أبعد

---

(104) Cantor, op. cit., pp. 303 – 304.

De Wulf, Philosophy and Civilzation in the Middle Ages, pp, 281 – 283.

(105) Cantor, op. cit., p. 304.

(106) Pirenne, op. cit., p. 331.

مـــن ذلك عندما يعتبرون سنة ١٠٥٦ عندما توفى هنرى الثالث، العام الذى لم تعد فيه ألمانيا الحقيقة الرئيسية فى التاريخ الأوروبى (١٠٧).

لقـــد كانـــت إيطالـــيا جرحا داميا فى جسم ألمانيا، ظل ينزف طيلة العصور الوســـطى حـــتى أعياد ذلك الجسد، فأمسى شاحبا إلى ذبول، وتكاثفت عليه مباضع الجراحيـــن تحـــاول أن تجد له طبابا شافيا وعلاجا ناجعا، لكن الداء قد تأصل فى مباضع الجراحين أنفسهم، أعنى أباطرة ألمانيا – الذين استمرءوا .. رغم – الفشل الـــذى لاحقهـــم ــ لعـــبة التدخل فى المشكلة الإيطالية، فساقوا دولتهم إلى التفكك والانحلال الذى لم تبرأ منه، وإيطاليا هى الأخرى إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

---

(107) Strayer & Munro, op. cit., p. 161.

الفصل الرابع

الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب

وصفت ألمانيا فى القرن السابع عشر؛ بأنها "فوضى شاءتها العناية الإلهية"! ومـــا ذلك القول عن إدراك الدراسين لتاريخ ألمانيا ببعيد ولا غلواء فيه ولا غرابة؛ فقد تشكلت ألمانيا آنذاك مما يزيد عن ثلاثمائة دويلة وكيان سياسى!.

فعلـــى الحـــدود الغربية عند الراين لا نجد إلا أطلالا لولايات كانت تعد فى الماضـــى هامة، مثل بادن وورتمبرج .. أما الألزاس واللورين فقد وقعتا فى قبضة الفرنســيين مـــنذ أواخـــر القرن ذاك. على حين تبدت الفوضى بعينها فى الولايات الكنسية الواقعة على الراين أو بالقرب منه، حيث كان رجال الاكليروس يمارسون حكمـــا يفـــتقر تمامًـــا إلى الكفاية والاقتدار، ويفسح الطريق فى يسر وسهولة أمام ضـــربات الجـــيران الأقوياء بينما كان الشرق يبدو متماسكًا وعلى قدر من القوة، متمـــثلاً فـــى هانوفـــر وسكسونيا، وإلى الجنوب عند أعالى الدانوب توجد بافاريا، الشـــديدة التمســـك بكاثوليكيـــتها، والتى تملكتها الغيرة الشديدة من جارتها الشمالية القوية، بروسيا.

علـــى هذا النحو كانت ألمانيا – أو بتعبير أدق – ما يسمى ألمانيا فى القرن السابع عشر، وباتت كذلك أيضًا على امتداد القرن الثامن عشر، خليطًا غريبًا يجمع بين دول كبرى ودويلات صغرى، علمانية وكنسية، خرة واستبدادية، ولم يكن ثمة فـــوق هذا الخليط المتلاطم سلطة فعالة على الإطلاق؛ فالإمبراطور كان اسمًا كبيرًا فحســـب، والإمـــبراطورية كانـــت كيانًا شرفيًا، لا قوة تستطيع السيطرة على زمام الأمـــور، ذلـــك أن السلطة الحقيقية لم تكن تمثل فى الإمبرطورية ككل، وإنما فى أجـــزائها المختلفة، وفى حكام الدويلات التى تتكون منها الإمبراطورية، مثل النمسا وبروســـيا وبافاريـــا وهانوفر وسكسونيا وغيرها وهكذا كانت ألمانيا فى مجموعها

وفي أجزائها، تعاني من التفسخ السياسي، وتعجز بل وربما ترغب عن إبداء أية مقاومة جدية فعالة تجاه نوايا جارتها القوية الطامعة .. فرنسا حتى نعتها فولتير بسخريته اللاذعة بأنها "ليست إمبراطورية ولا رومانية ولا مقدسة" وإن كان ما يعنينا هنا الآن فقط الشق الأول من هذا النعت "الثلاثي" أعني الإمبراطورية.

غير أن الذي يدعو للعجب والإعجاب في الوقت نفسه، أنه رغم هذه الفوضى السياسية الضارية أطنابها في ألمانيا، إلا أن النصف الثاني من القرن الثامن عشر، شاهد ازدهارًا رائعًا للفكر والفن الألمانيين؛ فقد ظهرت منذ منتصف القرن حركة بعث قومي عظيمة في هذين المجالين، كان المساهمون الرئيسيون فيها "لسنج" Lessing و "جوته" Goethe و "شيلر" و "كانت" Kant وفي الموسيقى رفع خلفاء "باخ" الذين يؤلفون صفا من المشاهير يضم "هايدن" و موازرت و "بيتهوفن" رأس البلاد التي تتحدث الألمانية عاليا في أوروبا ولا شك أن ما أبدعه هؤلاء المفكرون والفنانون يقف على النقيض من الضعف السياسي للدويلات الألمانية في تلك الفترة.

وفي آخر سني القرن الثامن عشر، في أعقاب الحرب التي نشبت بين فرنسا الثورة، وألمانيا، وانتهت بهزيمة الأخيرة وانسحاب كل من بروسيا والنمسا وعقد صلحين منفردين في عامي ١٧٩٥، ١٧٩٧ على التوالي ثم فرض تسوية من جانب فرنسا وحليفتها روسيا، أمليت فيها شروطهما وعقدتا المعاهدات مع كل دولة على حدة، وانتهى الأمر في فبراير ١٨٠٣ بقبول الريشستاغ الألماني لهذه التسوية التي غيرت إلى حد كبير وجه الخريطة الألمانية؛ فقد اختفت من الوجود مائتا واثنتا عشر دويلة ابتلعتها جاراتها الكبيرة وتوارى تمامًا معظم فرسان الإمبراطور وجميع المدن الإمبراطورية عدا ست منها، وأزيلت الولايات الكنسية باستثناء مينز، وإن كان قد بقي الفرسان التيوتون وفرسان القديس يوحنا بعض الوقت.

لم يمض على ذلك أكثر من ثلاث سنوات، حتى أقدم الإمبراطور الفرنسي نابليون، والذي كان قد بلغ أوج مجده آنذاك، على اتخاذ قرار من جانبه بقيام اتحاد

الرايـن، ودعـا حكـام ألمانـيا لإعلان انضمامهم أو رفضهم فى غضـون أربع وعشرين ساعة.

وكـان هـذا التنظـيم يقـوم علـى أسـاس إنشاء اتحاد من بعض الدول Confederation لا قـيام دولـة اتحادية وفى السادس من أغسطس ١٨٠٦ أعلن الإمـبراطور فرنسـوا الأول تخلـيه عن اللقب الإمبراطورى القديم، فانتهت بذلك الإمـبراطورية الألمانـية، أو مـا ذاع فـى التاريخ باسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة!.

غـير أن هذا الاتحاد الممسوخ، الذى قصد به أساسًا فرض الحماية الفرنسية على ألمانيا، لم يقدر له أن يعمر طويلاً، إذ سرعان ما انحل بزوال سلطان نابليون، ولم يكن "الاتحاد" الذى رسمه مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ بأحسن حظًا من قرينه، وإن كان العدد الإجمالى للدويلات الألمانية الداخلة فى هذا "الاتحاد" الأخير بعبارة أدق، هـذا "المجمـع" أو "الديت" Diet قد هبط إلى تسع وثلاثين، لكل منها حق مباشرة سياسـتها الخارجية بنفسها، وأن تمنع وحدها أجازة وتنفيذ لكل قرار هام يتخذه هذا المجلس التعاهدى، وباختصار لم يكن ثمة رابطة سياسية بين الولايات المنتظمة فى هـذا "الديـت" ولا شك كانت العلة الكبرى لهذه المحنة ناجمة عن اختلاف الألمان أنفسـهم فيما بينهم فى رسم خطة إنشائية لمستقبل بلادهم. فالبعض منهم يصبو إلى قـيام دولة ألمانية تحت حكم بروسيا، والبعض الآخر يرمى إلى دولة ألمانية تدين بـالولاء للـتاج النمسـاوى وثالث يروم اتحادا تعاهديًا تستطيع فيه النمسا وبروسيا والولايات الصغرى، أن تكون فرقًا متكافئة تتبادل التعاون فيما بينها. وهكذا لاحت ألمانـيا كأنهـا تتحرك وتسير فى ضباب فلسفى، أو كما وصفها المؤرخ الفرنسى ميشليه Michelet بأنها "آسية أوروبا"!.

ولا شك كانت فرنسا والنمسا هما أكثر الدول الأوروبية إفادة من هذا الوضع المـتردى فـى ألمانـيا؛ الأولى ضمنت عدم قيام دولة قوية على حدودها الشرقية، والثانية اطمأنت إلى سيادتها على هذه المنطقة، وكان هذا مما آذى مشاعر الألمان؛

خاصة وأن النمسا لم تكن من قبل سوى دوقية أوستريا Austria التى تشكلت بصورة رسمية فى منتصف القرن الثانى عشر على يد فردريك بربا روسا[1] Frederick Barbarossa وكان هذا دافعا لبروسيا، ذات الطبيعة الاسبرطية، العسكرية، والتى وجدت فى التآلف بين فرنسا والنمسا اعتداء على حقوق كانت تدعيها بالزعامة، كى تتحين الفرصة السانحة لتأكيد زعامتها تلك، وساعدتها الظروف بتولى بسمارك Bismarck منصب المستشارية فيها.

وعبر أحداث طويلة وجهود مضنية بذلها الرجل، ولا مكان هنا لذكرها، كان يهدف بها أساسًا إلى توحيد ألمانيا بزعامة بروسيا، خاض حربين حاسمتين الأولى ضد النمسا فى عام ١٨٦٦ تمكن على أثرها فى العام التالى من توحيد شمالى ألمانيا، والثانية سنة ١٨٧٠ ضد فرنسا، وهى التى ذاعت شهرتها بالحرب السبعينية، تمخضت عن قيام الاتحاد الألمانى، أو الإمبراطورية الألمانية، وعلى الرغم من ذلك، فإن الذى يعنينا، أنه رغم وجود أناس عديدين رأوا أن الوقت مناسب لإقامة دولة مركزية قوية فى ألمانيا فإن بسمارك لم يكن واحدا منهم! فقد كان يردد دائمًا "أننا لا نروم أن تنضم إلينا بافاريا هى غير راضية، بل نبتغى دولة تنضم إلينا بملء اختيارها وحريتها" ويدرك أن هذه "الذاتية" المتمثلة بوضوح فى الدويلات الألمانية تضرب فى الأرض بجذورها وصولا إلى العصور الوسطى وعبر عن ذلك صراحة بقوله: "أن السلطة المطلقة للأمراء كانت اكتسابًا جذرياً تحقق على حساب الدولة ووحدتها"[2].

ومن هنا كان سلوكه تجاه الدول الألمانية فى الجنوب بعد الحرب السبعينية؛ لكى يجعلها تقبل على الاتحاد وهى راضية وفيما يتعلق ببافاريا بصفة خاصة كان على استعداد أن يمنحها حقوقًا واسعة كالهيمنة على جيشها أيام السلم، واسماع صوتها فى الشئون الخارجية، وتخويلها نظامًا مستقلاً للبريد والتلغراف. وهذه كلها

(1) Thompson and Johnson, An introduction to Medieval Europe, p. 394.

(2) Mayer, The historical foundations of the German Constitution, p. 30

تمـثل بشـئ مـن التفاوت بمقتضى التطور التاريخى، حقوق الأمراء الألمان فى العصـور الوسـطى وليس ثمة ما هو أدل على حكمته ونفاذ بصيرته من أن ملك بافاريـا رضـى أن يضـع بنفسه التاج الإمبراطورى على مفرق وليم الأول ملك بروسـيا فى حفل تتويجه إمبراطورًا على ألمانيا وإن يكن الدستور الألمانى الجديد الذى صدر فى عام ١٨٧٣ قد جاء مؤكدا "الذاتية" أو روح "الانفصالية" الكامنة فى الأرض الألمانية، بل لقد دعى رئيس الاتحاد أو الإمبراطور القيصر الألمانى وليس قيصـر ألمانيا وتلك لها مغزاها العميق الدال على حقيقة الاتحاد ولم يكن "القيصر" يستمد سلطته من كونه "رئيسًا للاتحاد الألمانى"، بل من كونه ملكًا على بروسيا لقد كـان الأمـر – على حد تعبير المؤرخين: جرانت Grant وتمبرلى Temperley "أشـبه بشـرذمة مـن الحيوانات المنتظمة فى سرب الصيد يتصدرها جميعًا ذئب رمـادى ضخم هو بروسيا يجرى فى أعقابه أبناء آوى من أمثال بافاريا وسكسونيا وفرتمـبرج ويسـير فى ركابه خمسة وثلاثون حيوانًا أصغر، تتفاوت أحجامها بين الجرذان الكبيرة والفئران الصغيرة".

بـل إن الحـال حـتى ثلاثينيات القرن العشرين، لم تختلف كثيرًا عنها فى القـرون الـتى سـبقتها إلـى قلب العصور الوسطى، عندما علت من جديد نغمة "الانفصالية" بين الفيدراليين وأنصار الدولة الموحدة، وانصبت الاتهامات على رأس مؤسـس الاتحـاد الألمانى فى القرن التاسع عشر وعلى بروسيا. مما دفع الزعيم النازى هتلر أن يكتب فى كتابه "كفاحى" مدافعا عن سلفه بسمارك، مؤكدا أن الرجل كـان يعلم يقينا حقيقة النزعات الانفصالية فى دويلات ألمانيا ودويلاتها آنذاك، وأنه "أحـل هـذه الحقـائق محلهـا مـن التقدير، فجعل تمثيل دول الاتحاد فى مجلس "البوندسـرات" متناسبًا وأهمية كل منها، ولزم جانب الحكمة والاعتدال فى تعزيز سـلطة الاتحـاد علـى حساب الدويلات التى يتألف منها، فما أخذ منها إلا ما كان الاتحـاد بحاجـة ماسة إليه، وحرص فى الوقت نفسه على احترام العادات والتقاليد المحلـية .. لقـد آثر المستشار الحديدى مداراة الدويلات الألمانية تاركًا للزمن أن

يكمل ما بدأه هو؛ لأن الطفرة غير مأمونة العواقب، فدلل بهذا النهج القويم على بعد نظره وسلامة منطقه"(٣).

والباحث في تاريخ ألمانيا عبر هذه القرون الطوال من ماضيها إلى العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين يجد نفسه مواجهاً بعلامة استفهام كبيرة .. كيف وصل الحال بألمانيا حتى أوليات هذا القرن إلى تلك الحالة من الاعتزاز بـ"الذاتية" أو حتى "الانفصالية"، والتي صدق عليها قول المؤرخ طومسون: "أن ألفا من السنين ويزيد قد شهد محاولات جادة أخرى لإضعاف ولاء الألماني تجاه نزعته القبلية فالبافاري أو السكسوني كان يميل دائمًا إلى اعتبار نفسه هكذا على أن تدعوه ببساطة ألمانيا"(٤).

والذي يزيد الأمر حيرة أنه في الوقت الذي بدت فيه فرنسا وبريطانيا في القرن العاشر الميلادي ملكيات مهلهلة، كانت ألمانيا تشكل أقوى دولة أوروبية آنذاك، لكن ما لبث أن تبدل الحال، فما أن وافى القرن الثالث عشر، حتى خرجت فرنسا من تجربتها الإقطاعية ملكية قوية، الملك فيها صاحب السلطة المطلقة. بينما أفلح النظام في إنجلترا، والمنقول من أرض القارة بصورة منتقاة على يد وليم الفاتح النورماني وخلفائه الأنجويين في إخراج ملكية قوية مقيدة، أو بتعبير حديث..

---

(٣) للوقوف عل تفاصيل هذه الأحداث، والحال التي آلت إليه ألمانيا عبر هذه القرون من الثامن عشر حتى العشرين، والتي عرضنا لها في هذه الصفحات السالفة في إيجاز شديد، كنتيجة حتمية، ومقدمة طبيعية لألمانيا العصور الوسطى، يمكن الرجوع إلى هذه الكتب:

بول هازار، الفكر الأوروبي في القرن الثامن عشر، جزءان ترجمة محمد غلاب، القاهرة ١٩٥٨-١٩٥٩؛ بيير رنوفان، تاريخ العلاقات الدولية ١٨١٥-١٩١٤، ترجمة جلال يحيى – القاهرة بدون تاريخ؛ جرانت وتمبرلي، تاريخ أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين، جزءان: الجزء الأول ترجمة بهاء فهمي، القاهرة بدون تاريخ؛ فيشر، تاريخ أوروبا في العصر الحديث ١٧٨٩-١٩٥٠ – القاهرة ١٩٥٨؛ هتلر، كفاحي، ترجمة لويس الحاج – بيروت ١٩٦٨؛ محمد كامل ليلة، النظم السياسية، القاهرة ١٩٦٣. ومن الجدير بالذكر أن مجموعة من فلاحي بافاريا شاركت بحماس في الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ وهم يعتقدون أنهم ذاهبون لحرب أعدائهم القدامى. البروسيين! راجع :

Thompson and Johnson, op. Cit., p.353.

(4) Thompson and Johnson, op. Cit., 353.

دســتورية مــنذ صــدر العهد الأعظم فى عام ١٢١٥ هذا على حين أمست ألمانية ملكــية ممــزقة، تــتقاذف ســفينتها أنواء طموحات أمراء الإقطاع من العلمانيين والاكليروســيين علــى الســواء، هــذا علــى الرغم من أن السمات العامة للنظام الإقطاعى الأوروبى فى العصور الوسطى كانت واحدة، متمثلة فى انحلال السلطة المركــزية لحســاب الســلطات المحلــية، من جميع النواحى السياسية والعسكرية والاقتصادية والتشريعية(٥).

هــذه التساؤلات التى تطرح نفسها الآن، تدفعنا إلى أن نعود بفكرنا إلى ذلك الــتاريخ البعيد، وعلى وجه التحديد عام ٩١١عندما انتهت سلالة البيت الكارولنجى الحاكم فى الجزء الشرقى من الإمبراطورية الكارولنجية ألمانيا، بوفاة لويس الطفل هــنا وجد الأمراء الألمان أمام اختيارين لا ثالث لهما، أما الالتجاء إلى فرع الأسرة الآخــر فــى فرنسا، وأما العودة إلى التقليد الجرمانى القبلى القديم باختيار مليكهم، ولمــا كان الملوك من أسرة شارلمان، لم يحققوا لألمانيا خلال نصف القرن الأخير أو يــزيد، الحماية ضد أعدائها الخارجيين، الذين استباحوها من الشمال والشرق(٦)،

---

(٥) للمزيد من التفاصيل من السمات الإقطاعية للمجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى يمكن الرجوع إلى الكتب التالية :

H. Pirenne, Economic and Social history of Medieval Europe, pp. 58-66;

G. A. Hodgett, A Social and economic history of Medieval Europe, pp.24-35;

F. Ganchof, Feudalism Hong Kong 1976;

Stephenson, Mediaval History, pp. 199-241; P. Vinogradoff, Feudalism, (in C.M.H. Vol. III, pp. 458-484)

وله أيضًــا بالاشــتراك مع الأستاذ كوبلاند، الاقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوروبا، ترجمة محمد مصــطفى زيــادة، القاهــرة ١٩٥٨ وللأستاذ كوبلاند كذلك. القنية والإقطاعية (مقال فى تاريخ العالم الذى أشــرف على نشره السير جون، هامرتن، المجلد الخامس، ص٣-٢٢؛ اسحق عبيد: الفرسان والأقنان فى مجــتمع الإقطــاع، بيروت ١٩٧٥؛ سعيد عاشور، أوروبا العصور الوسطى، جــ٢ ص٤٣-٨٨؛ إبراهيم العــدوى: المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى، ص١١١-١٢٦. أما عن النظام الإقطاعى فى إنجلترا فيمكن الرجوع إلى:

F. Barlow, The feudal Kingdom of England, 1042-1216, London 1974; D. Douglas, William the conqueror, London, 1969.

(6) Barraclough, The Origins of Modern Germany, pp.15-19.

فقـد آثروا أتباع الطريق الأخير، ورغبوا فى أن يختاروا أوتو Otto دوق سكسونيا القـوى ملكًـا علـيهم، غـير أن الرجل اعتذر لتقديم به، ورشح لهم قرينة كونراد Conrad دوق فرنكونـيا Franconia فـتم اختـياره بلا معارضة. فأصبح كونراد الأول بذلك أول ملك ألمانى، جرى تنصيبه بأيدى الأمراء(٧).

هـذه الحادثـة تمـثل نقطة فاصلة فى تاريخ ألمانيا، فالملك الجديد لم يكن بمقدوره ادعاء أنه ينحدر من الأسرة الكارولنجية، ولم يكن باستطاعته إنكار أنه تم رفعـه على العرش الألمانى بيد أقران له، لا يقلون عنه مكانه أو مرتبة .. بتعبير آخـر، هم الذين صنعوه ملكًا، من هذا المنطلق وبمقتضى هذه الخلفية وراء كل من الجانبيـن تحـددت العلاقة الجديدة بين الملك والأمراء فى ألمانيا ورسمت الخطوط الغائـرة فـى جبهة التاريخ الألمانى تثمل صراعًا مريرًا بين هؤلاء وبينه، بتعبير أدق.. بيـن الملك بحرصه ودفاعه المستميت فى سبيل إقرار حقه فى تعيين خليفته علـى العـرش من بين أبنائه أو أفراد أسرته، أى جعل الملكية وراثية، يستمد منها بمقتضى حق الإرث سلطانه وقوته، والأمراء باستمساكهم بكل صلابة وعناد بحقهم فـى اختيار الملك من واقع ممارستهم له الآن (٩١١)، وامتدادًا لتقليد جرمانى قبلى كان لدى الأجداد قائمًا، وحرصًا على تحقيق ذواتهم ومطامحهم.

ومن ثم لم يكن غريبًا أن يطفو ذلك على السطح منذ الوهلة الأولى لممارسة هـذه التجربة؛ إذ راح كونراد على الفور يبذل قصارى جهده لتثبيت سلطانه كملك على الأدواق، وتدعيم نفوذه فى الداخل، لكن الخطأ الذى ارتكبه كونراد، أنه وضع هذا الهدف نصب عينيه دون أن يسلك الدرب الصحيح بلوغًا إلى تحقيقه، فبدلاً من قـيادة الجهـود الألمانـية بنجاح ضد المجيار والصقالبة والدانيين، ترك كل دوقية تـتعامل مع الغزاة بطريقتها الخاصة(٨)، ما دامت فرنكونيا بعيدة عن متناول أيديهم فـبدا فـى أعين الأدواق كما لو كان حاكمًا لدوقية وليس ملكًا(٩). بل أن مغامراته

(7) Schmediler, Franconia's place in the Structure of Medieval Germany, p.80.

(8) Scott, Medieval Europe, p.61.

(9) Brooke, A hsitory of Europe, p.21; C.M.H. III,. P.69.

الخارجـية وجهت أساسًا لقهر اللورين لسلطانه، وحتى هذه فقد فشل فيها(١٠). وزاد الأمـر سوءًا، أنه بغية توطيد سلطانه، اعتمد بصفة أساسية على الكنيسة يدفعه إلى ذلـك مـا ارتـآه فى نفسه وعلاقاته المطردة سوءًا مع الأمراء فهو باعتباره دوقاً لفرنكونـيا لا يستطيع أن يمد سلطانه - كعلمانى - خارج حدود دوقيته فى ظل هذه الظروف التى تحيط به، أما باعتماده على رجال الاكليروس يصبح ممكنًا ممارسة سـلطة أوسـع نسـبيًا عـبر ألمانيا. ومن هنا ألقى بحظه كله دفعة واحدة فى كف الكنيسـة ممـثلة فـى أساقفة مينز Mainz وكونستانس Constance وسالزبورج Salzburg.. خاصة وأن الأخيرين على الأقل كانا فى عداء مع دوقى منطقتيهما.

ولمـا كان العاقل، على حد تعبير المؤرخ سكوت M. Scott هو الذى يتأكد مـن أنـه لـن يستطيع أن يستغنى عن عون أولئك الذين هو نفسه لهم بالتاج الذى يضعه على مفرقه، فقد كان طبيعيًا فشل سياسة كونراد الأول فشلاً ذريعًا، تلك التى لـم يجـن مـن ورائها إلا سخط الأمراء العلمانيين الذين وضعوا أنفسهم على هذا الـنحو مـنذ البداية فى مواجهة التاج، إلى الحد الذى دفع أوتو دوق سكسونيا الذى لعـب الـدور الأساسـى فى اختيار كونراد ملكًا، إلى التخلى عنه وهجر جانبه بل وتحديه، وفعل الأدواق الآخرون مثل فعله، ووجهوا طاقاتهم لتدعيم نفوذهم المحلى فـى دوقياتهم، وإثبات ذواتهم وسلطانهم بين أناسهم الذين يحكمونهم، وتحويل ولاء هؤلاء إليهم شخصيًا، فراحوا بذلك يبنون حول شخصياتهم نوعًا من الهيراركية وما أن وافـى عام ٩١٨ حتى أصبحوا قوة يحسب حسابها فى دوقياتهم، وأضحت هذه تشبه ممالك صغيرة، وأمسى كونراد قبل أن يوافيه أجله فى العام نفسه، ملكًا إسميًا فقـط، بل حتى دوقًا فاشلاً لفرنكونيا ذاتها(١١). ولكنه كان يدرك أن خير من يضمن لسياسـته النجاح فى مواجهة تحديات الأمراء خصمه اللدود هنرى دوق سكسونيا، ولـذا جـاءت آخـر كلماتـه وهو على فراش الموت: "أن مستقبل المملكة معلق بالسكسـون"(١٢)، ولهذا أيضًا جاءت توصيته باختيار هنرى خلفا له، وللمرة الثانية

(10) Scott, op. Cit., p.61.

(11) Barraclough, op, cit., p.22; Scott, op. Cit., p.63.

(12) C.M.H. Vol. III, p.174.

خلال جيل واحد، مارس الأمراء تقليدهم الجرماني باختيار الملك، وعلى الرغم من أنــه لم يشترك في اختيار هنرى غير أمراء سكسونيا وفرنكونيا، ألا أن هنرى بذل جهــودًا مضنية عبر جولات من الصراع والمفاوضات لفرض سلطان الملكية على الأدواق الآخرين(١٣).

وعلـــى هــذه الصورة بدت الملكية الألمانية - كما جاء على لسان المؤرخ جيســبرخت Giesebrecht اتحادًا فيدراليًا من ولايات متعددة، قاد إليه ذلك المفهوم الفــرنجي عـــن الملكية، والفكرة الجرمانية القديمة عن الاتحاد الحر، والتى من خـــلال الاتحاد "القبلى" لكل منها، أدت إلى علاقات تدعيم سيادة أسرة بعينها، بحيث يمكن أن نسمى ذلك فيدراليًا وأصبحت المشكلة قائمة فى التساؤل حول.. هل يؤدى ذلك إلى أن يقود التنظيم الجرمانى إلى إقامة نظام فيدرالى حقيقى؟ أو إحياء الملكية الفرنجــية؟ وهــذا بــالفعل مـــا تبدى لهنرى الأول، بحيث تمكن بشئ من العنف والإدراك الواقعـــى، أن يحقـــق كســبًا معينًا من أجل سيادة دوقيته، تاركًا المستقبل لشأنه(١٤).

هكـــذا .. وعلى امتداد ثلاثة قرون قادمة، شهدت ألمانيا صراعًا طويلاً بين ســلطان التاج وسلطات الأمراء، خفيًا حينًا، سافرًا أحايين كثيرة، كل يسعى لتدعيم نفـــوذه، وتأكيد ادعاءاته، فى ملكية وراثية شأن الممالك الأوروبية الأخرى خاصة فـــى إنجلـــترا وفرنســا، أو ملكـــية انتخابية، الملك فيها ليس إلا الأول بين أقرانه Primus inter pares، ممـــا طـــبع تـــاريخ ألمانيا كله حتى سنيها المعاصرة بهذه الـــنزعة "الانفصـــالية" العمـــيقة الجذور فى تربتها أرضًا وسكانًا ولا شك أن هناك عوامـــل مـــتعددة، متباينة تكاثفت كلها لتعمل سويًا على تعميق هذا الاتجاه "القبلى" أو"الانفصالى" بين الدوقيات الألمانية.

---

(١٣) قـــاد هنرى الأول حملة لاكراه أرنولف دوق بافاريا على الخضوع له، ولم تخضع له اللورين إلا فى عام ٩٢٥. راجع : C.M.H. Vol. III, p.179-180.

(14) Joachimsen, The investiture contest and the German constitution, p.97.

يتساءل الجغرافيون .. ما هى ألمانيا؟ ويجيبون .. هى كما يعرفها القوميون الألمـــان "وطن الألمان" Deutchland وهذا الوطن لم يتحد فى دولة واحدة إلا منذ عـــام ١٨٧١ وهو يتسع ليشمل غربا الألزاس واللورين، ويمتد شرقًا ليحاذى ساحل البحر البلطى فالسهل الألمانى جزء من سهل أوروبى أعظم يمتد عبر شرق أوروبا فبولـــندة فألمانيا حتى هولندا، وكذلك المرتفعات الهرسينية جزء من إقليم جيولوجى أكـــبر وهكذا إذ أن النطاقات الطبيعية فى وسط أوروبا نطاقات شرقية غربية، بينما ألمانـــيا تقطـــع هذه النطاقات من الشمال إلى الجنوب وأبسط التقاسيم التضاريسية لألمانـــيا تنحصــــر فـــى إقليمين .. القسم الشمالى السهلى المنبسط، والقسم الجنوبى المرتفع، المكون من هضاب قديمة وأحواض داخلية وإذا رسم خط متعرج من آخن فـــى الغرب إلى هانوفر وليبزج وجورلتز على نهر نيسى Neisse فإنه يفصل بين هذيـــن القســـمين التضاريسيين لألمانيا فشمال هذا الخط تمتد السهول الشمالية التى تعتـــبر جزءًا من السهل الأوروبى الأعظم، مموج السطح، ينحدر انحدارا تدريجيًا نحو بحر الشمال، ولا يزيد ارتفاع الأرض فيه عن سبعمائة قدم، بينما يزيد ارتفاع الجـــزء الجنوبى عن هذا القدر. بل أن القسم الشمالى السهل ينقسم بدوره إلى ثلاثة أقســـام رئيســـية؛ غـــرب نهر الب Elbe وهو سهل صغير تنحدر أنهاره نحو بحر الشـــمال، وشرق نهر الب وهو أكثر اتساعًا وينقسم بدوره إلى عدة أقسام صغرى، وتجرى أنهار نحو البحر البلطى، ثم منطقة انتقالية بين السهل والجبل، متداخلة فى الإقلـــيم الجنوبى لألمانيا، الذى تجرى أنهاره هو الآخر نحو الشرق أو الغرب(١٥). يضـــاف إلى هذا عامل على جانب كبير من الأهمية، هو عدم وجود حدود طبيعية منـــيعة تحيط بالوطن الألمانى الأصلى، ومن ثم لم تظهر فكرة الحدود الطبيعية فى ألمانـــيا، لأن ألمانيا لم تقترن فى ذهن الألمانى، منذ القرون الأولى للميلاد، بوطن معيـــن ذى حـــدود طبيعية، هذا على عكس الحال فى فرنسا تمامًا(١٦). وتلك نقطة

(١٥) للمزيد من التفاصيل عن هذه النواحى – انظر: دولت صادق، جغرافية العالم، دراسة إقليمية، الجزء الأول، ص٤٧٤–٤٨٥.

(١٦) دولت صادق ومحمد السيد غلاب، الجغرافية السياسية، ص٢٤٠–٢٤١.

جديرة بالأهمية يوليها أصحاب النظريات السياسية اهتمامًا خاصًا، ويعتبرونها ركنًا أساسيًا من أركان قيام الدولة[١٧].

هـذه الطبيعة الجغرافية المتفاوتة، واختفاء الحدود الطبيعية، فرضت نفسها علـى الألمـان بصورة واضحة، فى التنافر الظاهر بين سكان هذه المناطق وتلك، وسـاعد علـى التـباعد جريان الأنهار من القلب إلى الأطراف هنا وهناك، فجذب الـناس بتجارتهم من المركز، الذى لم يكن له وجود أصلاً، كجزيرة فرنسا Ile de France وبـاريس فى وسطها إلى الأطراف، كل يسعى بتجارته حسب تيار النهر. وكـان هـذا عاملاً هامًا فى ازدياد هوة "الانفصالية" فى ألمانيا. فإذا أضفنا إلى ذلك عنصـرًا آخر خاصًا بالتكوين البشرى، أدركنا مدى عمق هذه النزعة. فبينما كان اندماج العناصر السكانية يسير فى فرنسا بصورة سريعة جدًا، كان فى ألمانيا على العكس من ذلك، حيث كانت القبائل المنفصلة عن بعضها قد بقيت لها قوتها وكيانها كوحدات عرقية قوية[١٨]، وحيث كان الاتجاه القبلى فى ألمانيا قويًا يتمثل فى إقامة وحدات سياسية ألمانية على أساس قبلى[١٩]؛ ذلك أن ألمانيا مع نهاية القرن العاشر، كانـت مقسـمة إلى خمس دوقيات كبيرة؛ لوثارنجيا، سكسونيا، بافاريا، فرنكونيا، وسـوابيا، تـتفق حدود الأربع الأخيرة تمامًا مع تجمعات القبائل الجرمانية القديمة: السكسـون والبافاريين والفرنجة والأليمانى وراحت هذه السلالات الجرمانية تدعم قوتهـا داخل أراضيها التى تملكتها، وحتى داخل نطاق الإمبراطورية الكارولنجية بصـورة لا تعـرف الملـل. وبينما كانت سكسونيا تحتل فى الشمال بصفة دائمة، مركـزًا مؤثـرًا وحـيويًا فـى الحياة السياسية الانفصالية، كان هناك فى الجنوب

---

(١٧) عـبد الحمـيد متولى، الوجيز فى النظريات والأنظمة السياسية ومبادئها الدستورية، ص١٢٤-١٢٨؛ محمد كامل ليلة، النظم السياسية، ص١٩-٤٠ وأيضًا : هارولد لاسكى، أصول السياسة، الجزء الأول ص٥-٣٩ ومـن الجديـر بالملاحظـة أن النظرية الألمانية من الدولة التى تأثرت إلى حد كبير جدًا بـالواقع الألمـانى، حيث ترى أن العبرة فى قيام الدولة هى وجود حكومة تملك سلطة إصدار أوامر ملـزمة فـى قدر معين من الشئون المتصلة بنظام الحكم، ولو لو تكن لها السيادة بالمعنى المطلق فى تلك الشئون كافة وهى نظرية لم تلق أى قبول انظر، محمد كامل ليله، المرجع السابق، ص٤١-٤٢.

(18) Mayer, op. cit., p.8 .

(19) Strayer and Munro. The Middle Ages, p.148.

مركـــزان كبـــيران همـــا سوابيا وبافاريا اللتان خضعتا لمملكة الفرنجة بعد مقاومة عنيفة، ولكنهما مع ذلك بقيتا كيانين مستقلين ولا نجد تعبيرًا أدق وصفًا لحالة التنافر بين هذين العنصرين، أفضل مما يذكره المؤرخ الألمانى "شميدلر"[٢٠] Schmeidler فـــى قولـــه: "قلمـــا تجـــد بيـــن قبيلتين ألمانيتين من الكراهية، ما تجده السوابيين والبافاريـــين. لقـــد راح العـــداء بينهما يزداد نموا واضطرادا، ويتمثل فى مظاهر واضـــحة أبـــرزها العداء بين الولفيين والهوهنشتاوفن Hohenstaufens فمع نهاية القـــرن الحـــادى عشر كان الولفيون هم البافاريين، والهوهنشتاوفن هم السوابيين، وخلـــف هذا العداء الأسرى كان يكمن العداء الموروث بين الشعبين وكانت إيطاليا مادة دسمة للشجار بينهما بصفة دائمة.

ولقد حاول شارلمان تذويب هذه العصبية القبلية، غير أن نجاحه كان محدودًا ومؤقتًا، لم يلبث أن ضاع بوفاته ولما كانت فترة النجاح تلك قصيرة شاحبة، لدرجة لـــم يكـــن ممكنًا معها قهر الشعور القبلى، فقد ازداد هذا الشعور رسوخًا من جراء الضـــعف الذى كان عليه خلفاؤه، والذين شغلوا أنفسهم بمشروعات تتسم بالأنانية، وهجروا بالتالى سياسته، ولما بدا عجزهم عن التصدى للهجمات الخارجية واضحًا، أصـــبح الجو مهيأ لظهور قوى جديدة تتولى مهمة رد هذه الاعتداءات[٢١]. بل لعله ممـــا يلفت النظر أن الحكام الكارولنجيين أنفسهم، خلفاء شارلمان، ساعدوا بصورة مباشـــرة علـــى تعمـــيق النزعات القبلية. ففى عام ٨٦٩ قسم لويس الألمانى جيشه بصورة تحمل طابع التفسخ الواضح، فوجه الثورنجيين لحرب الصرب، والبافاريين ضد مورافيا، والسوابيين والفرنكونيين تحت قيادته، ولما كان السكسون قد انشغلوا بالدفاع عن أراضيهم ضد الصقالبة، فقد تحرروا على يد لويس الألمانى من الالتزام بالمشـــاركة فـــى حملاتـــه العسكرية وكان هذا دافعًا لهم كى يركزوا كل جهودهم لحماية الحدود الشرقية[٢٢].

---

(20) Schmeidler, Francia's place in the structure of Medieval Germany, pp.74-5.

(21) Thatcher and McNeal, 8 Source book for Mediaeval history, pp.69-71.

(22) Barraclough, op. Cit., p.19 .

ونتيجة لظروف الغزو هذه التى تعرضت لها ألمانيا، واعتماد الدوقيات على قواهـا الخاصة فى هذا المجال، جاءت نشأة الأدواق نشأة عسكرية، حيث اعترفت كـل قبـيلة مـن القبائل المختلفة أو الأفخاذ Stems كما كان يطلق عليها، بزعامة محـارب كبـير مـن القـادة الذين استطاعوا الحصول على لقب دوق من الناحية الإداريـة، وحولـوه إلى لقب دال على التفوق الاجتماعى ابان الفترة الكارولنجية، خاصـة فـى فترة الضعف التى شهدها عهد لودفيج Ludwig الطفل، وقد لقى هذا الاغتصاب للقب "دوق" قبولا حسنًا، حيث نظر الناس فى كل دوقية إلى هذا "الدوق" باعتـباره ممـثلاً لوحدتهـم القبلـية(٢٣). ففـى سكسونيا برزت عائلة "ليودولف" Liudolfinger والـتى منها انحدر ملوك ألمانيا السكسون فيما بعد، باعتبار أفرادها القـادة العسـكريين للحدود الشرقية Duces orientalium Saxonum وفى بافاريا جـاءت العائلـة الحاكمة من ليوتبولد Liutpold الذى قتل فى إحدى المعارك ضد المجيار، وخلفه ابنه أرنولف الذى قرن لقبه بـ "العناية الإلهية" Dei providentia dux أما سوابيا فقد حمل زعيم الأسرة الحاكمة فيها من البداية لقد دوق رائيتيًا dux Raetianorum يعـنى حمـاة ممـرات الألب السويسرية على حين احتلت عائلة كونراديـن الـزعامة فى فرنكونيا بعد الصراع الداخلى الذى دار بينها وبين عائلة ببين، وانتهى بتحطيم الأخيرين عام ٩٠٦، وليصبح زعيمها أول ملك لألمانيا(٢٤).

وهـذه الـنقطة الأخـيرة بالذات تعتبر حجر الزاوية فى السياسة الاستقلالية للأمـراء الألمان فى مواجهة الملكية، فحقوق المقاطعات الخاصة لم تأت من جانب سـلطة حكومية مركزية، بل جاءت ملكيتها نتاجًا ملحيًا خالصًا وبالتالى فإن النبلاء الألمان حققوا لأنفسهم السيادة على ضياعهم وممتلكاتهم، ليس عن طريق الحصول

---

(٢٣) كانتور، التاريخ الوسيط ترجمة قاسم عبده قاسم الجـزء الأول، ص٣٥٥ وانظـر أيضـًا:
Thatcher and McNeal, op. Cit., pp. 69-71

(٢٤) للمزيد من التفاصيل عن النشأة العسكرية للدوقات الألمانية، يمكن الرجوع إلى:
Z. N. Brooke, op. Cit., p.7 وأيضـًا Schmeidler, op. Cit., p.79 وكذلـك Barraclough, op. Cit., p.19 ودكتور نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط فى أوروبا، ص ٤٤٨-٤٥١.

علـيها من التاج بل بمجهودهم الخاص واعتمادهم على العصبية القبلية(٢٥). من هنا يمكـن تفسـير غيرتهم على هذه الحقوق، ومن هنا أيضًا تتضح الحقيقة القائلة بأن النـبالة الألمانـية كانت دائمًا متمردة، بل ومتآمرة فى عهود الملوك الأقوياء، على حيـن تظـل علـى ولائها إزاء ملك ضعيف! ويعود ذلك فى المقام الأول إلى أن زعمـاء الجرمان المبكرين كانوا يقودون شعوبًا تتكون أساسًا من الأحرار، ونسبيًا مـن أرقـاء لا يرتـبطون مباشرة بالحاكم، بل يخضعون للسادة المباشرين، وأثناء فـترات الاضـطراب الـتى صاحبت حركات الهجرة التى استمرت قرابة القرون الأربعـة، راحـت طـبقة الأحـرار تتناقص(٢٦)، فلما خضعت الأراضى الألمانية للفـرنجة، ولـم يكن هذا الخضوع قد حدث دفعة واحدة، بل على فترات متباعدة، ولقـى الفـرنجة زمن شارلمان مقاومة عنيدة وتحديًا لسياسة الضم هذه خاصة من جانـب السكسـون(٢٧)، كـان ينظر إلى كل فرد يمتلك أرضًا يؤدى عنها ضريبة، باعتباره حرًا، ويمنح كل الحقوق التى تخول للمواطن الحر ومن بين هؤلاء ظهرت طـبقة أرسـتقراطية وعائلات ثرية راحت تزداد تباعدا عن الأحرار الذين لم تكن ملكياتهم تتعدى مساحات صغيرة محدودة(٢٨).

وبمـرور الزمن أصبح هؤلاء الأحرار يشكلون جماعات الخدمة العسكرية، بيـنما الآخـرون يكونون الكونتات أو القادة ولما كانت الملكيات الزراعية لهؤلاء واسعة ومبعثرة فى أنحاء كثيرة من ألمانيا، بل وربما أحيانًا عبر الحدود فى فرنسا أو إيطالـيا، أصـبحت هـذه الطـبقة الأرستقراطية هى المهيأة لممارسة الوظائف العامة، فأضحت الكونتيات والأسقفيات والأديرة فى أيديهم، والقيادة فى الحرب(٢٩).

(25) Bryce, The holy Roman Empire, pp. 121-122.

(26) Freiherr V. Dungern, Constitutional reorganization and reform, pp. 204-20

(٢٧) لـيس هـناك شعب من الشعوب قاوم الغزو الفرنجى والاندماج فى الإمبراطورية الفرنجية، كما فعل السكسـون تحـت قيادة زعيمهم الأشهر فيدوكيندWidukind وكان من نتيجة حروب شارلمان التى اسـتمرت من ٧٧٢ حتى ٨٠٤ فناء جيل بأكمله، ولم تنته إلا بعد أن أكره عدد كبير من السكسون مع أسرهم على ترك سكسونيا والاستقرار فى الأقاليم الفرنجية. انظر

Barraclough, op. Cit., p.8.

(28) Freitherr V. Dungern, op. Cit., p.205.

(29) Ibid, p. 206

حقـيقة أن الكونتات على عهد شارلمان، كانوا موظفين ملكيين، يمكن-على الأقـل مـن الناحية النظرية- تغييرهم بيد الإمبراطور، حتى إذا جاء القرن العاشر الميلادى، كان خلفاء هؤلاء الكونتات يحكمون ألمانيا باعتبارهم أدواقًا، يتمتع الدوق مـنهم داخـل حـدود دوقيـته بسلطان يفوق سلطة الملك، وأصبح منصبه وراثيًا، وبالتالى أصبح من المهام الصعبة على الملك إحلال غيره محله(٣٠). ويعبر المؤرخ الألمـانى مايـر Mayer عن هذه الحال بقوله؛ أن الدوقيات الألمانية لم تكن تعتبر لشاغلها وظائف استمدت سلطتها من التاج، بل وحدات تعود إلى أصول مستقلة(٣١) وأخـذ استقلال الدوقيات يزداد بفعل التقاليد والعادات القبلية المختلفة فى كل دوقية عـن الأخـرى، بـل وحـتى الأهداف وراح هؤلاء الأدواق ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم حماة غيورين على هذه الادعاءات والاختلافات(٣٢) وليس أدل على ذلك مـن أنـه فى أثناء فترة الحرب الأهلية التى دارت بين الأخوة الأعداء أبناء لويس الـتقى، ما بين عامى ٨٣٢-٨٤٠، لم تكن ألمانيا موحدة فى اتجاهاتها؛ فبينما كانت بافاريـا وحدها تؤيد لويس الابن، تأرجحت سكسونيا وثورنجيا وسوابيا وفرنكونيا فـى مواقفهـا، وإن ظلت على ولائها للويس الأب التقى. فلما مات هذا بقى الأمر معـتقدًا خلال الحرب الأهلية الثانية ففى سكسونيا مثلاً، ونتيجة لصراعات طبقية، اختلفـت الأهواء؛ فالأرستقراطية النبيلة أيدت لويس الألمانى (الابن)؛ لأن الأغلبية العظمـى المكونـة من الأحرار أيدت لوثر! لم تكن هناك إذن وحدة فى الهدف فى ألمانيا إبان هذه الحرب الأهلية التى انتهت بمعاهدة فردان Verdun عام ٨٤٣، ولا حـتى بعـد أن خضعت كلها للويس الألمانى بمقتضى المعاهدة لقد اعتمد أولا على بافاريا، وبعد عام ٨٥٢ لم يقدم هو أو أحد من خلفائه على أن تطأ قدمه سكسونيا!.

وعلـى عكـس ما كان عليه الحال فى فرنسا، خلت ألمانيا من وجود جهاز إدارى بهـا، فلقـد كان كونتات الفرنجة هنا مجرد نواب عن الملك، وكان هذا فى

(30) Scott, op. Cit., p.60

(31) Mayer, op. Cit., pp.15-16, 27.

(32) Davis, A history of Medieval Europe, pp. 210-211.

حـــد ذاته يعد الشكل الأول من أشكال النظام الإدارى فى ألمانيا، كما أن الظروف الـــتى عينوا فيها كانت تختلف تمامًا فى سكسونيا وبافاريا مثلاً عنها بالنسبة للجزء الغربى من الإمبراطورية الكارولنجية، نعنى فرنسا.

لقـــد كان الكونت فى ألمانيا لا يعدو كونه مبعوثًا ملكيًا عين ليفرض ويؤكد الحكم الفرنجى فوق شعب مهزوم، ينحصر واجبه الأساسى فى تحقيق رغبات سيده الملك الفرنجى ومن ثم كان عمله فى المقام الأول سياسيًا ولم يكن إداريًا [٣٣] وكان وجـــود الملك فى غالة بعيدا عن ألمانيا، التى لم يكن بها -كما أسلفنا- سوى نوابه، عـــاملاً أساســـيًا فى ضعف سلطان الحكومة المركزية بها، بله عدم اعتياد الألمان الخضـــوع لحكم مركزى مباشر، ومن هنا يمكن القول أنه لم يمكن هناك فى ألمانيا ميراث لحكومة ملكية يمكن الاعتماد عليه وهكذا فإنه تحت سطح الوحدة الظاهرية التى تكونت بقيام الإمبراطورية الكارولنجية، فإن كل إقليم من أقاليم الإمبراطورية كـــان يحـــتفظ بحـــياته الخاصـــة وتاريخه ومشاكله وخصائصه الجغرافية، فغدت الإمبراطورية على هذا النحو دولة غير متجانسة مع تقاليدها السياسية.

ويعـــود ذلك فى المقام الأول إلى أنه فى الوقت الذى كانت فيه فرنسا إحدى ولايات الإمبراطورية الرومانية، لم تكن ألمانيا كذلك. ولذا فإن النظام السياسى فى الأولى، لم ينمو مستقلاً من التربة الفرنسية، بل فرض على أرضها بأيدى الرومان، فلمـــا غزا الفرنجة غالة، ووجد كونتات الفرنجة أنفسهم وسط نظام إدارى رومانى قـــائم بـــالفعل، كـــان قد أضحى أمرًا طبيعيًا راسخًا خلال خمسة قرون من الحكم الـــرومانى، فوجهته الطبقة الحاكمة الجديدة حسبما تقضى مصالحها[٣٤]. وظل نظام الحكومة الرومانية، والمبادئ الأساسية للجهاز الإدارى للدولة، على حالهما دون أن يتعرضـــا للتخريب، وبقيت للقانون الرومانى هيبته، وأصبحت له صلاحيته لسكان الغـــال - الـــرومان Gallo- Roman ، كما بقى النظام الضرائبى للدولة حيًا فى

---

(33) Barraclough, op. Cit., pp. 8-9

(34) Mayer, op. Cit., p.5.

أسسه ومبادئه بل وحتى وقت متأخر، إلى القرن العاشر عندما كانت تجبى ضريبة الدانييــن[٣٥]. Danegeld خلاصــــة القول أن مفهوم الوحدة السياسية للدولة، الذى تمــثل فى هذا النموذج الرومانى، لم يدمر فى فرنسا، وأثبتت النظم الرومانية أنها الأسس الحية للدولة الفرنسية فى العصور الوسطى بل والأزمنة الحديثة. أما ألمانيا فلــم ينضو منها تحت السيادة الرومانية إلا جزء ضئيل، ولم تمارس الإمبراطورية فــيها عملية التوحيد التى طبقتها فى غالة. وحتى عندما خضعت المناطق الألمانية لإمبراطورية الفرنجة، لم يحدث ذلك دفعة واحدة، بل على فترات، كما أسلفنا، ولم يجــد الفــرنجة ميراثًا إداريًا لدى هذه القبائل ورثوه عن الرومان، وكان عليهم أن يــتعاملوا – عندما أخضعوا سكسونيا مثلاً – ما أناس لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى مرحلة الحكومة الملكية ،ولا يعرفون شيئا مطلقا عن النظام الادارى الرومانى ولم يكونـــوا قد تحولوا حتى ذلك الوقت إلى المسيحية [٣٦] .ولذا فان الكنيسة هنا لم تكن تمثل الحفيظ على التقاليد الرومانية كما كان علية الحال فى فرنسا؛ ذلك أن البعثات الـــتى قدمـــت إلى الأراضى الألمانية، جاءتها من مملكة الفرنجة، وكانت الكنائس والأديــرة الكبــيرة الـــتى شيدها بونيفاس Boniface وأتباعه، بمثابة الطلائع التى مهــدت للتوســـع الكارولـــنجى بعد أن قام الرهبان بتنصير الناس، وتأسيس مراكز للتعلــيم والحضــــارة، فأوجدوا بذلك الكنيسة الألمانية التى عرفت بهذا طريقها إلى الوجــود قبل أن توجد أية زعامة ملكية ألمانية فعالة وهى بهذه الصورة تعد عملاً فرنجيًا وليست ميراثًا رومانيًا[٣٧].

كانـــت ألمانـــيا إذن أرضًا تم غزوها من جانب الفرنجة، وطبقت فيها النظم الفرنجـــية، فـــالدوق فى أية دوقية ألمانية لم يكن خليفة للمحافظ الرومانى، كما كان

---

(٣٥) للمزيد من التفاصيل عن النظم الرومانية فى غالة الفرنجة، راجع البحث القيم الذى كتبه الأستاذ Ch. Pfister تحـــت عـــنوان Gaul under the Merovingian Franks., C.M.H., Vol. II, pp. 133-158 وأيضًا، موس، ميلاد العصور الوسطى، ص٣١٩-٣٢٢.

(36) Barraclough, op.cit.,p. 7.

(٣٧) كانتور، التاريخ الوسيط، ص٣٥٩.

عليه الحال فى فرنسا، بل خليفة الموظف الفرنجي. وحتى هذه لم يكتب لها السيادة هـناك. وبالتالى فإن النظرية عن الدولة، لم تكن الأساس الذى قامت عليه الحكومة الألمانـية[٣٨] وباختصار .. فإن الوحدات الألمانية المستقلة، والتى لعبت دورًا معينًا فى المهام الحكومية، ولم تستمد سلطاتها من التاج، بقيت منذ البداية عنصرًا أساسيًا فـى الحياة العامة. وساعد على ذلك أن النظام المبعوثين الملكيين الفرنجي لم يكن من الميسور أن يحقق أى نجاح فى أى من بافاريا وسوابيا وسكسونيا. وسرعان ما هـوى وفقد رؤساء البلاط أهميتهم منذ بواكير القرن التاسع. كما أنه لم يكن هناك نظام ضريبى فى ألمانيا، حتى قبل نهاية العصور الوسطى. يضاف إلى هذا كله أن التشـريعات الكنسـية والزمنـية كلهـا توقفت فى ألمانيا بعد تقسيم الإمبراطورية الفرنجية مباشرة[٣٩].

وفى دولة لم يكن النظام السياسى فيها ثابتًا، ولا الإدارة فيها معروفة، يصبح الارتـباط والـولاء الشخصى أهم العناصر فى إدارتها وحياتها السياسية، ومن ثم اعـتمد الحكـام على أشخاص بعينهم، وركنوا إلى ولائهم، بالإضافة إلى اعتمادهم علـى مساحات واسعة من الأراضى تحت تصرفهم يبنون عليها سلطانهم الملكى، دون أن يـنجحوا أو حـتى يحاولوا إقامة جهاز إدارى كامل يمكن أن ينجز حقيقة مشـروعاتهم وكـان هذا يعنى بالتالى فقدان التاج الألمانى للدعامة الأساسية التى يرتكـز علـيها الأمـراء أنفسهم؛ ففى خلال الفترة الممتدة من عام ٨٧٠ حتى عام ٩١٨ كانـت أراضـى الـتاج قد تم اغتصابها، بالإضافة إلى أن ما تبقى منها كان مبعـثرًا فـى مختلف الدوقيات الألمانية[٤٠]. وكان هذا على عكس الحال فى فرنسا

---

(38) Mayer, op. Cit., p.7.

(39) Ibid. p.8; Pirenne, A history of Europe, p.319

(٤٠) يمكـن احصـاء مـا تبقى من هذه الضياع الملكية عند اعتلاء الأسرة السكسونية العرش، على النحو الـتالى؛ ٨٣ فـى فرنكونيا، ٥٠ فى سوابيا، ٢١ فى بافاريا، ١٢ فى اللورين، ٥ فى كل من سكسونيا وفريزيا. راجع Barraclough, op. Cit., p. 31

وأنظر أيضا Pirenne, Economic and Social history of Medieval Europe, pp.8,113

وكذلك Hodgett, op. Cit., p.24

فرغم أن النظام الإقطاعى كان سائدًا فيها، ضاربًا بجذوره فى تربتها، إلا أن الملك كانت له أراضيه الخاصة، وأصبح منذ القرن الثانى عشر قادرًا على أن يسترد الامتيازات التى منحت من قبل لأفصاله، وأن يتخذ عاصمة مستقرة لملكه، تتركز فيها الإدارات الحكومية، وتتجه إليها كل الأنظار.

وهذه النقطة الأخيرة بالذات تعد على جانب كبير من الأهمية فتغير موطن الأسرة الحاكمة فى ألمانيا من دوقية إلى أخرى كان كفيلا أن يتبعه بالتالى التغير الكامل فى كل مرافق الدولة وأجهزتها سعيًا وراء الملك من دوقية إلى أخرى، فإذا كان الملك من سكسونيا، شأن هنرى الأول والأوتويين، شكلت كل من سكسونيا وفرنكونيا قاعدة حكمهم، وصخرة قوية فى الشمال، ووقفت مثلاً كل من بافاريا وسوابيا بينهما وبين سيادة الملك فى إيطاليا وإذا كانت قوة الملك فى بافاريا، شأن هنرى الثانى، كان قادرًا على عزل سوابيا المعادية دائمًا عن كل من بوهيميا وسكسونيا.

أما إذا كان الملك سوابيا، مثل أسرة الهوهنشتاوفن، ارتبطت أراضيه بفرنكونيا وامتدت تجاه ثورنجيا حتى تصل إلى الألب، مكونة حاجزًا بين بافاريا وبوهيميا من ناحية سكسونيا من ناحية أخرى(٤١)؛ ذلك أنه لم تكن هناك عاصمة ثابتة لألمانيا، ولا مركزًا مستقرًا للحكومة حقيقة كانت للملوك قصورهم، لكنها لم تكن لهم مستقرًا ومقامًا، فحيثما وجد الملك توجد الحكومة(٤٢). بل إن المشكلة لم تكن قاصرة فقط على عدم وجود مركز جغرافى يمكن الوصول إليه من هذا الخليط الهائل من الأقاليم، بل أن ألمانيا افتقدت أيضًا أى شئ يمكن اعتباره مركزًا روحيًا تتجه إليه الأنظار ويعتبر قبلة الألمان(٤٣).

---

(٤١) للمزيد من التفاصيل عن الصراعات بين هذه الدوقيات، أنظر:

Schmeidler, op. Cit., pp. 82-93

(42) Brooke, op. Cit., p. 20. وأيضًا Pirenne, A history of Europe, p.320

وراجع أيضًا : D. Waley, Later Medieval Europe, pp.73-74

(43) Joachimsen, op. Cit., p.99

ولمـــا كـــان وجـــود عاصـــمة دائمة يؤدى بصورة طبيعية إلى قيام حكومة مركـــزية، علـــى غرار باريس، كان من البديهى أن يتصدى الأمراء الألمان لأية محاولـــة فـــى هذا السبيل، لأنهم يعلمون يقينًا مدى تأثير ذلك فى الحد من نفوذهم وســـلطانهم ومن هنا نفهم مغزى اجهاض المحاولة الجريئة التى أقدم عليها هنرى الـــرابع، بهـــدف تقويـــة سلطة التاج وتدعيم نفوذ الملك، باتخاذ سكسونيا وبداخلها جوتسلر Goslar عاصمة له، وبنى من حولها القلاع العسكرية فى منطقة مرتفعات هارتـــز Harz متمـــثلاً فـــى ذلك آل كابيه الذين اتخذوا عاصمة ملكهم فى جزيرة فرنســـا(٤٤) إلا أن سياســـة كهذه كان لابد أن تقابل بالاحتجاج من جانب السكسون والثورنجيين، الذين كانوا أقل الشعوب الألمانية اندماجًا فى الدولة الألمانية(٤٥). فإذا علمـــنا أن هذه المنطقة كانت غنية بمناجم الفضة التى عثر عليها زمن أوتو الأول، وأن ذلـــك يعـــنى إعطـــاء الملـــك الألمانى مصدرًا للدخل مستقرًا بعيدًا عن تحكم الأمـــراء، أدركنا الأسباب البعيدة للعداء السافر تجاه سياسة هنرى الرابع من جانب السكسون(٤٦).

لا ريـــب إذن فـــى أن الأمـــور التى عرضنا لها على هذا النحو، ترسم لنا صـــورة واضـــحة عـــن الأحـــوال العامة فى ألمانيا إبان تلك الفترة من العصور الوســـطى، وتبين الدوافع الحقيقية التى حدت بالأمراء الألمان إلى التمسك بحقوقهم الموروثـــة بحكـــم النظام الجرمانى القبلى، والمكتسبة بمقتضى الضعف الذى انتاب الملكـــية فى ألمانيا خلال القرن التاسع، والغزوات الخارجية الشرسة التى تعرضت لهـــا، والتى تحققت من خلالها سلطتهم المتزايدة داخل دوقياتهم، مما استتبع بالتالى حرصـــهم الشديد على أن تكون سلطة الملك مجردة من أى سلطان يمكن أن ينقص ولـــو قليلاً من امتيازاتهم الواسعة، ولن يتأتى هذا إلا إذا استمرت الملكية الألمانية انتخابـــية بأيدى الأمراء، بعيدة عن إقرار مبدأ وراثة العرش. لقد كان اختيار الملك

(44) Ibid, pp.110-111; Freitherr V. Dungern, op. Cit., p.211

(45) Thompson and Johnson, op. Cit., pp. 374-375.

(46) Barraclough, op. cit., pp.83-84.

بالنسبة للأمراء – على حد قول بروك Brooke – حقًا أساسيًا بصفة دائمة، ولم يسمح أبدًا أصحاب مبدأ الاختيار هؤلاء، بالاعتراف بحق الإرث كما جرى التقليد فى فرنسا(٤٧). ومن الجدير بالذكر أن أساسيات عدد من الملوك الألمان فى الداخل، والظروف والمشكلات الخارجية التى تورطوا فيها جميعًا فى الخارج، أعنى المشكلة الإيطالية، كانت من العوامل الهامة التى عمقت مبدأ الانتخاب فى الملكية الألمانية، وجعلت حق وراثة العرش مع أخريات القرن الثانى عشر نسيا منسيًا.

فالاختيار الذى تم عام ٩١١ وجاء بكونراد إلى العرش كأول ملك ألمانى، ثم الاختيار الثانى الذى حدث سنة ٩١٨ وثبت ما ارتآه الملك الراحل من خلافة هنرى الأول السكسونى له، كانا لابد أن يضعفا من البداية مبدأ الوراثة فى الحكم، وهو الشيئ الذى كان مطلوبًا آنذاك للاستقرار الداخلى فى العصور الوسطى غير أن هنرى الأول الصياد تمكن بسياسته الداخلية، وجهوده الخارجية التصدى للمجيار والدانيين، من تثبيت دعائم نفوذه، والتمكين لأسرته فى حكم ألمانيا. واتضح ذلك جليًا عندما أقدم هنرى، وقد حضرته الوفاة – على دعوة الأمراء والناس فى ارفورت Erfurt للتصديق على تعيين ابنه أوتو Otto خلفا له. ولم يلبث أن تدعم هذا ثانية باختيار الأمراء الحر بعد وفاة هنرى، ومباركة الاكليروس، وموافقة الناس وقد تم ذلك فى آخن Aachen، حيث اجتمع الأدواق وكبار الكونتات والفرسان الذين أقسموا يمين الولاء له، ثم قام رئيس أساقفة مينز، وأخذ بيده وقاده إلى صحن الكنيسة مخاطبًا الناس على هذا النحو: "أقدم لكم أوتو الذى اختير Electum من قبل الله، وعين بواسطة هنرى، السيد الراحل للمملكة domino rerum وأصبح الآن ملكًا بيد كل الأمراء، فإذا كان هذا الاختيار Electio يسركم، فلتعلنوا رضاكم بأن يرفع كل منكم يده اليمنى"(٤٨). هكذا – وعلى حد تعبير باركلاف– نجح أوتو الأول عن طريق إرادة أبيه، وإرادة الله بحقوق الوراثة،

---

(47) Brooke, op. ct., p.19; Waley, op. cit., p.73

(48) Widukind, History of the Saxons, in A Source book for Medieval history, by Thatcher and McNeal, pp.72-75

وبحـــق الانـــتخاب، وبالحق الإلهى، نجح فى استخدام كل تأكيد رمزى ودينى كان مـــتاحًا فـــى ذلك القرن(٤٩). وبدا للجميع ساعتها أن مبدأ الوراثة قد أخذ يستقر فى الأرض الألمانـــية على حساب مبدأ الانتخاب أو بتعبير آخر، تدعيم سلطان الملكية فوق سلطة الأمراء.

ولا شك أن السياسة التى اتبعها أوتو الأول أثناء عملية اختياره ملكًا، وبعدها تفصـــح عن نيات الملك الألمانى الجديد تجاه الأمراء؛ فاختياره آخن بصفة خاصة لـــتجرى فـــيها عملية تنصيبه، توحى بأن العاهل الجديد يترسم خطى سلفه العظيم شارل. كما أن الوليمة التى أعقبت مراسم التتويج، على الصورة التى جرت بها(٥٠) وإن كانـــت عـــند الأمراء لا تعدو امتدادًا للتقليد الجرمانى القديم، إلا أنها لدى أوتو كانت تعنى حقيقتها لا رمزها فقط، أى اعتبار الأمراء "خدامًا ملكيين"، تابعين تبعية مطلقـــة للـــتاج. وقد ظهر ذلك واضحًا بعد عامين فقط؛ إذ أن ابرهارد Eberhard دوق بافاريـــا، والـــذى كان قد خلف أباه أرنولف منذ عام ٩٣٥ وحصل على ولاء البافاريين(٥١) رفض دعوة التاج له بالحضور اعتمادًا على هاتين الدعامتين: التعيين بحـــق الإرث عن أبيه، وولاء دوقيته فكانت إجابة أوتو على ذلك، العزل ولم يعط بافاريـــا لأحـــد مـــن أبـــناء أرنولف الآخرين، بل أعطاها لعمهم برتولد الكارنثى Berthold of Carinthia الـــذى تعهـــد أمام الملك بعدم تعيين أى أسقف أو كونت، وأصـــبحت أراضـــى التاج فى بافاريا تابعة مباشرة للتاج وعين إلى جانب الدوق، رئـــيس بلاط يراقب تصرفاته داخل الدوقية وكانت دلالة العزل الهامة القضاء على الاعـــتقاد الســـائد بحـــق الإرث فى الدوقية للأبناء(٥٢) وهو الحق الذى كان يناضل الملـــوك من أجله لجعله المبدأ الوحيد فى اعتلاء عرش الملكية الألمانية. ولم يضع

---

(49) Barraclough, The origins of Modern Germany, p.73

(٥٠) للمزيد من التفاصيل عن المراسم والصورة التى جرت بها هذه الوليمة، راجع :
Widukind, Loc cit.

(٥١) عن سياسة أرنولف البافارى المستقلة، وانتزاعه يمين الولاء لابنه من البافاريين، راجع :
Heinrich Mitteis, Feudalism and the German constitution, pp. 236-237

(52) Barraclough, op. Cit., p.28.

أوتو وقتًا، فخطا خطوة واسعة عام ٩٦١ عندما تغاضى عن مسألة اشراك الأمراء فـــى اختيار الملك الجديد، وأقدم على تعيين ابنه وسميه حاكمًا شريكًا. يضاف إلى هـــذا كلـــه اعـــتماد أوتو والأسرة السكسونية من بعد، اعتمادًا كاملاً على الكنيسة ورجـــال الاكلـــيروس فـــى معظم أمور الدولة، كقوة منافسة لتحطيم نفوذ الأمراء العلمانييـــن، بعـــد الـــثورات وحركات التمرد التى نشبت ضد أوتو الأول، وكانت أخطـــرها بين عامى ٩٥٣-٩٥٥ واستهدفت اغتياله. وتلك التى واجهت أوتو الثانى وهنرى الثانى، حتى غدت الكنيسة الألمانية هيئة دنيوية.

ومهمـــا يكـــن من أمر، فإن الجهود التى كللت بالنجاح فى مواجهة المجيار، والاســـتقرار الداخلـــى الـــذى تحقـــق، كان عاملاً رئيسيًا فى أن يظل مبدأ الوراثة محـــترمًا ومرعيًا على امتداد أربعة أجيال متعاقبة، ابتداء بأوتو الأول وحتى هنرى الثانى (٩٧٣-١٠٢٤) وحتى عندما لم يكن هناك وريث شرعى مباشر للعرش، كما حـــدث عـــند وفاة أوتو الثالث دون أن يعقب خلفا، أقدم الأمراء على اختيار هنرى الـــثانى، احـــترامًا للأسرة التى قدمت كل ما مقدورها لرفعة ألمانيا، باعتبار هنرى أحـــد أفراد البيت السكسونى. بل إن ما حدث بعد ذلك عقب ارتحال هنرى هذا عن الدنـــيا، يبيـــن مـــدى نجـــاح الأسرة السكسونية فى تعزيز مبدأ الوراثة فى اعتلاء العـــرش؛ ذلك أنه فى عام ١٠٢٤ كان المتنازعان على العرش يدعيان انحدارهما من سلالة ابنة أوتو الأول، ليوتجارد Liutgard وقد فاز كونراد (الثانى) لأن أرملة هـــنرى الـــثانى، كونيجوند Kunigunde سلمته الأشعرة الإمبراطورية عقب وفاة زوجها، فعد ذلك تعيينًا له باعتباره أفضل المرشحين.

هكذا بدا عام ١٠٢٤ أن المواجهة بين مبدأى الوراثة والانتخاب، قد حسمت فـــى هـــذه الجولة لصالح الوراثة، وأن النزعة الإقليمية لدى الأمراء، والتى كانت واضـــحة تمامًـــا خـــلال القرن التاسع والعقود الأولى من القرن العاشر، قد أخذت تخـــبو، وأن النظرية التيوتونية عن الاختيار، قد أصبحت قاب قوسين أو أدنى من النســـيان خاصـــة وأن سنوات القرن الحادى عشر- إذ استثنينا فترة الحرب الأهلية علـــى عهـــد هـــنرى الرابع (١٠٧٧-١٠٨١) - والعقدين الأولين من القرن الثانى

عشـــر، شهدت استقرار مبدأ الوراثة بصور بدت ثابتة، بعد أن أمكن كونراد الثانى لابنه هنرى الثالث، وهذا لوريثه-الطفل-هنرى الرابع، وهذا لابنه هنرى الخامس.

وقد اتضح منذ الوهلة الأولى لاعتلاء كونراد الثانى العرش، تصميم الأسرة الســـالية الفرنكونـــية علـــى ترســـيخ جـــذور مبدأ الوراثة، جريا على سنة الأسرة السكسونية، وتدعيمًا لسلطان التاج على الأمراء ففى عام ١٠٢٦، ولم يمض على اعـــتلاء كونـــراد العـــرش سوى عامين فقط، أقدم فى أوجزبرج Augsburg على تعييـــن ابـــنه هنرى (الثالث) ذى التسع سنوات، وريثًا له، ووافق الأمراء على ذلك وفـــى عام ١٠٢٨ تم تتويجه ملكًا فى أكس لاشابل Aix-La-Chapelle وهى السنة الـــتى أعقبـــت تـــتويج كونـــراد نفسه إمبراطورًا فى روما[٥٣]. وهكذا يعلن الملك إمبراطورًا، وما أن يصل إلى العرش الإمبراطورى حتى يعين ملكًا جديدًا خلفا له، مما يوحى بأن الأمر لم يكن فقط مجرد استمرارية، ولكن تثبيتًا للحقوق التاريخية للملكـــية بـــل أن هـــذا الحـــق امتد إلى الإمبراطورية ذاتها؛ فمنذ عهد كونراد هذا اتضـــحت الحقـــيقة القائلـــة بأن الملك الألمانى هو بحكم الواقع ipso facto حاكم إيطاليا، وذهبت مع الريح حقوق الناخبين اللمبارد، ومنذ عام ١٠٥٤ ظهر مصطلح Rex Romanorum in imperatorem promovendus الـــذى يعـــنى أن الملـــك الألمانى، وإن لم يكن قد تلقى بعد التاج الإمبراطورى فى روما، إلا أنه بالطبع يعد "ملـــك الـــرومان" Rex Romanorum بحقـــوق ثابتة لا يمكن انتهاكها فى وراثة الإمـــبراطورية، حتى أن أحد فقهاء القانون فى القرن الحادى عشر، عبر عن ذلك بقولـــه: "إن من تم اختياره من جانب الأمراء، يصبح إمبراطورًا حقًا، حتى قبل أن يثبت البابا هذا الاختيار"[٥٤].

وانطلاقًـــا مـــن السياسة العامة التى اتبعتها الأسرة الفرنكونية، والتى وضع خطوطهـــا العريضـــة كونراد الثانى، أقدم هذا الملك على وقف استنزاف أراضى الـــتاج وذلك بعد اتباع السياسة التى درج عليها أسلافه بتقديم هذه الأراضى هبات

---

(53) C.M.H., Vol. III, p. 269.
(54) Barraclough, op. Cit., pp. 73-74.

إلـــى الكنيســـة، بـــل أنفقها لضرب كبرياء طبقة كبار النبلاء، وذلك بالاعتماد على النبالة الدنيا، أو صغار النبلاء الذين أغدق عليهم هباته، ليصنع بهذا الإجراء قاعدة عريضة من الموالين والأتباع.

وتمـــثل ذلـــك بصـــورة واضـــحة فـــى اعـــترافه بحق هؤلاء فى توريق إقطاعـــاتهم(٥٥). وتجســـد هذا بصورة عملية فى مواجهة للثورة التى أشعلها ارنست Ernst دوق ســـوابيا، فقـــد تحـــالف الملك مع الكونتات ضد الدوق(٥٦). ولا شك أن اعتماد كونراد على النبالة الدنيا ضد الاستقراطية النبيلة، مسألة تثير الاهتمام؛ لأنها تشـــير الوهلة الأولى إلى العداء الاجتماعى الآخذ فى الظهور خلال القرن الحادى عشـــر، غـــير أن خطورة هذا الأمر تعود إلى أنه إذا كان كونراد قد استطاع بذلك تقويـــة ســـلطانه فى الداخل، واضعاف شوكة الأدواق وكبار الأمراء؛ فإن هذا كان أمـــرًا مؤقـــتًا؛ لأنـــه أدى بسياســـته هذه على المدى الطويل إلى تفتيت ألمانيا إلى إقطاعات صغيرة.

وتمشيًا مع هذا الاتجاه، وخروجًا عن الخط الذى رسمه الاوتويون بالاعتماد الكـــامل علـــى رجال الاكليروس، سعى كونراد وخلفاؤه الفرنكونيون إلى الاعتماد علـــى طـــبقة جديـــدة لا تمت إلى النبالة بصلة، وجعلوا منهم الموظفين الإداريين والفرســـان المسلحين، وهذه الطبقة عرفت باسم ministeriales وليس لها نظير فى المجـــتمعات الإقطاعـــية الأخـــرى فى فرنسا أو إنجلترا(٥٧). وأصبحت هذه الطبقة الجديـــدة تعتمد بصورة أساسية على التاج فى وظائفها ودخولها وإذا كانوا يشبهون الأفصـــال فـــى أنهـــم ينالون مكافآتهم بمنحهم الأراضى والمراتب، إلا أنهم كانوا يفـــتقدون الحـــرية الشخصية للفصل الإقطاعى ولا يمكنهم ادعاء نفس الامتيازات الخاصـــة بـــتلك الطـــبقة. وكان هدف الفرنكونيين من ذلك واضحًا، وهو أن هذه

---

(55) Thompson & Johnson, op. Cit., p.372.

(٥٦) عـــندما طلب الدوق من الكونتات مناصرته ضد الملك أجابوه بأن طاعتهم له مرهونة بطاعته للملك، قائلين: "نحن أحرار، والحارس الأعلى لحريتنا هو مليكنا وإمبراطورنا، فإذا هجرنا فقدنا حريتنا".

(٥٧) للمزيد من التفاصيل عن أصل هذه الطبقة ووجودها فى ألمانيا، راجع:

Davis, op. Cit., pp.334-33

الطبقة من "محدثي النعمة" أقل خطرًا من النبلاء وأسهل انقيادًا، لاعتمادهم أو ارتباطهم المباشر بالملك وقد جعل كونراد الثانى منهم العمود الفقرى لجهازه الإدارى الجديد، ولم يكن هنرى الرابع من بعد بأقل منه استنادًا إليهم، حتى أن الشكوى التى سرت آنذاك ضده من أنه يحيط نفسه بمجموعة من ذوى الأصول المتضعة Vilissimi et infimi hominess وأنه يسمع فقط لنصائح مستشاريه من طبقات متدنية، ويزدرى آراء الأمراء ذوى الأصول النبيلة، كانت تعبر عن الواقع "الإدارى" الجديد باعتماد الفرنكونيين على هؤلاء "الموظفين" ministeriales دون غيرهم.

ولم يحاول كونراد الثانى أن يعهد بالدوقيات الشاغرة إلى الأسرات المحلية، بل وضعها جميعًا فى يد ابنه هنرى، حتى إذا جاءت كونراد رسل الموت تتوفاه، كان هنرى يسيطر بالفعل على كل الدوقيات الألمانية عدا اللورين وسكسونيا. فلما أصبح هنرى الثالث هذا ملكا عام ١٠٣٩ حرص على بسط سلطانه على كل الدوقيات، فعهد بسكسونيا إلى رئيس أساقفة بريمن Bremen، أدالبرت Adalbert عام ١٠٤٣، بهدف إضعاف جانب عائلة بيلونج Billonger ولما كان رئيس الأساقفة مواليًا للتاج، فقد تحول العداء بينه وبين أدواق سكسونيا إلى عداء هؤلاء الأخيرين للملك وإن كان هنرى قد تمكن من اخماد الثورات بها، وأمضى فيها خمس سنوات يحاول تدعيم نفوذ الملكية وتقوية سلطانها هناك. اما اللورين فقد تعرضت للتقسيم بين ولدى جوتزيلو Gozilo بعد وفاته سنة ١٠٤٤ إلا أن وفاة هنرى المفاجئة سنة ١٠٥٦ عصفت بمشروعاته هذه جميعها خاصة وأن وريثه كان طفلاً صغيرًا إلا أن الملك الجديد هنرى الرابع، بعد أن باشر مهام سلطانه، بذل جهودًا كبيرة فى إتمام خطط أسلافه الفرنكونيين فى إقامة دولة ألمانية قوية.

عمد هنرى إلى استعادة كل حقوق الملكية وامتيازاتها التى تم اغتصابها على أيدى الأمراء، العلمانيين والاكليروسيين على السواء، إبان الفترة التى كان يعانى فيها غض العمر وسن القصور، ولو أخذنا سكسونيا مثالاً واحدًا فقط، لعلمنا أنه خلال هذه الفترة، أقدم فلاحوها على استغلال ممتلكات التاج من الغابات والمراعى

جهـــارا، فقطعـــوا أخشابها، ورعوا أنعامهم، وأورثوها أبناءهم وكان الاتجاه الذى انـــتواه فيما يختص بإعادة تأكيد امتيازات التاج فوق الأراضى، وتحريم الاستغلال الخاص لها، وتخصيص إنتاجها لدخل الملك، وبيع التصاريح الخاصة بالانتفاع بها سواء فى قطع الأخشاب أو الرعى أو إقامة الطواحين كل هذا بدا لأعين السكسون طغيانًا جائرًا. وفوق هذا وذاك، فإنه ضمانًا لإخماد الثورات التى يمكن أن يقوم بها أهـــالى هـــذه المناطق، فإن هنرى وقد ترسم فى ذلك خطى أبيه، أقام فى أراضى التاج فى سكسونيا وثورنجيا عددًا من القلاع، شحنها بالمخلصين له من السوابيين، الذيـــن حظوا بمقت السكسون وكراهيتهم باعتبارهم دخلاء يعملون فى خدمة ملك، عـــد عندهم طاغية. وما أن و افى عام ١٠٧٣ حتى كان هنرى الرابع قد سار فى هذه السياسة شوطًا بعيدًا، فقد بذلك السكسون إلى حافة الثورة[٥٨].

وقـــد ألقى المؤرخ الألمانى هانز هيرش Hans Hirsh الضوء على محاولة أخـــرى قـــام به هنرى الرابع، دفعت الأمراء دفعًا إلى عدم التردد فى الإحاطة به، عـــندما اشـــتدت حمى الصراع بين الإمبراطور والبابوية، فقد سعى إلى أن يكون القضـــاء الجنائى، أهم الحقوق العامة، مستندًا إلى السلطة الملكية. بمعنى أن تكون الإدانـــة مـــن الملك نفسه، وبهذه الصورة يمكن نقلها إلى سلطان الدولة، وكان هذا يعـــنى فى حالة تمامه، التدخل المباشر فى حقوق وامتيازات النبالة الألمانية، وهى مـــن أهم الحقوق التى كانوا يمارسونها[٥٩]. ويبدو أن هنرى الرابع كان متأثرًا فى هـــذه الناحية، بما أقدم عليه ويبو Wipo مستشار كونراد الثانى والذى امتدحه بأنه واهب السلام العام Pacis ubique dator ومعلم ابنه هنرى الثالث، من تقديم اقتراح إلـــى هـــنرى الثالث ينصحه فيه بأن يصدر مرسومًا عند تعيينه إمبراطورًا، يجبر النبلاء الألمان على إرسال أبنائهم إلى المدارس لتدريبهم هناك على احترام القانون.

---

(٥٨) للمزيد من التفاصيل عن سياسة هنرى الرابع الداخلية هذه، راجع:
Strayer & Munro, op. Cit., pp.207-208; Ch. Brooke, Europe in the Central Middle Ages, pp. 181-184; Thompson & Johnson, op. Cit., pp.374-375

(59) Mayer, op. Cit., pp.27-28.

فالإيطاليون – على حد قوله – يدرسون منذ زمان بعيد، القانون مما جعل من روما سيدة العالم(٦٠) وبهذا وضع ويبو يده على مواطن الضعف فى الملكية الألمانية زمن الأوتوويين والفرنكونيين. فقد كانت السلطات التشريعية والقضائية من أهم جوانب السيادة التى يتمتع بها الأدواق فى دوقياتهم. وكان اقتراح ويبو يمثل المعارضة القائمة من جانب التاج ضد اتجاهات الأمراء العلمانيين، الذين تجنبوا دومًا أى قانون مكتوب كلما أمكنهم ذلك، وراحوا يؤكدون فى تثقيف بنيهم على الخلال الفروسية والخلقية، والتى تقابلنا فى الملاحم البطولية(٦١). هذه الآراء المتباينة تكشف بوضوح من العداء الكامن والقائم بين الأحزاب المتصارعة خلال إرساء النظم الملكية الألمانية. إبان تلك الفترة، لأن إيجاد قانون منكوب، وهيكل ثابت، لن يخدم فقط قضية القانون فى ألمانيا، بل سيدعم بالتالى مركز الملكية الألمانية داخل ألمانيا(٦٢).

كانت البدايات كلها على هذا النحو تشير إلى أن الملكية الألمانية، راحت تأخذ طريقها إلى الاستقرار، وأن ألمانيا ستغدو قوة كبيرة فى أوروبا العصور الوسطى، وأن مبدأ الوراثة قد حقق نجاحًا بعيدًا فى التجربة الألمانية متفوقًا على منافسه الخطير، والكامن فى نفوس الألمان، وهو مبدأ الانتخاب للجالس على العرش. وبدا أن هنرى الرابع سوف يوضع فى عداد أقوى ملوك أوروبا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر، هنرى الثانى ملك إنجلترا، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا. لكن الظروف التى وجد هنرى نفسه محاطًا بها، أضاعت جهوده وجهود أسرته وأسلافه عبثًا، وذهبت مع الصمت الرهيب محاولات الأسرة السكسونية والفرنكونية، وحتى أسرة الهوهنشتاوفن Hihenstaufen فى إقامة دولة ألمانية موحده، على رأسها ملك قوى، يدعمه حق طبيعى تقليدى فى وراثة العرش، دون تدخل من جانب الأمراء.

---

(60) Joachimsen, op. Cit., 103

(61) Id.

(62) Ibid., p. 104

ذلــك أن هــنرى كان معاصرًا لواحد من أقوى بابوات العصور الوسطى، جــريجورى الســابع، الــذى تجســدت فــيه كل مبادئ نظرية السمو البابوى منذ جلازيــوس الأول Gelasius فــى نهايــة القرن الخامس، وحتى حركة الإصلاح الكلونـــى علــى المبادئ الجريجورية، والتى استهدفت فى النهاية وجود إمبراطور واحد هو البابا(٦٣).

ولا شــك أن هذا لا يتفق وسيادة الإمبراطور الألمانى الذى كان يرى وجهة نظــر مخالفة عن الإصلاح الكنسى(٦٤). وقد حمى أتون الصراع بادئ الأمر حول مشــكلة التقلــيد العلمانى، فلما أسقطت إتفاقية وورمز عام ١١٢٣ هذا القناع، سعر لهيــب الجــدل بيــن الــبابوية والإمبراطورية حول السيادة العالمية، وانعكس هذا الصراع بصورة مباشرة على سلطان الملك الألمانى فى ألمانيا ذاتها. وانتهى الأمر بتحطــيم الإمــبراطورية فى القرن الثالث عشر، وخروج ألمانيا دولة لا تحمل من حقيقتها إلا اسمها فقط دون أى معنى سياسى.

كانــت الكنيســة تميل دائمًا إلى تأييد مبدأ الانتخاب فى الملكية عن الوراثة؛ لأن ذلــك كان هو أيضًا نظامها الذى تقوم عليه، وقد رأينا أسقف مينز يباشر شيئًا مــن هــذا عند اختيار الملك الألمانى. ولكن الشئ المؤكد أنها كانت ترى فى ذلك تحقــيقًا لصالحها الخاص. وكان جريجورى السابع بصفة خاصة من أشد البابوات تحمسًــا لهــذا الاتجــاه، خاصة وقد رأى بعينى رأسه ما فعله الإمبراطور السابق هــنرى الثالــث مــن عزل ثلاثة من البابوات المرتشين والمارقين، وتعيين خمسة

---

(٦٣) للمزيد من التفاصيل عن أراء جريجورى السابع، راجع:

Ullmann, A short history of the papacy in the Middle Ages, pp.142-161;

Bryce, op. Cit., pp.156-158;

Ullmann, The growth of papal government in the Middle Ages pp.262-309;

Tout, The Empire and the Papacy, pp. 110-114, 124-136;

Dictatus papae, in Henderson, H.D., pp.366;

Barry, The papal Monarchy, pp. 190-227.

(٦٤) عن الصراع بين البابوية والإمبراطورية انظر الفصل الأول.

آخريـــن علـــى الـــتوالى ممن توسم فيهم التمسك بإصلاح أحوال الكنيسة. وتفصح رســائل جريجورى عن القاعدة التى بنى عليها بصفة أساسية هجومه على الحقوق الوراثـــية للملـــك، واعتـــبر أن الأمراء يشكلون جماعة أو هيكلاً واحدًا، وهم لذلك يمـــثلون المملكة وقد تحمس جريجورى جدًا لآرائه هذه، وقد رأى فيها عاملاً هامًا لتحقـــيق فكـــرته عن "صلاحية" idoneitas [٦٥]. وقد اعتمد رجال القانون الكنسى بصـــفة دائمة على عبارة وردت فى إحدى رسائل القديس جيروم Jerome يصف فـــيها نظـــام البيعة السكندرية، حيث يقوم اكليروسها باختيار واحد من بينهم ليكون أسقفًا، "كما يفعل الجيش بالنسبة للإمبراطور"[٦٦].

كـــان قرار الحرمان الذى أصدره البابا جريجورى السابع ضد الملك هنرى الـــرابع فى الثانى والعشرين من فبراير ١٠٧٦، إشارة البدء للأمراء كى يطرحوا وراء ظهورهـــم تمامًـــا، هذا التقليد الذى جرى على امتداد قرابة قرن ونصف من الزمان (٩٣٦-١٠٧٦)، أعنى احترام مبدأ الوراثة فى الملكية الألمانية، وأن يبعثوا مـــن جديـــد ذلـــك التقليد الجرمانى القديم باختيار الملك، والذى مارسوه فى بواكير القـــرن العاشـــر المـــيلادى. ولم يكن هذا سلوكًا عفويًا .. لكن التراكمات الطويلة الـــناتجة عـــن سياسة الأسرة السكسونية ثم الفرنكونية من بعد، والتى ابتغت تدعيم سلطان التاج وتأكيد الحق الوراثى فى العرش، ثم ما لجأ إليه كونراد الثانى وهنرى الـــرابع بصـــفة خاصة من الاعتماد على طبقات أخرى ذوى أصول غير معروفة، لخلق منافس قوى تجاه النبالة الأرستقراطية، ومحاولة إقامة عاصمة دائمة للمملكة فـــى سكســـونيا، وتجـــريد الأمراء ثانية من الامتيازات التى اغتصبوها إبان فترة قصـــور هنرى الرابع. كل هذا يجعلهم يستشعرون خطورة الأمر إذا ما قدر للملك أن يحقق انتصاره على البابوية فى صراعهما حول مشكلة التقليد العلمانى.

---

(65) Joachimsen, op. Cit., pp.127-129.

(66) Mundy, Europe in the high Middle Ages, p.330

دفع قرار الحرمان ضد هنرى، بألمانيا إلى حالة من الفوضى العارمة، تمثلت فى تحطيم وحدة الكنيسة الألمانية، ودفعت بالأساقفة المرتعشين أن يهرولوا إلى البابا طالبين الصفح والغفران. وكان إضفاء صفة القداسة على الثورة الألمانية، عاملاً هامًا فى تشجيع مختلف العناصر، أفرادًا وجماعات على إظهار سخطها(٦٧)، وامتدت الثورة فى مختلف أنحاء ألمانيا بصورة واسعة، عجز معها هنرى عن التصدى لها. وعقد الأمراء الألمان مؤتمرًا فى مدينة تريبور Tribur حضره مندوبان عن البابا، اضطر هنرى على أثره أن يلعق كل ما قاله آنفًا فى حق البابا، ووعد بأن يرعى فى كل شئ الطاعة الواجبة للكرسى الرسولى والبابا جريجورى(٦٨). وكان عليه أن يمضى أيامه الآتية فى الدير حتى يأتيه عفو البابا. وأعلن الأمراء أنه إذا لم يتمكن هنرى، حتى الثانى والعشرين من فبراير ١٠٧٧ من أن يضع عن نفسه قرار الحرمان الكنسى، فإنهم سوف يعلنون آنئذ عدم اعترافهم به كملك من بعد. ورتب الأمراء أمورهم على أن يعودوا للاجتماع ثانية فى فبراير فى مدينة أوجزبرج، حيث وجهوا الدعوة إلى البابا لرئاسة هذا المؤتمر المقترح، بحيث إذا ما تقرر عدم صلاحية هنرى الرابع للبقاء على عرشه، اختار المؤتمرون ملكًا بديلاً.

لا شك أن اغتباط جريجورى بهذه الأنباء كان يفوق كل وصف، فليس أحب إلى قلبه من أن يصبح وسيطًا وحكمًا فى الشئون الألمانية. فاتخذ سبيله على مهل إلى ألمانيا فى ديسمبر ١٠٧٦. وإذا كان هنرى قد فوت عليه هذه الفرصة، بسعيه هو إليه، ولقائه المهين فى كانوسا Canossa فى يناير ١٠٧٧، وحصوله على العفو والمغفرة قبل الموعد الذى ضربه الأمراء، إلا أن ذلك كله لم يثن هؤلاء عن عزمهم، فاجتمعوا فى مارس من العام نفسه وقرروا عزل هنرى، بعد أن اتهموه بأنه خدعهم ولم يلتزم بالبقاء فى الدير حسب ما قرروه فى تريبور من قبل، واختاروا ملكًا مضادًا هو رودلف Rudolph دوق سوابيا.

---

(67) Thompson & Johnson, op. Cit., p.283

(٦٨) انظر: Henry IV, Promise of the King to offer obedienne to the Pope

وأيضًا: Henry IV, edict Cancelling the Sentence against Gregory VII, (in Henderson, Select historical documents of the Middle Ages, pp.384-385).

هكـــذا عاد الأمراء من جديد إلى ممارسة التقليد الجرمانى القاضى باختيار الملك. والتقت مطامحهم وأطماعهم بالمصالح البابوية، حتى أن المؤرخ كريستوفر بروك Christopher Brooke يرى أنه كانت هناك خطة موضوعة بين جريجورى الســـابع والأمراء، بعد أن أصبح واضحًا فى عام ١٠٧٦ لكل من البابا وعدد كبير مـــن زعمـــاء الكنيســـة الألمانية، أن هنرى الرابع لم يعد على وفاق مع الأمراء، ولإضـــفاء صـــفة العدالة على خطتهم القاضية بعزل هنرى، عادوا إلى ما جاء فى الكـــتاب المقدس، من أن صموئيل عين داود ملكًا بينما شاول كان ما يزال على قيد الحـــياة. ويذكـــر أن هذه الرؤية كانت مرضية جدًا بالنسبة لجريجورى، وهى التى ألهمـــته مـــن بعد نبوءته الشهيرة عام ١٠٨٠، بأن هنرى لن يلبث أن يموت، إبان صـــراعه مـــع رودلـــف السوابى. أما بالنسبة للأمراء فقد كان من الصعب عليهم الاعـــتماد فقـــط علـــى مـــا جاء فى العهد القديم، وألا وضعوا أنفسهم تحت رحمة اكليروس عنيف لا يرحم، هو البابوية. ومن ثم أقدموا منفردين على اختيار رودلف دون مشـــورة الـــبابا(٦٩). ويدعم أولمان Ullmann هذا الرأى أيضًا حين يقول أن الأمـــراء فوجـــئوا بمـــا أقدم عليه البابا فى كانوسا، من العفو عن هنرى دون أن يستشـــيرهم فى هذا الأمر، ولما كانوا قد وجهوا بالأمر الواقع fait accompli فقد تصرفوا هم الآخرون بنفس الصورة عند اختيارهم لرودلف السوابى(٧٠). ولعل هذا هو الذى يفسر مغزى الرسالة التى بعث بها جريجورى السابع إلى الأمراء الألمان عقب اذلال كانوسا(٧١).

كـــان طبيعيًا أن يفصح الأمراء عن نياتهم الحقيقية باختيار رودلف السوابى للعـــرش الألمـــانى، فهـــم من ناحية أكدوا من جديد حقهم فى "اختيار" الملك، ومن الأخـــرى ضـــمنوا أن يحققوا من خلال الملك الجديد، الذى صنعته أيديهم، كل ما كـــانوا يشكون من ضياعه على عهود هنرى الرابع وأسلافه، الفرنكونيين بخاصة.

---

(69) Brooke, Europe in the central Middle Ages, pp.154-283

(70) Ullmann, A short history of the papacy in the Middle Ages, p.119

(71) Gregory VII, Letter to the German princes giving an account of the inxident at Canossa, (in Brian Tierney, The Crisis of Church and State, pp. 62-63.

ولـــذا كـــان رودلف ملكًا مفضلاً لدى الأمراء، فقد كان عليه قبل أن يتم اختياره أن يـــتعهد بإعادة حقوق هؤلاء الأمراء، وظهر هذا واضحًا خلال مرحلة المفاوضات الـــتى سبقت اختياره. وكانت الوعود التى قطعها على نفسه تكشف بوضوح-على حد قول المؤرخ الألمانى Mitteis- الاتجاه إلى منح رودلف مركز السيد الإقطاعى ولـــيس مركـــز الملك(٧٢). ومن ثم كان أهم ما تمخضت عنه عملية اختيار رودلف الســـوابى، أن الملكـــية الألمانـــية-كما يراها الأمراء، يجب أن تبقى انتخابية، وأن يـــتولى إلـــى الظل مبدأ وراثة العرش. ولذا فقد كان حرص الأمراء باديًا على أن يتعهد لهم رودلف بعدم الإقدام على إحياء مبدأ وراثة العرش من جديد.

ونتـــيجة لحـــرب التقليد العلمانى، تحطمت محاولة الأسرة الفرنكونية لإقامة ملكية قوية، فقد ألقت البابوية بثقلها فى الميدان، واستغلت الأرستقراطية هذا النزاع لتدعـــيم مصـــلحتها ونفوذها، ولعبت الحروب الأهلية (١٠٧٧-١٠٨١) دورًا كبيرًا فى تمزيق وحدة ألمانيا، واستغلت فترة الثلاثين عامًا، الواقعة بين ١٠٧٦-١١٠٦، وهـــى الـــتى لـــم يكن فيها هناك من الناحية القانونية، ملك معترف به من الألمان جمـــيعًا، فـــى ممارسة سلطات متزايدة للأرستقراطية، وبدلاً من النظام الفرنكونى للحكومـــة، أقامت الأرستقراطية نظامًا يتفق ومصالحها هى، وأهملت تمامًا حقوق الملكـــية. وهكذا شهد المجتمع الألمانى تحولاً خطيرًا فى تركيبه الاجتماعى خاصة فـــى الفـــترة ما بين اتفاقية وورمز سنة ١١٢٢ واعتلاء فردريك الأول برباروسا العـــرش عـــام ١١٥٣، بحيـــث يمكـــن القول أن ألمانيا تحولت بالفعل إلى مجتمع إقطاعى، بعد أن انتشرت القلاع فى كل مكان، واختفى الفلاحون الأحرار، وتحول النبلاء الصغار إلى فرسان وارتبطوا بالسادة بروابط الفصلية(٧٣).

وســـاعدت الحرب الأهلية فى ألمانيا على التمكين لهذه القوى الجديدة، وكان كـــل كســـب يحققه الأمراء، يعد بالتالى خسارة للتاج؛ ذلك أنه كان على الملوك أن يقدمـــوا باســـتمرار تنازلات متزايدة لهؤلاء الأمراء الكسب تأييدهم، خاصة التأييد

---

(72) Heinrich Mitteis, Feudalism and German constitution, p.241.

(73) Barraclough, op. Cit., p.136.

العســكرى. وكان هذا يعنى اعترافًا متزايدًا بطموحاتهم الخاصة وبحقوقهم السيادية فى مناطق سيادتهم، بما فيها سلطانهم على النبالة الدنيا، وحقهم فى الوراثة. وهكذا أصــبح من السهل انتقال لقب الدوق أو الكونت من الأب إلى ابنه وكذا الأراضى. وأمست فكرة إقامة دولة لها كيانها السياسى، خاصة الالتزام العكسرى تجاه الملك، أمــرًا عبــثًا(٧٤). كما أن الادعاءات الخاصة بالإمبراطورية أثرت إلى حد كبير فى كفــاءة ومقدرة الملكية الألمانية، بعد أن أغرق الملوك الألمان أنفسهم فى مشكلات إيطاليا، وتعددت سنوات غيابهم هناك بعيدًا عن ألمانيا، مما أعطى الفرصة للأمراء الألمان كى يمارسوا سلطانهم وسيادتهم بعيدًا عن أعين الملوك(٧٥).

كــان اختيار رودلف السوابى إذن، نقطة البدء فى طريق اللاعودة إلى مبدأ وراثــة العــرش ثانية، وإذا حدث من بعد فلن يمثل إلا الاستثناء، كما سنرى زمن أسرة الهوهنشتاوفن. بل لقد استمر الهجوم على الملكية الوراثية عقب موت رودلف الســوابى ١٠٨٠، إذ لقــى اقتراحًا بتعيين كونراد ابن هنرى الرابع بدلاً من أبيه، رفضًــا جامحًا من أوتو كونت نوردهيم Otto of Nordheim الذى قال: "لا أرى إلا عجــلا شاردًا يولد من ثور هائج؛ لذا فأنا لا أريد الابن ولا الأب!!"(٧٦). وكان تمــرد هــنرى الخامس ضد أبيه، وقبوله التاج وإعلان نفسه ملكًا بيد الأمراء عام ١١٠٥، يعــنى اعــترافًا منه بالسمات الأرستقراطية للمجتمع الألمانى، وبما وصل إلــيه ســلطان الأمراء. وباختصار، فإن حقوق الإرث الملكى والامتيازات التى لا تقــبل المناقشــة بالنســبة للملكية، قد انهارت تمامًا من جراء الصراع حول التقليد العلمــانى، والحرب الأهلية بين عامى ١٠٧٦-١١٠٦ وظهر ذلك واضحًا فيما قاله أســقف مينز، الذى طالما ادعى ومارس حق تنصيب الملك، وراح يناضل الآن من أجــل أن يجعل من نفسه "صانع الملوك"، كى يتحكم فى مصائر المملكة وأقدارها. قــال فــى عــام ١١٠٦ وهو يسلم الأشعرة الملكية إلى هنرى الخامس: "إذا لم تغد حاكمًا عادلاً، حاميًا لكنيسة الله، فإنه مصيبك حتمًا ما أصاب من قبل أباك!"(٧٧).

---

(74) Brooke, op. Cit., p.506.

(٧٥) عن هذا الموضوع انظر الموضوع الفصل الثالث.

(76) Barraclough, op. Cit., p.15, n.1

(77) Ibid., pp. 153-154.

ولقد كان على هنرى الخامس أن يقدم بدوره التعهدات على نفسه والتى تخرج عن تلك التى أعطاها صاغرًا من قبل،رودلف فقد وعد هنرى السكسون حتى يحصل على ولائهم عام ١١٠٦، وعدا بأن كل فرد سوف يحظى بالعدالة at amnibus iustum indicium faciat. وفى عام ١١١٩ أحنى رأسه للعاصفة، وجدد وعوده فى عبارات مخددة واضحة تجاه المملكة جميعًا. لقد كانت النتيجة الطبيعية للانتخاب، باختصار، الاعتراف بالحقوق المقررة لأمراء الإقطاع"(٧٨).

ولو أن الأمور جرت على نحو طبيعى كما كانت تسير قبل عام ١٠٧٦، لوجدنا أن السابقتين اللتين جريتا فى عام ١٠٠٢ باختيار هنرى الثانى باعتباره وريثًا لأوتو الثالث، وعام ١٠٢٤ باختيار كونراد الثانى، لكونه مرشحًا من قبل زوجة الملك الراحل هذا، يمكن أن تشيرا إلى أن الأمراء سوف يقدمون الآن فى سنة ١١٢٥ بعد وفاة هنرى الخامس، على اختيار فردريك السوابى الهوهنشتاوفنى الوريث الشرعى لهنرى، والمرشح من قبله قبل وفاته. غير أن هذا أصبح الآن شيئًا مستحيلاً، إذ لو حدث لرأى فيه الأمراء عودة إلى مبدأ الوراثة، ولذا فقد عمدوا إلى اختيار لوثر Lothar دوق سكسونيا وكان أدالبرت رئيس أساقفة مينز، والعدو اللدود لهنرى الخامس، هو المحرك الأساسى وراء هذا الاختيار، فقد أغرى الناخبين بعدم احترام وصية هنرى الأخيرة، بالإضافة إلى أن لوثر كان معروفًا بعدائه الشديد لسلفه إبان حياته، ولم تكن لديه أية ادعاءات وراثية فى العرش(٧٩) ولذا كان يضع نصب عينيه أن امتلاكه للتاج راجع فقط إلى الانتخاب وحده. وشجع الأمراء على ذلك، أنه كان قد بلغ الخمسين من عمره، ولم يكن له وريث ذكر، ولم يبد عليه أى علامة من علامات الطموح فى تكوين أسرة ملكية أو التدخل

---

(78) Ibid., p.155

(٧٩) عن دور رئيس أساقفة مينز، راجع Adalbert, letter to the bishop of Bamberg, (in S.B.M.H., pp.167) أما لوثر فكان ابنًا لأحد صغار الكونتات فى سكسونيا، وإن كان قد حصل على حكمها سنة ١١٠٦ عن طريق اصهاره إلى أسرة بيللونج Billung راجع: Scott. Op. Cit., p. 116.

فـــى حقـــوق الأمـــراء وامتيازاتهم. لقد كان لوثر باختصار أحد أفراد تلك الطبقة الجديدة التى ظهرت نتيجة لحرب التقليد العلمانى(٨٠).

وطـــيلة عهـــد لوثـــر (١١٢٥-١١٣٧) كان يتصرف بما لا يزيد عن كونه زعـــيمًا لجماعـــة النـــبلاء أكـــثر منه ملكًا ألمانيا. ولما وجه بعداء أصحاب الحق الشـــرعيين فى العرش، الهوهنشتاوفن، ركن إلى تدعيم نفسه بإقامة حزب قوى إلى جـــواره، دون أن يدخـــل فى اعتباره أنه حاكم لمملكة. فوزعت الأراضى الملكية لجذب الأنصار، وارتمى فى أحضان الكنيسة، وابتاع رضاها بما قدمه من تنازلات باهظـــة، وخســـرت الملكـــية الألمانية كل ما كانت قد حققته زمن هنرى الخامس بمقتضى اتفاقية وورمز عام ١١٢٢. لكن الخسارة الكبرى تمثلت فى تنازله للكنيسة عـــن أملاك الكونتيسة ماتيلدا، وقبوله بادعاءات البابوية عليها، وتلقيها من أنوسنت الـــثانى Innocent II إقطاعيًا بابوياً، فى مقابل حصوله على التاج الإمبراطورى سنة ١١٣٣!(٨١).

وكان هنرى المتكبر Henry the Proud الولفى دوق بافاريا، من أكبر مؤيدى لوثـــر عـــند تتويجه ملكا، وتدعم التحالف بينهما عام ١١٢٧ بزواج هنرى من ابنه لوثـــر الوحـــيدة ووريثـــته، وجـــاء هـــذا الـــزواج فى نفس العام الذى حمل فيه الهوهنشـــتاوفن، الأعـــداء التقليديون للولفيين والملك، السلاح، وأقاموا ملكًا منافسًا، وظلت لهم اليد العليا حتى عام ١١٣٠، وإن كان التحالف بين لوثر وهنرى قد أدى إلى تحسن موقف الملك وانتصاره على خصومه عام ١١٣٥. وكان لابد أن يكافئ صـــهره علـــى حســـن صـــنيعه، فجعله ماركيزا لتوسكانيا وعهد إليه إدارة أملاك الكونتيسة ماتيلدا، مما جر على الملك غضب الكنيسة فى أخريات سنى حياته. وزاد المســـألة تعقيدًا فى ألمانيا، أن لوثر ضم إلى هنرى أيضًا دوقية تسكانيا، فغدا بذاك

---

(80) Davis, op. cit., p317.

(٨١) راجع: Lother, coronation Oath, 1133 وأيضًا الوثيقة الخاصة بمنح أراضى الكونتيسة ماتيلدا، كإقطاع بابوى إلى لوثر Innocent II grants the land of Countess Matilda to Lothar II, 1133 (in Thatcher & McNeal, A Source book for Mediaeval history, pp. 169-171).

عــند وفــاة صهره أقوى المرشحين للعرش، بسيطرته على بافاريا وسكسونيا فى ألمانــيا، وتوسكانيا فى إيطاليا، وبتلقيه للأشعرة الملكية من لوثر الذى بعث بها إليه عندما حضرته الوفاة. كما أنه عن طريق زوجه جرترود Gertrude ورث ضياع لوثــر الخاصـــة، الــتى تشمل أملاك أكبر عائلتين فى سكسونيا قديمًا، بينما توجد الأملاك الوسيعة لأسرته فى بافاريا تحت إدارة أخيه ولف Welf(٨٢).

أضحى من الممكن فى ظل هذه الظروف، قيام حكومة ألمانية مستقرة، وأن تغــدو الدولة الألمانية قوية. لكن شيئًا من هذا لم يحدث، لأن قيام ملكية ألمانية قوية لم يكن فى مصلحة أى من النبلاء أو الكنيسة. وكانت شخصية هنرى المتكبر، بلقبه الــذى اقترن باسمه، تنفر الأمراء والاكليروس من الإقدام على اختيار ملك لابد أن يصــبح "مــتعجرفًا" مزهوا بقوته. وهكذا تكرر من جديد ما حدث عام ١١٢٥ بعد وفــاة هــنرى الخامس، إذ ضرب بعرض الحائط آراء النفر القليل الذى كان ينادى بإعــادة مــبادئ الشــرعية والوراثـــة، رغبة فى تقوية الملكية(٨٣)، ولعبت الدوافع الشخصــية دورهـــا حاســـمًا، متمثلة فى المندوب البابوى الذى بعث به البابا على عجــل، ليعمل قدر طاقته فى ألمانيا لصرف التاج عن هنرى، ووقع اختيار الأمراء والمــندوب البابوى على كونراد الهوهنشتاوفنى دوق سوابيا، ليكون ملكًا. ولما كان منصـــب رئيس أساقفة مينز شاغرا، بينما تم اختيار رئيس أساقفة كولون لتوه، فقد تــزعم أسقف ترير Trier أدالبرو Adalbro الدعوة لمنع وجود ملك قوى، يمكن أن ينقض كل التنازلات التى حصلت عليها الكنيسة من قبل على عهد لوثر(٨٤).

هكــذا أكد الأمراء خلال أقل من خمسة عشر عامًا، وعلى مرتين متتاليتين، حقهــم فـــى انتخاب الملك، وتأكيد كون الملكية الألمانية انتخابية. ولكنهم فى الوقت ذاتـــه حكمـــوا عليها بأن تظل ضعيفة، ودفعوا بألمانيا إلى عداء إقطاعى مدمر بين الولفيين والهوهنشتاوفن(٨٥) زاده ضراما ضعف شخصية كونراد، ولجوئه إلى نفس

---

(٨٢) للمزيد من التفاصيل عن المركز المتميز، راجع: Brooke, op. Cit., p.278

(83) Barraclough, op. Cit., p.158.

(84) Brooke, op. Cit., pp.278-790.

(85) Scott, op. Cit., p. 119.

الأسلوب الخاطئ، قصير النظر الذى سار عليه سلفه لوثر، فأقام إلى جانبه حزبًا مناوئًا للولفيين، فعين ألبرت الدب Albert the Bear على سكسونيا، وليوبولد Leopold الأخ غير الشقيق للملك، دوقا على بافاريا، بعد أن انتزعهما من هنرى المتكبر. غير أن ذلك لم يؤد إلا إلى إشعال نيران الحرب الأهلية، فلما فشلت محاولاته، وانتصر الحزب المؤيد لهنرى الأسد، ابن هنرى المتكبر ووريثه، لجأ إلى عملية تغذية هذه النيران، فحرض برانبدبرج ضد سكسونيا، واستريا (النمسا) ضد بافاريا. غير أن هذه السياسة كشفت إلى أى مدى أمست الملكية الألمانية إلى ضياع.

ولم يكن أمام الملك من طريق سوى استرضاء الأمراء، حتى أنه عند اعتلاء كونراد الثالث العرش، كانت كل الضياع قد أصبحت وراثية، بينما تحولت أراضى التاج إلى رقع مبعثرة، خاصة فى شمالى ألمانيا، سواء من حيث المساحة أوالامتداد(٨٦). وفى عام ١١٢٥ حمل التغيير فى الأسرة الحاكمة إلى مزيد من التدمير لأراضى التاج، فقد ذهب جزء كبير منها إلى أسرة الهوهنشتاوفن، بمقتضى الظن عند هنرى الخامس بانتقال العرش إليها عن طريق فردريك السوابى الذى بعث إليه هنرى بالأشعرة الملكية. ثم ازدادت المشكلة تعقيدًا عام ١١٣٨ بذهاب أراضى التاج إلى هنرى المتكبر، بحكم الظن أيضًا بانتقال العرش إليه بعد وفاة لوثر. حتى أن هنرى – كما أسلفنا – غدا بالأراضى الواقعة تحت سلطانه، أقوى من كونراد الثالث نفسه عند اعتلاء العرش. ولا ريب أن ضعف الدعائم المادية للملكية، مع ازدياد وتقوية الحقوق الخاصة بالأمراء، يعد السمة الرئيسية للفترة الواقعة ما بين عامى ١١٠٦ و ١١٥٢، حيث أصبح الملك يعد عند الأمراء الأول بين أقرانه Primus inter pares (٨٧). ولقد أصاب أوتو الفريزى Otto of Freisign كاتب سيرة فردريك الأول Gesta Frederici عندما ذكر أن الملكية التى كانت زمن الفرنكونيين وراثية عملاً، أمست فى عام ١١٥٢ انتخابية تتم حسب رغبات الأمراء؛ ذلك أن العمد التى ارتكزت عليها الملكية الفرنكونية كانت قد ولت، فالكنيسة غدت إقطاعية، ولم يعد الأساقفة على ولائهم للتاج، والموظفون

(86) Bryce, op. Cit., p. 162.

(87) Barraclough, op. Cit., pp.159-162.

الملكيون الذين اعتمد عليهم هنرى الربع فى برنامجه، تأرجحت أهواؤهم بفعل عدم استمرارية الأسرة الحاكمة أو سياستها(٨٨).

وفى عام ١١٥٢ مات كونراد الثالث، وتغاضى الأمراء عمدا عن ابنه الأكبر، وتحولوا إلى اختيار ابن أخيه فردريك دوق سوابيا، ورغم أن الأمر بدا على هذا النحو يمثل تأرجحًا بين الوراثة والانتخاب، إلا أن الأمراء كانوا يدركون تمامًا، أن البديل لذلك هو الوقوع تحت سطوة زعيم البيت الولفى، الشخصية القوية الصارمة، هنرى الأسد. يضاف إلى ذلك أن الأمراء رأوا فى فردريك شخصية قد توقف نزيف الحروب الأهلية والصراعات الداخلية بين العائلات الأرستقراطية الكبيرة، فقد كان فردريك ودودا مع الولفيين، كما أن أمه جوديث Judith كانت أختا لهنرى المتكبر(٨٩). لذا لم يلق اختيار فردريك بربار وسا الهوهنشتاوفنى معارضة، كما حدث لسلفيه من قبل. وكان أول شئ أقدم عليه الملك الجديد إظهار حسن النية من جانبه تجاه الولفيين، فاعترف بحق هنرى الأسد فى الأراضى التى يسيطر عليها بالفعل عبر نهر الألب، وكذلك سكسونيا، ورد عليه دوقية بافاريا، وأقطع الولفيين أيضًا أراضى إمبراطورية فى توسكانيا فاستطاع بهذه العلاقات أن يجعل من الأمراء الألمان قوة إلى جانبه(٩٠).

غير أن هذه السياسة التى لجأ إليها فردريك بربار وسا فى أول عهده، لم تكن تنم عن شخصيته أو أهدافه الحقيقة، بل جاءت ترضية لخواطر الأمراء وتهدئة للأمور فى ألمانيا بعد فترة عصيبة، لعبت بها النزعات والأهواء الشخصية كثيرًا منذ حرمان هنرى الرابع حتى وفاة كونراد الثالث (١٠٧٦-١١٥٢). لقد كان فردريك يدرك تمامًا حقوقه الملكية ومدى سلطانه، شأن أى سيد إقطاعى، ولم يكن يدخر وسعًا فى سبيل تثبيت هذه الحقوق، ولذا فقد أضحى البلاط الملكى على عهده بتوالى السنين، شيئًا يثير الرهبة فى النفوس ويبعث على الاحترام. وكان زواجه من بياتريس Biatrice وريثة كونتية برجنديا، قد حمل إليه أرضًا جديدة وأفصالاً

(88) Ibid, p. 162
(89) Brooke, op. Cit., p.287.
(90) Thompson & Johnson, op. Cit., p.394.

تابعين[91] أما فيما يختص بالكنيسة، فإن فردريك، بعد التبعية والخضوع الذى كان قد أظهره كل من لوثر وكونراد تجاهها، عاد بصورة متطرفة إلى تلك السياسة التى انـتهجها الأوتوويون من قبل. فأعلن عزمه على التمسك بكل الحقوق التى أعطيت للـتاج بمقتضـى اتفاقية وورمز ١١٢٢، وكان السبيل الذى انتهجه فى ذلك يدور حـول استبدال الأساقفة المصلحين الذين يرغبون فى تركيز السلطة الكنسية فى يد رومـا، بغـيرهم من الأساقفة السياسيين، من المدرسة الألمانية القديمة، والذين لم يهجـروا جانـبه مطلقًا، بما يتميزون به من العناد وكان من أبرز هذه الشخصيات ريـنالد Rainald رئيس أساقفة كولون، وقد ظل حتى اليوم الأخير من حياته يعمل فى خدمة الدولة، ويستحث فردريك على الدفاع عن حقوقه إلى درجة ربما أبعد مما كان يسعى إليها فردريك نفسه. كما أنه وجد فى كريستيان رئيس أساقفة مينز، عقلاً متقدًا ونصيرًا غيورًا[92].

وكـان مـن بيـن الدعامـات التى لجأ إليها فردريك لتدعيم نفوذه وأسرته، حرصه على أن يوجد إلى جواره إدارة تنفيذية تعمل بأمره، وأراضى واسعة للتاج وخاضـعة لـه مباشـرة، ورغبـته فـى تطبيق مبادئ القانون الإقطاعى، بجعل الهيراركـية العسـكرية Heerschild ونظام القيادة العسكرية مرتبطًا أيضًا بالتاج. وكان هذا يعنى مدخلاً طبيعيًا لمفهوم الوحدة Monistic الدولة فى ألمانيا[93]. وهذا يسـتتبع بالـتالى العـودة إلى إقرار مبدأ الوراثة فى العرش، والذى كان قائمًا أيام الأسرتين السكسونية والفرنكونية. وهذا بدوره سوف يقود حتمًا مقضيًا إلى الصراع مع الأمراء والكنيسة جميعًا. وقد تهيأت الفرصة لفردريك بربارِوسا فى عام ١١٨٠ عند تحطيمه لقوة خصمه هنرى الأسد، وكان الأخير قد استغل التفوق الضخم الذى حـازه، بما أغدقه عليه فردريك فى البداية، فراح يطبق نظامًا عسكريًا صارمًا فى سكسـونيا، واهـتم بتأسيس المدن فى مناطق نفوذه مثل برونزويك Brunswick ومـيونخ Munich ويمارس سياسة خارجية مستقلة، فأصهر إلى هنرى الثانى ملك إنجلـترا وتـزوج ابنـته، وقـام بـرحلة إلـى الأراضى المقدسة، واستقبل رسل

(91) Ibid, p. 395

(92) Ibid. pp. 395-6 ; C.M.H. Vol. V, pp. 392-397.

(93) Mayer, op. Cit., pp.28-29.

الإمـــبراطور البيزنطى، الذى كان على عداء مع الملك الألمانى. فلما استشعر فى نفســه القـــوة، رفــض الاشتراك فى الحملة الخامسة التى قام بها الإمبراطور إلى إيطالـــيا عام ١١٧٦، وكان لغيابه أثره الكبير فى هزيمة فردريك فى موقعة ليناتو Legnano، ومـــا ترتب عليها من إعادة تكرار مشهد كانوسا ثانية فى البندقية، على يد البابا إسكندر الثالث. فلما عاد الملك إلى ألمانيا، راح يستجمع قواه وقوى الأمراء الحاقدين على هنرى الأسد، وتمكن من تحطيمه سنة ١١٨٠[٩٤].

غـــير أن فردريك فوت على نفسه وأسرته فرصة إقامة ملكية ألمانية وراثية قويـــة، وذلك بالأسلوب الذى اتبعه بعد تدميره قوة خصمه؛ ذلك أن عقابه جرى فى إطار النظام الإقطاعى، باعتبار هنرى فصلاً إقطاعيًا متمردًا، أدين بمقتضى القانون أو الـــنظم الإقطاعية، فجرد من ممتلكاته كعقوبة إقطاعية أيضًا. وبدلاً من ضم هذه الأراضـــى والممتلكات إلى التاج لتقويته، وزعت على صغار النبلاء الذين ساعدوه فـــى محاكمة هنرى والقضاء عليه. وكانت هذه سابقة خطيرة، بحيث لم يستطع أى ملـــك ألمانى فيما بعد أن يضم أراضى مصادرة لفصل متمرد إلى ملكية التاج، هذا على عكس ما حدث بعد ذلك بعشرين عامًا فى فرنسا، عندما أقدم فيليب أوغسطس بعد هزيمة جون ملك إنجلترا، على ضم نورماندى إلى أراضى أسرة كابيه[٩٥]. لكن الشـــئ الجدير بالذكر أن سياسة فردريك هذه بتوزيع مملتكات هنرى الأسد، غيرت الخريطة السياسية والاجتماعية لألمانيا، وإذا كانت قد ضمنت له السيادة على ألمانيا طـــيلة عهـــده. بعدم وجود قوة كبيرة تماثل قوة هنرى الأسد، إلا أنها عملت على تفتيـــت وحـــدة ألمانـــيا تمامًا؛ فقد اختفت أو كادت الدوقيات الكبيرة القوية، وحلت محلهـــا دوقيات صغيرة هزيلة، وأصبح لقب الدوق ومنصبه وليس له نفس البريق الـــذى كان من قبل، وظهرت نبالة جديدة لم تكن ضمن طبقة الأرستقراطية النبيلة مـــن العـــائلات العـــريقة. وترك ذلك آثاره السيئة على مستقبل ألمانيا فيما بعد .. وأثبت فردريك بذلك أنه لم يكن رجل سياسة من الطراز الأول[٩٦].

---

(٩٤) عن تفاصيل هذه الأحداث، راجع: Brooke, op. Cit., pp.51, 501-503.

(95) Barraclough, op. Cit., pp. 189, 193-4 Slesser, The Middle Ages in the West, p.113.

(96) Brooke, op. Cit., pp. 503-506; reiherr V. Dungern, op. Cit., p. 221Ganshof, Feudalism, pp. 160-161

ومــع أن الحمـــلات العســكرية المتتالية التى قادها فردريك إلى إيطاليا، قد أرهقت ألمانيا من أمرها عسرًا، إلا أن ما حصل عليه فردريك فى النهاية بمقتضى نجاحه فى زواج ابنه هنرى السادس من الأميرة كونستانس وريثة عرش النورمان فـــى صـــقلية، عوضــــه كثيرًا عن جرح كبريائه أمام مدن العصبة اللومباردية فى شـــمالى إيطاليا، والبابوية. وضمان فردريك العرش الألمانى من بعده لابنه هنرى السادس، يعد هو الآخر نجاحًا وإن كان مؤقتًا لمبدأ الوراثة؛ ذلك أن العمر القصير الـــذى أمضاه الملك الجديد على العرش (١١٩٠-١١٩٧)، وانشغاله المستمر بتثبيت دعـــائم ملكـــه فى صقلية وحروبه فى إيطاليا، وطفولة ابنه ووريثه، وضعف خلفه فيليـــب السوابى، والحرب الأهلية الضروس التى استمرت ستة عشر عامًا، كل هذا أتاح لقرون طويلة آتية بإمكانية قيام ملكية وراثية قوية فى ألمانيا.

لقــد شـــهدت نهاية القرن الثانى عشر، وبواكير القرن الثالث عشر، قمة المأساة فـــى الصراع الطويل بين مبدأى الوراثة والانتخاب للعرش الملكى فى ألمانيا. وحسمت لصـــالح الانـــتخاب. ولعبت فيها البابوية دورًا أساسيًا إلى جانب الأمراء الألمان، إن لم يكن الدور كله. فقد كان يعنيها فى المقام الأول فرض سلطانها وسيادتها على ألمانيا فى إطـــار نضـــالها مـــن أجل السيادة العالمية. ولقد كان أنوسنت الثالث – على حد تعبير بـــاراكلاف[٩٧] – على استعداد ليس فقط لتدمير السلام فى ألمانيا، بل لجعل دول أوروبا جميعها تعلن الحرب ضد بعضها بعضًا. هذا على الرغم مما كان يعلنه من أنه لا يريد بالإمـــبراطورية شـــرًا. لكن الإمبراطورية التى كان يعنيها، كانت شيئًا غير ذلك تمامًا. لقـــد كان يعنى إمبراطورية بمفهومه الخاص، وليست تلك الإمبراطورية التاريخية التى نهضـــت من وحل مشكلة التقليد العلمانى بفضل عبقرية الهوهنشتاوفن. كما أن امتداحه للوثـــر الثانى، يكشف عن أفكاره التى تعود بنا إلى جريجورى السابع، وهى تقوم على أســـاس أن يخـــتار الملك بواسطة الأمراء، ولا يصح له ممارسة سلطاته إلا بعد أن يتم التمحـــيص الواجـــب من جانب الكرسى الرسولى، كى يحصل على الموافقة والتثبيت والرضى من قبل البابا.

---

(97) Barraclough, op. Cit., p. 207.

وهـــذا هـــو ما حدث تمامًا إبان الأزمة التى تفجرت بالموت المبكر لهنرى السادس، بينما ابنه ووريثه فردريك (الثانى) يحبو فى عمر الطفولة. لقد بذل هنرى قصـــارى جهـــده لإغـــراء الأمراء الألمان لجعل العرش وراثيًا، بحيث يخلفه ابنه بصـــورة تلقائـــية إمـــبراطورًا وملكـــاً على صقلية. ونجح فى مارس ١١٩٦ من الحصـــول علـــى تأكـــيد مـــن جانب اثنين وخمسين أميرًا، اجتمعوا فى فيرزبرج Wursburg بقـــبول مـــبدأ الوراثة على العرش. ولكن لم يكن هناك تجربة سابقة يمكـــن أن تكـــون ضمانًا مؤكدًا على أن الأمراء سوف يلتزمون بما عاهدوا عليه هـــنرى، إذا ما مات قبل أن يصل ابنه إلى سن الرشد(٩٨). وهنا يبدو الخلاف كبيرًا بين ما آلت إليه الملكية فى ألمانيا، وما كانت قد بلغته فى إنجلترا وفرنسا. فهنا كان الملوك قادرين على فرض هذا المبدأ بمقتضى التقليد الذى أصبح متوارثًا جيلاً بعد جيل. أما هنرى فقد اضطر إلى أن يشترى موافقتهم بمزيد من التنازلات، فاعترف لهـــم بحق الوراثة كاملة فى إقطاعاتهم، وامتد ذلك ليشمل أيضًا الإناث والأصهار. أما بالنسبة لرجال الاكليروس، فقد منحهم حقوقًا مساوية لهذه فيما يتعلق بالتصرف فـــى الوصية. لقد كانت أسرة الهوهنشتاوفن بدءًا بكونراد الثالث ثم فردريك الأول، فابـــنه هنرى السادس، فابنه فردريك الثانى، تسعى حقيقة إلى تدعيم نفوذها كأسرة قوية، لكن الوسائل التى استخدمها التاج فى سبيل ذلك، استخدمها الأمراء أيضًا فى أراضيهم، وهى القواعد الأساسية فى سيادة الأمراء وازدياد نفوذهم(٩٩). وحتى هذه التـــنازلات الـــتى قدمها هنرى، لم ترض جميع الأحزاب، فعدد من الأمراء، ومن بينهم دوق النمسا، كانوا قد حققوا بالفعل هذه الحقوق الوراثية بامتيازات خاصة.

وتمثلت المصالح والدوافع الشخصية خير تمثيل فى موقف كل من البابا كلستين الثالـــث Celestine ورئـــيس أساقفة كولون. فهذا الأخير، شأن قرينه أسقف مينز(١٠٠)، كان يدعى حقًا قديمًا فى تتويج الملك المختار لألمانيا بيد الأمراء، رأى أن نجاح هنرى

(98) Waly, op. Cit., p.74; Scott, op. Cit., pp. 256-257.

(99) Freiherr V. Dungern, op. Cit., p.221.

(١٠٠) هـــناك وثـــيقة خاصة بأسقف مينز فى هذا الشأن تعود إلى سنة ١٢٩٨، وصادرة عن الملك ألبرت
Thatcher & McNeal, A Source book for Mediaeval history, pp. 276-277

فـي ضـمان العرش من بعد لابنه، يعنى تهديدًا لسلطانه. أما البابا والذى كان متفقًا مع أسـقفه أول الأمر، فقد أقدم على تتويج فردريك الثانى ملكًا، متخطيًا حق أسقف كولونى فـي هـذا السبيل، ضاربًا عرض الحائط بغضبه، وذلك عندما لوح له هارى باستعداده للخـروج فى حملة صليبية، وبالدخل الذى كان يحصل عليه البابا بمقتضى الاتفاق بين ابيه فردريك الأول والبابا لوقا الثالث، من جميع كنائس الإمبراطورية بدلا من المناطق المتـنازع عليها فى وسط إيطاليا(١٠١)، وهو الذى لابد أن يسيل له لعاب البابوية. ومع أن الـبابا قد رفض مقترحات هنرى بإقامة ملكية وراثية، بعد أن رأى اشتداد المعارضة مـن جانب الأمراء خاصة دوق اللورين، إلا أن هنرى سرعان ما اكتسب ثقة الأمراء، وزعامـة ألمانـيا عندما أعلن اعتزامه الخروج بالحملة الصليبية التى كان قد وعد بها، وبمـزيد مـن التنازلات، وافق الأمراء فى ٢٥ديسمبر ١١٩٦ على تعيين فردريك ابنه ملكًـا(١٠٢). ومع أن هذا الذى تحقق لم يكن يمثل نجاحًا لكل مشروعات هنرى السادس، إلا أنـه ضـمن علـى الأقل استمرارية الأسرة على العرش. وإن كانت هذه الأحداث كشـفت بجـلاء عن حقيقتين هامتين؛ قوة الأمراء وازدياد نفوذهم، وارتباط مصالحهم بالمصالح البابوية.

علـى أن الشـئ الذى يستلفت الانتباه حقًا، هو أن الأمراء الألمان كانوا فى حالـة تعـرض ألمانـيا لخطـر خارجى يهددها، يتناسون – إلى حين – خلافاتهم ونـزعاتهم الشخصية، حتى وإن كانت مسألة ظاهرية. وقد تمثل ذلك عند الموافقة علـى اختـيار هنرى الأول الصياد، ثم الموافقة الإجماعية عند تعيين أوتو الأول ملكًا، كذلك الرضى العام الذى صحب اختيار فردريك الأول بربااروسا. وقد تكرر نفـس الشـئ الآن بعد وفاة هنرى السادس المفاجئ والمبكر عام ١١٩٧، فالأمراء الذين يحملون راية الصليب فى الشرق، أعلنوا ولاءهم لفردريك الثانى. وفى صقلية أظهـر مـاركوارد Markward أمـير انويلر Anweiler الحليف القوى والموالى لهـنرى السـادس، قـوة كبيرة فى الدفاع عن الحقوق الألمانية فى صقلية(١٠٣). أما

(١٠١) للمـزيد من التفاصيل، راجع Ullmann, A short history of the Papacy in the Middle Ages, pp.204-206.

(102) Barraclough, op. Cit., p.203.

(103) C.M.H., Vol. V, p.479, VI,12.

فيليب السوابى، أخو هنرى السادس، فقدم لتوه من توسكانيا وأعلن وقوفه إلى جانب فردريك، وأغرى زعماء سكسونيا وبافاريا باختياره وصيًا على العرش، حتى يبلغ فـــردريك سن الرشد[104]. وهكذا فإن حقوق الوراثة فى أسرة الهوهنشتاوفن، والتى تحداهـــا الأمـــراء عـــام ١١٩٦، وهنرى السادس بعد حى، قد ارتضوها الآن سنة ١١٩٨ عـــندما اخـــتاروا رودلف السوابى ملكًا بعد أن أعطى المواثيق والضمانات بعدم المساس بحقوق فردريك الثانى ابن أخيه.

كـــان مـــن الممكـــن جـــدًا أن تفيق ألمانيا من صدمتها العنيفة بوفاة هنرى الســـادس، وأن تســـتجمع قواهـــا مـــن جديـــد فـــى ظل ملكية موحدة كما أرادها الهوهنشـــتاوفن، لكن عاملين هامين قلبا كل هذه الاحتمالات وبدداها، أولهما تدخل الـــبابوية بصورة سافرة متمثلة فى شخصية أنوسنت الثالث الذى يعيد إلى الأذهان ذكرى سلفه جريجورى السابع، والذى وضع نصب عينيه منذ اليوم الأول لاعتلائه العرش تحطيم أسرة الهوهنشتاوفن، وبالتالى تحطيم الإمبراطورية، لتتحقق للبابوية الســـيادة العالمية الكاملة. وثانيهما التدخل الأجنبى فى شئون ألمانيا من جانب فرنسا وإنجلـــترا، ولم يكن ذلك راجعًا لمصالح لهما فى ألمانيا ذاتها، بقدر ما كان انعكاسًا للصـــراع الطويل بينهما حول الوضع القانونى لمنطقة نورماندى، بعد أن أصبحت مشكلة غاية فى التعقيد فى أعقاب فتح دوقها وليم لإنجلترا فى عام ١٠٦٦ وإعلان نفســـه ملكًـــا علـــيها ودوقًـــا لـــنورماندى. ولما كانت عائلة الولفيين ترتبط برباط المصـــاهرة مع البيت الإنجليزى الحاكم، منذ أصهر هنرى الأسد إلى هنرى الثانى ملـــك إنجلترا، بالإضافة إلى ما كان من أمر وقوع ريتشارد الأول ملك إنجلترا فى أســـر هـــنرى الســـادس، فى طريق عودته من الأراضى المقدسة، واستمرار بقائه أســـيرًا طـــيلة عاميـــن. إزاء هـــذا كـــان طبيعيًا أن تلقى فرنسا بثقلها إلى جانب الهوهنشـــتاوفن حتى لا تدع لإنجلترا فرصة الانفراد بإحراز نصر سياسى لها عن طـــريق أنصارها فى ألمانيا. إلا أن عاملاً ثالثًا كان له أكبر الأثر فى نجاح مسعى هذيـــن العامليـــن، ألا وهـــو طفولـــة الوريث الشرعى فردريك الثانى، مما أعطى

---

(104) C.M.H., Vol. V, pp. 45-46 .

الفرصـــة الســـانحة للحزبيـــن الكبيريـــن فى ألمانيا، الولفيين والهوهنشتاوفن، أن يصـــطرعا حـــول العـــرش، وعلـــى البابوية أولاً وأخيرًا تقع مسئولية هذه الفترة العصـــيبة من تاريخ ألمانيا، والتى كانت نقطة فاصلة فى تحويل مسارها التاريخى إلى دولة ممزقة الأشلاء مهلهلة، كما أرادتها البابوية! .

ولقد ظهر ذلك واضحًا من تلك اللهجة العنيفة والتوبيخ، الذى وجهه أنوسنت الثالث إلى كونراد رئيس أساقفة مينز سنة ١٢٠٠، عندما حاول جاهدًا إيقاف نزيف الدم المتدفق فى ألمانيا من جراء التطاحن بين الأحزاب المتصارعة؛ لأن هذا يعنى – كمـــا أفصـــح البابا – أن تقف ألمانيا جبهة موحدة، وهذا يجرد البابوية من حجية الـــتدخل فـــى شـــئون الإمبراطورية(١٠٥). أما الأمر الثانى فيتمثل فى تلك الأوامر الـــبابوية الصـــادرة إلى المندوب البابوى فى الغرب فى نفس العام، ببذل كل جهد لعـــرقلة إتمام الصلح الذى كانت المفاوضات تدور بشأنه بين فرنسا وإنجلترا، لأن إتمامـــه ســـوف يوقـــف تسابقهما على التدخل فى الشئون الألمانية، ويوقف بالتالى الفوضى الحادثة فى ألمانيا، ويجعلها تلتئم تحت سيادة الهوهنشتاوفن، أصحاب الحق الشرعى فى العرش، وهذا لا شك يؤلم البابوية! (١٠٦).

وكان عدد كبير جدًا من أمراء ألمانيا، ممن يمثلون الأرستقراطية النبيلة، قد اجـــتمعوا على اختيار فيليب السوابى، أخى هنرى السادس، ملكاً على ألمانيا عقب وفاة هنرى مباشرة، وتم تتويجه فى مينز فى الثامن من سبتمبر ١١٩٨. وفى مايو مـــن العـــالم الـــتالى، الـــتقوا فى سباير Speyer وكتبوا إلى البابا أنوسنت الثالث، يخـــبرونه أن اختيارهم للملك أمرًا لا رجعة فيه، وحق لا يمكن نقضه، ويوضحون لـــه أنهـــم ســـوف يظهـــرون فـــى روما قريبًا لاتمام الإجراءات الرسمية لتتويجه إمـــبراطورًا. وارتجع الأمر على أنوسنت الذى كان يرى فى هذا التصرف خروجًا على طاعته بمقتضى السلطة البابوية التى يدعيها الجالسون على الكرسى الرسولى فـــى روما، وحاول أن يوضح لهم اعترافه بحقهم فى اختيار الملك، لكنه ذكرهم أن

---

(105) Barraclough, op. Cit., p.207

(106) Id.

التاج الإمبراطورى يمنح من البابا وحده، وأنه فى حالة تنازع مرشحين على العرش، فإن المسألة تحتاج إلى تمحيص دقيق، وهذا يستدعى بعض الوقت. وكان هدف أنوسنت من ذلك واضحًا، كى يدفع كلا المرشحين لطلب عونه، وبالتالى تقديم تنازلات(١٠٧). لكن اجتماع سباير فى جوهره أعاد إلى الأذهان من جديد، ذلك المفهوم القديم جدًا عن الإمبراطورية، والذى أحياه فردريك بربار وسا، متحديًا ادعاءات البابوية، معلنًا - كما أسلفنا - أن من يتم اختياره من جانب الأمراء، يصبح إمبراطورًا شرعيًا، حتى قبل أن يحصل على موافقة البابا(١٠٨).

وفى مقابل فيليب السوابى، اجتمع عدد قليل من أنصار البيت الولفى، واختاروا أوتو الرابع دوق برنسويك، ابن هنرى الأسد، ملكًا منافسًا، وتوجوه فى آخن فى الثانى عشر من يوليه ١١٩٨. ولعبت الرشوة التى قدمها ملك إنجلترا للأمراء الألمان فى الشمال الغربى دورًا كبيرًا فى هذا الاختيار، حتى غدا الأمراء- كما وصفهم باراكلاف - مجرد جنود مرتزقة من كثرة ما دفع لهم من فرنسا وإنجلترا(١٠٩). وقد حمل هذا الترشيح معه نذر شر مستطير بالنسبة لألمانيا، فقد أفقدها لأمد بعيد امتد حتى القرن التاسع عشر، أملها فى دولة موحدة. وكان أوتو غريبًا عن الأرض الألمانية، إذ لم ير أرض آبائه من قبل؛ فقد ولد فى نورماندى، ونشأ فى بلاط إنجلترا، وأعلن ايرلا على يورك ١١٩٠، وكونتا لبواتو Poitou فى ١١٩٦. وصفه أحد المعاصرين بأنه كان "غطريسًا غبيًا"(١١٠). ولما كان لا يملك أى حق أو سند شرعى يؤهله لاعتلاء العرش، فقد أعلن على الفور قبوله لكل شروط البابا ونظريات البابوية فى السيادة.

ودون أن نخوض فى تفاصيل الصراع الداخلى والحرب الأهلية التى استمرت ما بين عامى ١١٩٨ و ١٢١٤ أى ستة عشر عاماً (١١١)، فإن ما يعنينا

---

(107) Stephenson, op. Cit., p. 406.

(١٠٨) راجع: Barraclough, op. Cit., p.210

(109) Barraclough, op. Cit., p.210.

(110) Slesser, The Middle Ages in the West, p.128.

(١١١) تراجع تفاصيل هذه الأحداث فى الفصل الأول.

مـــنها تلك الوثيقة الهامة، التى سجلها على نفسه البابا انوسنت الثالث والتى تفصح دون أدنـــى ريــب عن أهداف البابوية ومصالحها ومطامعها فى ألمانيا، وتشجيعها لاســتمرار هذه الحرب الأهلية الطاحنة، وإصرارها على أن تظل الملكية الألمانية انتخابية وليست وراثية، حتى تتاح لها الفرصة للتدخل فى شئونها.

والوثــيقة خاصـــة بقـــرار المفاضلة بين المرشحين الثلاثة، فيليب السوابى، وأوتـــو الـــرابع، وفردريك الثانى (١١٢)، وصدرت عن البابا سنة ١٢٠١، أى بعد ثلاث سنوات من الانتظار والترقب من جانب الأحزاب المختلفة، والتعمد من جانب الـــبابا. وقـــد جاء فى ديباجتها أن من مهام البابا النظر فى توفير الأمان والخيرية للإمـــبراطورية، وإنه "مادام الأمر قد انعقد باختيار ثلاثة ملوك من جانب الأحزاب المختلفة ... فإن أمورا ثلاثة أيضاً لابد أن توضع فى الاعتبار عند المفاضلة بينهم، وهـــى الشـــرعية والصـــلاحية وأســـلوب الاختـــيار". وراح أنوسنت يطبقها على المرشحين واحداً بعد الآخر، واعترف صراحة بأن "الشاب – يعنى فردريك الثانى – لـــيس هـــناك أى ســـبب قانونى للاعتراض على انتخابه، لأنه قد حظى من قبل بالإيمان التى أخذها أبوه على الأمراء ... وإن الأمراء قد صدروا عن ذلك بمحض اختـــيارهم .. ليس من الحق إذن معارضته". ورغم هذا الاعتراف الصريح، إلا أنه رفـــض تأييده، "لأن الأمراء عندما اختاروا للإمبراطورية شخصاً لا يصلح لها ولا لأى منصـــب آخر، لأنه لم يكن قد تجاوز من العمر عامين ... ولما كان لا يمكن حكـــم الإمـــبراطورية عـــن طريق وصى على العرش، أو نائب، ولما الكنيسة لا ترغـــب ولا تقدر على أن تمارس رعايتها دون إمبراطور، لذا كان من الضرورى اختيار شخص آخر".

أمـــا فـــيما يـــتعلق بفيليـــب الســـوابى، "فلا يبدو أن هناك أيضاً من الناحية الشـــرعية، والقانونية ما يعترض اختياره"، حيث اختاره عدد كبير من الأمراء، من ذوى المرتـــبة الرفعـــية، وهكـــذا "فإن اختياره يبدو شرعياً ... ولكن دون اختياره

---

(112) Innocent III, The decision of the disputed election of Frederick, Philip of Suabia, and Otto, 1201, (in Thatcher & McNeal, A Source book for Mediaeval history, pp. 220 – 227).

عقـبات ... فهـو قـد حـرم كنسيا لأنه استولى على أراضى القديس بطرس فى توسـكانيا ودمـرها ورفـض المصالحة". لكن أهم ما فى الأمر هنا قول انوسنت الثالـث؛ "وليكن واضحاً أيضاً، أنه ربما يكون من اللائق أن نعترض على اختياره، لأنـه باعـتلائه العرش، سوف يرث الأخ أخاه، كما ورث ابن من قبل أباه، عندما سـلم فـردريك الأمر إلى ابنه هنرى السادس، سوف تنحو إلى أن تصبح وراثية، وبالتالى سوف تغدو المفسدة قانوناً بحكم طول العادة!!".

وهـذا هو بيت القصيد فى القضية كلها .. فالبابوية لا يعنيها قرار الحرمان هذا. فقد كان بمقدورها أن تضعه عن كاهل من حملته إياه، ولا تقيم وزناً للشرعية أو الصلاحية أو أسلوب الاختيار، وهى القواعد الثلاث التى وضعها بنفسه أنوسنت فى البداية معياراً للمفاضلة. وهذا يتضح على الفور من حديثه عن أوتو الرابع حين يقـول: "أنـه يبدو للوهلة الأولى أنه ليس من اللائق قانوناً الوقوف إلى جانبه، لأنه اختـير علـى يد نفر قليل، كما أن حزبه قليل وضعيف" (١١٣) . ومع ذلك فهو يؤيد اختياره ويعتبره أفضل المرشحين الثلاثة، ويعلنه ملكاً على ألمانيا.

كـان هـذا القرار من جانب أنوسنت الثالث، ضربة قاضية وجهت إلى مبدأ الوراثة فى الملكية الألمانية، وانتصاراً ساحقاً لمبدأ الانتخاب. لكن الضحية فى حلبة الصـراع كانـت ألمانـيا ذاتها التى حرمت قيام دولة قوية موحدة، حتى سبعينيات القرن التاسع عشر، على النحو الذى عرضنا له فى مقدمة بحثنا؛ ذلك أن البابوية لم تقـف عـند حـد إصدار القرار، بل مارست التدخل العلنى السافر، وراحت تنقل تأيـيدها – دون مراعاة لأية مبادئ – من فريق إلى آخر حسبما تقتضى مصالحها. فهـا هـى تؤيد أوتو الرابع، فيقدم لها تنازلات مهينة على حساب الملكية الألمانية، حـتى إذا أحسـت أن قضـيته أمست خاسرة، وإن كفة فيليب هى الراجحة، قلبت لحلـيفها الأول وصنيعها ظهر المجن، وأعطت خصمها الهوهنشتاوفنى كل تأييدها، وحصـلت منه بالتالى على تنازلات أشد مهانة (١١٤) . حتى إذا اختطفه الموت غيلة

---

(١١٣) كان عدد الأمراء الذين اختاروا فيليب السوابى، ٢٦ أميراً، بينما أيد أوتو ستة أمراء فقط. راجع Slesser, op. cit., p. 129.

(114) Philip of Suabia, Concession to Innocent III, 1203, in Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 228-230.

عـــام ١٢٠٨، والـــتف الأمراء حول أوتو الرابع ثانية، بعد أن سئموا هذه الحرب الطويلة، أعلنت من جديد وقوفها إلى جواره، لكنها سرعان ما سعرت لهيب الحرب ضـــده عندما رأت فيه هوهنشتاوفى السياسة، رغم أصله الولفى، وأنه يسعى لإقامة ألمانـــيا قويـــة مـــرة أخـــرى. وعادت تستدعى ذلك "الشاب" - كما يصفه البابا - فـــردريك، الذى نبذته مكانا قصياً، وأعلنته ملكاً، ولم يتوان فردريك هو الآخر عن تقديـــم المـــزيد مـــن التنازلات الأقصى مهانة (١١٥). وخلال هذا كله كانت فرنسا وانجلـــترا تستبقان من أجل تحقيق نصر سياسى فى ألمانيا، يحقق بالتالى كسبا فى نورمـــاندى، حـــتى تمكنت القوات الفرنسية المناصرة لفردريك، من إنزال هزيمة قاســـية عـــند بوفـــان Bouvines سنة ١٢١٤ بالقوات الإنجليزية الولفية المشتركة، أضـــحت فرنسا على أثرها، أكبر قوة سياسية فى أوروبا، بينما انحطت ألمانيا إلى السفح تضمد من نفسها الجراح!.

ورغـــم أن فردريك الثانى (١٢١٢ - ١٢٥٠) بعث قوة أسرة الهوهنشتاوفن ثانية، ونفخ فى روح ألمانيا من جديد، إلا أن عهده كان بريقاً خاطفاً سرعان ما خبا فـــى الظـــلام، فقد ناصبته البابوية العداء السافر حتى مات. واضطر هو فى سبيل ضـــمان تأييد الأمراء، إلى إعطائهم الكثير من الامتيازات والتنازلات على حساب الـــتاج الألمـــانى (١١٦)، فلما مات عام ١٢٥٠، مات معه كل أمل فى دولة ألمانية قوية، وتولت البابوية الإجهاض على مبدأ الوراثة تماماً، بعد أن سددت له الضربة القاضـــية مـــن قـــبل، وغرقت ألمانيا فى بحر من الفوضى، استمرت ثمانية عشر عامـــاً (١٢٥٠-١٢٦٨)، رشـــحت البابوية خلالها ملوكاً لألمانيا، ليسوا من بينها على الإطلاق، ريتشارد ايرل كورنول Richard of Cornwall والفونسو العاشر ملك قشتالة Alfonso X of Castile وحتى تطمئن البابوية إلى أن مبدأ الوراثة فى الملكية الألمانـــية قد أدخل القبر، سيق الصبى الصغير كونرادينو Conadino حفيد فردريك الثانى، وآخر سلالة أسرة الهوهنشتاوفن، إلى نابولى، حيث أعدم بموافقة البابوية!.

(115) Frederick II, Promise to Innocent III, 1213; Promise to resign Sicily 1216, (in Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 230 – 233).

(116) Fredrick II, Statute in favor of the princes, 1231 – 1232; Concessions to the ecclesiastical princes, 1220 (in Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 238-240, 233 – 36).

ولعـل خـير مـثال يوضـح لنا الحال التى ترددت فيها ألمانيا آنذاك، أقدم الأمراء فى عام ١٢٧٣ على اختيار رودلف الهابسبورجى Rudolf o Habsburg إذ رأى فـيه الأمراء شخصاً ينتمى إلى عائلة لا تستطيع أن تطاولهم قوة. حقيقة كانت للهابسـبرج أراضيهم فى الألزاس، وأعالى الراين. ولم تكن هناك دلائل تشير إلى مسـتقبل مـا لهـذه الأسـرة. لقد كان رودلف يعتمد على الأمراء بصورة جعلتهم يظفرون منه بوعود قاطعة، بأنه لن يقدم على التصرف فى أى جزء من أراضيه، هـبة، دون موافقـتهم (١١٧) . ولدينا وثيقة دامغة على هذه الناحية، جاءت على قلم رئـيس أساقفة مينز، تقول: "وارنر Werner رئيس أساقفة مينز بفضل الله ... لما كـنا نرغب فى أن نكون مطيعين ومتفقين مع سيدنا الجليل، رودلف، الملك، فأنا قد أعطيـناه بصـورة تامـة وصريحة موافقتنا على أن يهب كإقطاع قرى لنكرشايم Lenkersheim وايرلـباخ Erlebach وبـروك Brucke وكل متعلقاتها إلى فردريك حاكم نورنبرج Nurnberg حيثما رغب فى ذلك" (١١٨) .

لقـد كان الانتخاب فى الفترة المبكرة، محط اهتمام كبار النبلاء، باعتبارهم ممثليـن للدوقات الألمانية، وإن كانت قد جاءت فترات معينة، حولت فيها الوراثة، مسـألة الانتخاب إلى مسألة نظرية فقط. فلما توفى هنرى السادس، ودست البابوية فـى ألمانـيا أنفها وذراعيها وقدميها، أصبح الانتخاب حقيقة واقعة، وتخلفت ألمانيا عن انجلترا وفرنسا سبعة قرون سويا.

---

(117) Waley, op cit., pp. 76 – 78.

(118) Werner, Electoral letter of Consent, 1282 (in Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 265 – 266

وراجع أيضاً وثيقة اختيار هنرى السابع اختيار هنرى السابع سنة ١٣٠٨ ليتضح مدى دور الأمراء فى ذلك Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 277-278

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر الأصلية

- Adalbert, Archbishop of Mainz: Letter to the bishop of Bamberg.

- Adrian IV (Pope 1154 – 1159):
  - Teaty of Adrian IV and Wiliam of Sicily, 1156.
  - Letter of Adrian IV to Frederick I, 1157.
  - Letter of Adrian IV to Frederick I, 1158.
  - William of Sicily, King: Treay of Amalfi. 1156.

-Albert, German King:
  -The archbishop of Mainz is confirmed as archchancellor of Germany, 1298
  -Frederick II, Emperor : Promise to Innocent III, 1213
  -Frederick Promise to resign Sicily, 1216.
  -Frederick Concessions to the ecclesiastical princes, 1220.
  -Frederick Statue in favor of the princes, 1213-1232.
  -Gregory VII, Pope : Dictatus papae.

- Ambrosius, Sermo contra Auxentium: Nicene X 2, 430-435 (=PL.XVI 1007-1018). – Ad Theodosium Augustum. Ep. XL: Nicene X 2, 440-445.

-Anna Komnena, Alexiad, translated E.R.A. Sweter, Penguin book 1969.

- Augustinus, De Civitate Die, Eng. trans. M. Dods, Edinburgh, 1949.

-Athanasius, Epistola de Synodis Arimini in Italia et Seleuciaie in Isauria celebratis: Nicene IV 2, 451-480 (=PG. XXVI) 681-793)- Historia Arianorum as Monachos: Nicene IV 2, 270-302 (=PG XXV 696-796).

- Concordat of Worms, 1122.

-Conrad III, (Emperor 1138-1152): Letter of Conrad III to the Greek (Byzantine) Emperor John Comnenus, 1142.

-Donatio Constantini.

- Edict cancelling the sentence against Gregory VII.

-Einhard, Vita Caroli, Eng. trans. Lewis Thrope, Penguin Book, 1969.

-Eugenius III, Pope, Letter to king Louis VII of France.

-Eusebius, Vita Constantini: Nicene I 2, 473-580 (= PG. XX 905-1232).

-Frederick I Barbarossa, (Emperor 1152-1190): Letter of Frederick I to Eugene III, 1152.

-Manifestyo of Frederick I, 1157.

-The Peace of Contance, 1183

- Frederick I and Eugene III (Pope 1153-1154): Traty of Constance 1153.

-Gelasius, Pope, Letter to Anastsius.

- Gregory I, Letter to Maurice.

- Gregory II, Pope, Letter to Leo III.

-Gregory VII (Pope 1073-1085): Letter of Gregory VII to Henry IV, 1075.

- to the princes wishing to reconquest Spain, 1073

-Letter to the German princes giving an account of the incident at Canossa, 1077.

-to Solmon, King of Hangary 1074.

-Calls for Crusade 1074.

-Sumons Christians to repentance and describs the crusade as a test imposed by god, 1187.

-accords the Church's protection to Crusader Hinco of Zerotjn 1187.

-Letter to Wratislav, duke of Bohemia 1073.
-Letter to Sancho, King of Argon 1074.
-Letter to Solomon, King of Hungary 1074.
-Letter to Demetrius, King of Russia 1075.

-Gregory VIII, Pope, Sumons christians to repentance and describs the crusade as a test imposed by God, 1187.
-Accords the chruch's protection to the crusader Hinco of Zerotjn 1187.

-Gregory IX, Pope, Excommunication of Frederick II 1239.

-Gregory IX and Frederick II, Emperor; Papal Charges and Imperial defence1238.

- Guiscard, R., The oaths of Robert Guiscard to Nicholas II 1059.

- Henry III, Emperor, The emperor deposes and Creats Popes 1048.

- Henry IV, Emperor: Promise of King to offer obedience to the Pope.

- Henry VII, German King: Declaration of the election of Henry VII 1308.

- Henry, Emperor, The deposition of Gregory VII 1076.

-Hosius, Bishop, Epistola ad contantium Augustum (in Athanasius, historia Arianorum 44).

- Innocent II, Pope: Innocent III grants the land of Countess Matilda to Lothar II, 1133.

- Innocent III, Pope : Letter to the Archbishop of Ravenna 1198.
  - Letter to the King of Armenia 1199.
  - Letter to the Prefect Acerbus and the nobles of Tuscan 1198.
  - Sermon on the Consecration.
  - Beging the taxation of the church for the crusades 1199.
  - Sermon on consecration of a pope.
  - Decision in regard to the disputed election.
  - Grants the of king to the duke of Pohemia 1204.

- The decision of the desputed election of Frederick, Philip of Suabia, and Otto, 1201.
- Innocent IV (Pope 1243-1245): Sentence of deposition of Frederick II promulgated by Innocent IV in the general Council of Lyons 1245.
- John IX, Pope; enactment of a Roman Synod 893.
- Justinianus, Emperor, Novellae, translated into French by M. Berenger.
- Karl the Great, Emperor, Letter to Leo III.
- Lactantius, De mortibus persecutorum: Ante Nicene VIII 301-322 (=PL.VII 2, 189-276).
- Leo III, Pope: The oath of Leo III before Karl Great.
- Leo VIII, Pope: Leo VIII grants the emperor the right to choose the Pope and invest all bishops 963.
- Letter from the church at Rome to the Emperor at Constantinople, asking him to Confiem the election of their bishop.
- Letter from the church at Rome to the Exarch at Ravenna, asking him to Confirm the election of their bishop.
- Liudprand (Bishop of Cremona): Report of his embassy to Constantinople, 968.
- Nicene and Post Nicene Fathers of the Christian Church, ed. by Philip Schaff & Henry Wace, Michigan 1891 et Sqq.
- Nicholas II (Pope 1059-1061): Papal election decree of Nicholas II, 1059
- Socrates, Historia Ecclesiastica: Nicene II 2, 1-1178 (=PG. LXVII 29-842).
- Philip of Suabia, German King: Concessions to Innocent III, 1203.
- TREATY of SAN GERMANO, 1230.
- URBAN II, Pope, -to all the faithful in Flanders, 1095.
    - to this partisans in Bologna, 1096.
    - to the religious of the Congregation of Vallombrosa, 1096.

- Werner, Archbishop of Mainz: Electoral "letter of Consent". 1282.
- Widukind, History of the Saxons (in. S.B.M.H)

وهذه الوثائق موجودة ضمن مجموعات الوثائق التالية:

- Bettenson (H.), Documents of the Christian Church, London 1956.
- Brand (CH.), Byzantium Confronts the West, Harvard university press, 1968.
- Brook (CH.) Europe in the central Middle Ages, 962-1154, London 1966.
-Cantor (N.), Medieval history: the life and death of a civilization, New York, 1966.

وقد قام الدكتور قاسم عبده قاسم بترجمة هذا الكتاب فى جزءين، صدر الأول منهما عن دار المعارف فى عام ١٩٨١، والثانى تحت الطبع. وقد تفضل مشكوراً بإطلاعى على النسخة الخطية لترجمة الجزء الثانى.

- Cantor (N.), The Medieval wold 300-1300, London 1968.

ثانياً: المراجع الأوربية

- Barry (W.), The Papal Monarchy, from st. Gregory the Great to Boniface VIII, New York 1906.
-Barraclough (G.), Mediaeval Germany, 911 – 1250; essays by German Historians, translated and ed. By Barraclough, Oxford 1948.
- Barraclough (G.), The Origins of Modern Germany, Oxford, 1947.
-Barlow (F.), The feudal Kingdom of Englan, 1042 – 1216, London, 1974.

Bettenson, (H.), Documents of the Christian Church, London, 1956.

Brackman, (A.), The Beginning of the National State in Medieval Germany and the Norman Monarchies, (in Medieval Germany, Vol. II, pp. 281-299), Oxford, 1948.

Brooke (ch), Europe in the Central Middle Ages, 962-1154, London, 1966.

· Brooke (Z.N.), A history of Europe from 911 to 1198, London 1966.

· Bryce (J), The Holy Roman Empire, London 1950.

-Care, (R.), and Coulson, (H.), A Source Book for Medieval Economic History, New York, 1965.

-Cambridge, Medieval History, 8 Vols. Planned by J.B. Bury, Cambridge 1962. Vols. II, III, V, VI.

- Davis (R.H.G.), A history of Medieval Europe, from Constantine to St. Louis, London, 1957.

-De Wulf, (M.), Philosophy and Civilization in the Middle Ages, New York, 1953.

-Douglas (D.C.), Wiilliam the Conqueror, London 1969.

-Freiherer (O.), Constitutional Reorgnization and Reform under the Hohenstaugen, trans. from German by Barraclough, in Mediaeval Germany, Vol. II, pp. 203-233). Oxford 1948.

- Ganchof (F.), Feudalism, Hong Kong, 1976.

-Haskins (Ch.), The Normans in the European History, New York, 1966.

-Heer, (F.), The Medieval World, Europe 1100-1350, translated from German by Barraclough (in Medieval Germany, Vol. II, pp. 95-129), Oxford, 1948.

-Hinderson, (E.), Select Historical documents of the Middle Agcs, London, 1923.

-Hodgett (G.A.), A Social and Economic History of Medieval Europe, London, 1972

- Holmes (W.G.), The Age of Justinian and Theodora, London, 1912. 2 Vols.

--Hyed, (J.), Socitey and Politics in Medieval Italy, the Evolution of the Civil Life, 1000-1350, London, 1973.

-Joachimsen (p.), The investiture contest and the German Constitutions, trans. from German by Barraclough in (Mediaeval Germany, Vol. II, pp. 95-129), Oxford 1948.

-Jones, (A.), Later Roman Empire, Oxford, 1964. 2 Vols.

- Kantorowicz, (E.), Frederick the Second, London, 1931.

-Mayer (Th.), The historical foundations of the German Constitution, trans. From German by Barraclough in (Mediaeval Germany, Vol. II, pp. 1-34), Oxford 1948.

- Mitteis (H.), Feudalism and the German Constitution, trans from German by Barraclough, in (Mediaeval Germany, vol II, pp. 235-279) Oxford, 1948.

- Mundy (J.H.), Europe in the high Middle Ages, 1150-1309, London, 1973.

- Ozmet, (S.), The Age of Reform, 1250-1550, London, 1980.

-Paoluci, (H.), The Political Writings of St. Augustine, Indiana, 1962.

-Pfister (ch.), Gaul under the Merovingian Franks, in (C.M.H.) Vol. II, pp. 133-158.

- Pirenne (H.), A history of Europe, London, 1951.

-Pirenne (H.), Economic and social History of Medieval Europe, London, 1972.

-Pounds (N.), An Economic History of Medieval Europe, London, 1974.

-Riley-Smith, The Crusades, Idea and Reality, 1095-1274, Documents of Medieval History, London, 1981.

-Runciman, (S.), A History of the Crusades, London, 1965. 3 Vols.

-Scott (W.), Medieval Europe, London, 1975.

-Setton, (K.), A History of the Crusades, Philadelphia, 1955-1989. 6 Vols.

- Southern, (R.), Western Society and the Church in the Middle Ages, Penguin Book, 1978.

-Schmeidler (B.), Franconia's place in the structure of Mediaeval Germany, trans. form German by Barraclough in (Mediaeval Germany, vol. II, pp. 71-94). Oxford 1948.

- Slesser (H.), The Middle Ages in the West, London.

- Stephenson (C.), Mediaeval History, New York, 1962.

-Strayer (J) & Munro (O.), The Middle Ages, 395-1500, New York, 1970.

-Thatcher, (O.), and McNeal, (E.), A Source Book of Medieval History, New York.

-Thompson (J.W) & Johnson (E.N.), An introduction to Medieval Europe, 300-1500, New York, 1966.

- Tierney (B.), The Crisis of Church and state, 1050-1300, USA, 1964.

- Tout (T.F.), The Empir and the Papacy, London, 1924.

-Ullmann (W.), The growth of Papal government, in the Middle Ages, London, 1955.

-Ullmann (W.), Law and Politics in the Middle Ages, London, 1975.

-Ullmann (W.), A Short history of the Papacy in the Middle Ages, London 1974.

-Vasiliev, (A.), History of the Byzantine Empire, Madison, 1964. 2 Vols.

-Vinogradoff (P.), Feudalism, in (C.M.H. Vol. III, pp. 458-484).

-Waley (D.), Later Medieval Europe, form St. Louis to Luther, London, 1976.

ثالثاً: المصادر و المراجع العربية والمعربة

- إبراهيم العدوى، المجتمع الأروبى فى العصور الوسطى ــ القاهرة ١٩١٦.

-أسحق عبيد، الفرسان والأقنان فى مجتمع الإقطاع ــ بيــروت ١٩٧٥ .

-أســحق عبــيد : الدولـــة البيزنطية فى عصر باليولوغوس، منشورات جامعة بنغازى، طبعة بيروت بدون تاريخ.

-أســحق عبيد: روما وبيزنطة، من قطعية فوشيوس حتى الغزو اللاتينى لمدينة قسطنطين، القاهرة ١٩٧٠.

- جرانــت (أ.ج) وتمــبرلى (هــــ.)، تــاريخ أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشــرين، جــزءان. الجزء الأول ترجمة الأستاذ بها، فهمى. القاهرة بدون تاريخ.

- جوانفــيل (ج) : القديس لويس، حياته وحملاته على مصر والشام، المعروف بمذكــرات جوانفــيل، تــرجمة وتعليق دكتور حسن حبشى - القاهرة ١٩٦٨.

- جوزيــف نسيم يوسف : الدولة والإمبراطورية فى العصور الوسطى ترجمة لبحثين للأستاذين. م. هارتمان، .ج. باراكلاف. القاهرة ١٩٧٠.

- جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر، هزيمة لويس التاسع فى المنصورة وفارسكور. القاهرة ١٩٦٩.

- جوزيــف نســيم يوســف: نشــأة الجامعــات فى العــصور الوســـطى، الإسكندرية ١٩٧١.

- دولــت صادق، جغرافية العالم، دراسة إقليمية. الجزء الأول. القاهرة ١٩٥٩ - الجغرافية السياسية. القاهرة ١٩٦٥.

- ديفــز (ر. هــــ. س): شارلمان، ترجمة دكتور السيد الباز العرينى، القاهرة ١٩٥٩.

- رأفت عبد الحميد: الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب، (مجلة ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، المجلد الثاني، القاهرة ١٩٨٣) ص ٨٣- ١٤٤.

- السمو البابوى بين النظرية والتطبيق، (مجلة ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، المجلد الثالث، القاهرة ١٩٨٥) ص ١٥٨-٢٢٥.

- الدولة والكنيسة - الجزء الثاني. القاهرة ١٩٨٢- المشكلة الإيطالية في السياسة الألمانية، بحث منضور في مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية. العدد ٣٠.
- "الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب" بحث منشور في المجلد الثاني من ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، ١٩٨٣.

- رنوفان، تاريخ العلاقات الدولية ١٨١٥ - ١٩١٤. ترجمة دكتور جلال يحيى. القاهرة، بدون تاريخ.

- روبير الراهب: رواية روبير الراهب عن مجمع كليرمونت، ترجمة قاسم عبده قاسم في كتابه "الحروب الصليبية، نصوص ووثائق"، القاهرة بدون تاريخ.

- زابوروف (ميخائيل)، الصليبيون في الشرق، موسكو ١٩٨٦.

- سباين (ج.) : تطور الفكر السياسي، ترجمة حسن جلال العروسي ودكتور راشد البراوي في خمسة أجزاء.القاهرة ١٩٦٣ - ١٩٧١.

- سعيد عاشور : الجامعات الأوروبية في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٥٩.
- الحركة الصليبية، جزءان، القاهرة ١٩٨٣.
- أوروبا العصور الوسطى، الجزء الأول: التاريخ السياسي القاهرة ١٩٥٨، الجزء الثاني، القاهرة، ١٩٦٣.

- عبد الحميد متولي، الوجيز في النظرات والأنظمة السياسية ومبادئها الدستورية. القاهرة ١٩٥٨ - ١٩٥٩.

- فيشر (هـ) : تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ترجمة دكتور محمد مصطفى زيادة ودكتور السيد الباز العرينى. القاهرة ١٩٦٦.

- فيشـر (هـ)، تاريخ أوروبا فى العصر الحديث ١٧٨٩ ـ ١٩٥٠. ترجمة دكتور أحمد نجيب هاشم، وديع الضبع. القاهرة ١٩٥٨.

- كانتور (ن.) : التاريخ الوسيط، قصة حضارة، البداية والنهاية، ترجمة دكتور قاسم عبده قاسم فى جزءين القاهرة ١٩٨١، ١٩٨٣.

- كرامـب (ج.)، جـاكوب (إ.): تـراث العصـور الوسطى، جزءان ترجمة مجموعـة مـن أسـاتذة الجامعـة المصرية تحت إشراف محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٦٥.

- كوبلانـد (ج. و) : القنـية والإقطاع، مقال فى "تاريخ العالم"، الذى أشرف على نشـره السـيرجون أ. هامرتن، المجلد الثانى، ص٣ – ٢٢. القاهرة ١٩٥٧.

- كوبلانـد (ج. و) وفيـنوجرادوف (ب): الإقطـاع والعصور الوسطى غرب أوروبا، ترجمة د. محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٥٨.

- لاسـكى (هـ) : أصول السياسة، أربعة أجزاء، ترجمة محمود فتحى عمر. القاهرة بدون تاريخ.

- محمد كامل ليلة، النظم السياسية، القاهرة ١٩٦٣.

- محمـد معـروف الدواليبى: الوحيز فى الحقوق الرومانية وتاريخها جزءان. دمشق ١٩٦٣.

- هسى (ج. م): العالم البيزنطى. ترجمة دمتور رأفت عبد الحميد. القاهرة ١٩٨٢.

- محمود سعيد عمران، الحملة الصليبية الخامسة، القاهرة ١٩٨٥.

- مـوس (هـ)، مـيلاد العصور الوسطى، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة ١٩٦٧.

- نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط فى أوروبا، لبنان، ١٩٦٧.

-هـــاوزر (أ.) : الفــن والمجــتمع عبر التاريخ. جزءان. ترجمة دكتور فؤاد زكريا. القاهرة ١٩٧١.

- هتلــــــــــــــر، كفاحى، ترجمة لويس الحاج، بيروت ١٩٦٨.

-هسى (ج. م.) العالم البيزنطى، ترجمة رأفت عبد الحميد، القاهرة ١٩٨٤.

فهرس

هذا الكتاب

لم يكن الفكر السياسى الرومانى يقبل مطلقاً وجود كيان مستقل عن سلطة الإمبراطور، أو بتعبير آخر دولة داخل الدولة.

فالإمبراطور هو الكاهن الأعظم، وهو صاحب السلطة المطلقة فى دولته؛ والكنيسة تنأى بنفسها عن هذا السلطان، وشعب الكنيسة يجل أسقفه أكثر مما يعظم الحاكم؛ ورأس الكنيسة، أى البابا، يرى أنه ورث عن بطرس كل السلطات، فما يحله الأخير فى السماء يحله البابا على الأرض وما يربطه فى السماء يربطه البابا على الأرض، وعلى هذا فسلطة البابا الروحية تسمو على غيرها من السلطات العلمانية، وما كان للإمبراطور أن يرتضى هذا !! وأخذت البابوية تقلب بنظرها فى سماء أوربا، لتجد فى الفرنجة خير معين. واستدارت إلى الألمان لتجعل منها قريناً للفرنجة فى إخلاصهم وحرصهم على البابوية. ولكن سرعان ما اكتشفت أن الأباطرة الألمان كانوا يؤمنون بسمو السلطة العلمانية على السلطة البابوية .. ليبدأ الصدام بين الأيدلوچيا ال[illegible] فى الفكر البابوى والأيدلوچيا العلمانية ممثلة فى ال[illegible]